د.عبد الودود شلبي



دار الشروق


حتى لا نخدع

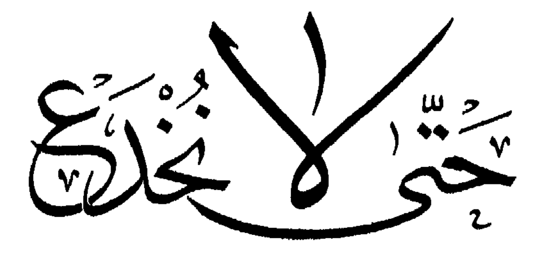
الطبعة الخامسة

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

نحو وعي إسلامي رشيد



دكتور عبد الودود شلبي

دار الشروق


بسم الله الرحمن الرحيم

إلى التائهين

في العالم الإسلامي

حتى لا تكون فتنة ..

ويكون الدين كله لله ..

الصَّنَم الذي هَوَى

من أين يبدأ الحديث ؟

كان ذلك منذ عهد بعيد جداً ... كنا تلامذة صغاراً نحبو في طريق المعرفة ، وفي « معهد القاهرة » الذي كان واحداً من أكبر المعاهد الأزهرية في مملكة مصر ..

كانت الحرب العالمية الثانية في أيامها الأولى ولا زلت أذكر ـ وأنا أتجول في « صحن الأزهر » هذا العنوان الذي ظهرت به الصحف في ذلك الحين ، وبالبنط الأحمر الكبير ... لا زلت أذكر هذه العبارة التي نطق بها رئيس الوزراء « علي ماهر باشا » حين سئل عن موقف مصر من هذه الحرب وعن استعدادها وتوقعاتها فأجاب الرئيس المخضرم قائلاً ...... إن الله معنا .... ! .

لم نكن نعرف عن روسيا ولا الشيوعية إلا النذر اليسير من المعرفة لم تكن هناك علاقات دبلوماسية ، ولا تمثيل سياسي من أي نوع وكانت كلمة « الشيوعية » تذكر في هذه الأيام موصومة بالعار والكفر والجريمة الفاحشة ؟

* * *

كانت مصادر الأنباء وينابيعها . وإن شئت فقل « أنابيبها » تأتي من جهة واحدة . ومن دول وحكومات كان أعز أمنياتها وأحلامها ـ أن تقضي على البلشفيك وحركتهم المخربة الهدامة ؟

ولم تكد روسيا تدخل الحرب إلى جانب الحلفاء .. ويتعاقد « تشرشل » - على حد قوله - مع « الشيطان » حفاظاً على الحرية والديمقراطية ، وعلى بلده التي كانت عظمى لم يكد يحدث هذا التحول والاتفاق ... حتى بدأ الحديث عن الشيوعية ينتشر . والهمس حولها يتزايد .. وصار مألوفاً عادياً أن يرى الناس في شوارع القاهرة تلك الملصقات التي تجمع في صورة واحدة بين تشرشل وروزفلت وستالين الحليف الروسي المنشق .. !

* * *

وشيئاً فشيئاً بدأ الغطاء ينكشف والبخار يتصاعد . والنشرات السرية تظهر في هذا المصنع . وفي هذه « الكلية » وفي بعض المقاهي والأندية وأحياناً تظهر في أدراج الطالبات والطلبة ...

* * *

وكان الأستاذ محمد صبيح أحد الرجال البارزين في حزب .... « مصر الفتاة » يصدر سلسلة ثقافية عن الزعماء والقادة وفي حلقة من هذه السلسلة أصدر كتاباً عن « ستالين » ضمنه كثيراً من الآراء - الجديدة عن الشيوعية ، وعن أفكارها السياسية والاقتصادية وعن موقفها من الدين والعقيدة وحاول في كتابه أن يقدم الحقيقة كما يراها ويعتقدها ، وأن يميز بين الزيف والحقيقة في الدعاية الموجهة إليها ، وكان صدور هذا الكتاب في حد ذاته ، ونشره في حينه ظاهرة جديدة تسمح - على الأقل - بمناقشة هذه القضية والاذن بممارسة الفكر لقضاياها النظرية والفلسفية ...

ولأول مرة في تاريخ مصر . ظهرت بعض الصحف والمجلات التي تتكلم صراحة عن الشيوعية ... « الجماهير » و « الملايين » و « أم درمان » وهذه الأخيرة كانت مجلة يصدرها شيوعي سوداني

اسمه عبده ذهب ـ على ما أذكر ـ وقد أصبح الآن من رجال الأعمال في السودان ويدير كازينو للترفيه والتسلية هناك ...

أما مجلة الجماهير فقد كان يرأس تحريرها لطفي الخولي الذي يرأس حالياً[1] .. تحرير مجلة الطليعة التي تصدرها مؤسسة الأهرام في القاهرة .

كما ظهرت بعض المكتبات التي تبيع الكتب الشيوعية بأثمان زهيدة وكان من أشهر هذه المكتبات مكتبة في ميدان « سليمان باشا » أسسها المليونير اليهودي هنري كورييل ...

* * *

لم أكن أترك كتاباً أو مجلة من المجلات في هذه الفترة . كنت تواقاً إلى المعرفة نهماً لكل جديد في الفكر والثقافة ... وبالرغم من ثقافتي الأزهرية ... وتربيتي الدينية العميقة ، فقد كنت أومن في قرارة نفسي وبإقناع صادق من إيماني وعقيدتي أن المسلم الحق لا ينبغي أن يغمض عينيه عما يدور حوله .. وأن الواجب الديني يفرض علي أن أعرف وأتعلم وأبحث وأناقش . وأن على العالم المسلم أن يكون أشبه بجهاز « الرادار » الذي يرصد كل حركة في الأفق ليتبين مواقع الخطر ويحدد أماكن الهجوم والدفاع ، أو يكون كالطبيب يدرس كل الأمراض والعلل . ويعرف حركة الميكروب والجراثيم وإلا كان هو نفسه أول الضحايا .

* * *

لهذا كله لم أكن أضيق بالرأي المعارض .. ولم أكن أقف موقف الكثيرين من مخالفيهم في الرأي . وقد أكسبني هذا الموقف

---

(١) ١٩٧٣ .

صداقة بعض الشيوعيين في هذه المرحلة .. كان هناك مقهى في حي خان الخليلي يسمى « زهرة إيران » كان صاحب هذا المقهى من الإيرانيين الذين استوطنوا مصر ، وكنا نلتقي فيه بعد انتهاء الدراسة في المعهد ، أو في أيام الاضرابات التي كانت كثيرة في هذا العهد ... كان الشيوعيون يعرضون عليّ قراءة صحفهم ... فيفاجأون بأني قد قرأتها قبلهم ... ويوماً بعد يوم أنسوا بي ، واطمأنوا إليّ فعرض عليّ أحدهم واسمه م. ع. ف وقد أصبح فيما بعد من زعماء الحركة الشيوعية ـ أن نلتقي مساء في المقهى . فوافقته على اللقاء في الموعد الذي حدده . ثم أخذني بعد ذلك إلى حي « عابدين » وسرنا معاً من حارة إلى حارة . ومن زقاق إلى زقاق وانتهى بنا المطاف إلى مقهى حقير متواضع يجلس فيه بعض الأخوة النوبيين ... وبعد تناول الشاي الثقيل المر ... أخرج من جيبه وريقات ثم بدأ يقرأ منها ..

– ما هذا ؟

ـ قلت للرفيق « م. ع. ف » متسائلاً ...

– إنها المادية الجدلية ...

المنطق التاريخي للنظرية الشيوعية . أو « المتن » الحقيقي لكتاب « رأس المال » كما نقول نحن في دراستنا الأزهرية ... وتركته يقرأ .. ويشرح .. ويفسر .. لم أقاطعه ولم أظهر استيائي منه .. لقد انخدع « الرفيق » بسماحتي الفكرية .. وتوهم المسكين أنني « جاهز » للتحول إلى الماركسية اللينينية ـ إنني أقرأ الصحف والمجلات الشيوعية وأخطب في الطلاب وأقودهم في المظاهرات الوطنية .

فكيف لا أكون رغم ذلك عضواً في الحركة الجديدة ... ؟ ولماذا لا أتحول بقدرة « ماركس ولينين » إلى الطبقة البروليتارية المجيدة ؟

* * *

وتكررت اللقاءات والقراءات .. وفي الجلسة الأخيرة مع آخر صفحة من الكتاب شكرت الرفيق على هذه الفرصة التي أتاحها لي لدراسة الماركسية والمادية الجدلية ، وتزويدي بتلك المعلومات الحافلة بالألغاز واللغارتمات والافتراضات الوهمية والخيالية ...

ونزل كلامي عليه كالصاعقة . كيف خدع هذا الوقت كله ؟ وكيف غرر به طوال أسبوع كامل يدفع فيه ثمن تذكرة الترام وثمن أقداح الشاي . وأحياناً ثمن العشاء الذي كنا نتناوله في أوكار الظلام ... ؟

* * *

لم يكن يذكر الشيوعيون ــ في هذه المرحلة ــ شيئاً عن العلاقة بين الشيوعية والدين .. أو كان هذا على الأقل ما يكون مع الذين لم يصبحوا بعد أعضاء ملتزمين في الفكر والتنظيم ..

وجاء عام ١٩٤٧ الذي وافقت فيه هيئة الأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين . لقد أحدث القرار موجة سخط شديدة بين العرب والمسلمين ... وكان الرأي العام في مصر يغلي غضباً من هذا الموقف المشين . كان العالم العربي كله والعالم الإسلامي كله يدين القرار .. ويفضح المؤامرة . ويحاول منع وقوع الجريمة ..

* * *

وفي ميدان الأزهر ... وأنا في طريقي إلى شارع الغورية متجهاً

إلى حي الحلمية الجديدة التقى به فجأة « ع . ع » وهو رفيق شيوعي ثم أخذ يناقشني الرأي في موضوع التقسيم . ويقرر أن هذا هو الحل الوحيد السليم . وأن صيحة الجهاد والفداء كلمات بالية من صنع الرجعية والبورجوازيين ...

إذن فهذا هو الموقف الشيوعي من قضايا الوطن ومن المقدسات ومن فلسطين .. الجهاد .. خرافة ، والفداء « غباء ورجعية » واعطاء فلسطين للغزاة الهمج هو الحل الوحيد للقضية ...

* * *

لم استمر في المناقشة ... لقد كانت صدمة عنيفة لمشاعري الإسلامية والوطنية . ومضيت في طريقي وأنا أفكر في هذه الخيانة . وكيف يجرؤ عربي أو مسلم على إعلانها كهذا ببساطة ...

* * *

ومر عامان على هذه الحادثة . قسمت فلسطين .. واندحرت سبعة جيوش عربية وسيق الألوف من المواطنين إلى المعتقلات والسجون في معظم البلاد العربية وكنت واحداً من الذين ألقي بهم في « هايكستب » وهو معسكر أمريكي من مخلفات الحرب تحول بين يوم وليلة إلى معتقل يضم فئات كثيرة من الشعب ..

* * *

وشاءت المقادير أن يكون مقامي في « عنبر » يضم بعض الشيوعيين والصهيونيين والوفديين والاخوان المسلمين ... كل الصراعات والأيديولوجيات كانت مجتمعة في هذا المكان .. كان هناك هنري كورييل وسوسو حزان وريمون دويك وغيرهم من زعماء الصهيونية والشيوعيين وكان هناك « ج. م » و « م. ج » من

شباب الطليعة الوفديين كما كان هناك مجموعة بارزة من قادة الاخوان المسلمين .

الصراعات لم تكن تنتهي ... والجدل والحوار لا يتوقف ، والاحتكاك الدائم لا ينقطع ، والمجاملات الضرورية التي يفرضها الموقف كانت فرصة أخرى لتبادل وجهات النظر فيما يعرف وما لا يعرف ..

* * *

وفي أحد الأيام دخلت عنبراً يقيم فيه مجموعة من تلامذة معهد دمياط الأزهري . كانوا حوالي أربعة عشر طالباً جيء بهم إلى المعتقل في قائمة خاصة تبرع بها أحد الجبناء لحساب السلطة كانت أعمارهم تتراوح بين الثانية عشرة والرابعة عشرة . لم يكن لهم أي انتماء سياسي . تقرب بهم الشيطان الأدمي على مذبح الخسة والنذالة ... وكانت هذه البراعم النقية فرصة للإغراء والإغواء من اللجنة المركزية ...

رأيت رجلاً يجلس في منتصف الحلقة .. نحيل في جسمه ، يلبس شورتاً وقميصاً فوقه . وكانت تربطني بهؤلاء الأخوة الصغار محبة عميقة . فما كدت أدخل عليهم حتى هبوا جميعاً لاستقبالي . وأيقن الجالس ذو الشورت والقميص أنني « ذو شأن » فقام من مكانه وحياني ...

– اسمي هنري كوربيل

– أهلاً وسهلاً ... هل أنت السيد هنري كوربيل .. ؟

– نعم يا مسيو ..

– لست مسيو ولا مستر أنا مصري مسلم .

– التقدمي لا يفكر في مثل هذه الأشياء .
– تقدمي ... ؟ ما معنى هذه الكلمة .. ؟
اشرحها لنا من فضلك ...

* * *

واسترسل المليونير اليهودي الصهيوني الشيوعي يشرح ويحلل ويتناول كل ما يخطر بباله .

والحق أنني لم أفهم تسعة أعشار كلامه أما الطلبة الصغار فقد انشغلوا عنه . بخناقة مع « المتعهد » الذي اختزل طعامهم إلى خمس قيمته .. ووزع الخمس الباقي . بينهم وبين الحراس الذين أقبلوا لتحيته . !

وأخيراً انفجرت القنبلة ... لقد اعترف الرفيق الشيوعي بأنه ملحد وأن الدين والشيوعية لا يلتقيان أبداً . وأن فلسفة ماركس وانجلر ولينين هما الدين الجديد للعالم كله ...

كيف ناقشته ... ؟

كيف أحس بالعرق يتساقط من جبينه والكلمات تجف من حلقه ؟ والهزيمة تعريه مما بقي من زيفه ؟ شيء لا أدعيه لنفسي ...

لقد كان توفيقاً من الله ربي ...

وجاء الرفيق سوسو حزان يدعو الزعيم كوريبل للغداء ... فلم ينس أن يقول وهو يغادر مكانه ..

– لا تنس يا مسيو ... إن الشيوعية تنتشر الآن في كل مكان .
– أوافقك يا مسيو كوريبل على ذلك . لأن الأوبئة كما تعلم موجودة في كل بقعة من بقاع الأرض ... !!!

* * *

ومرت سنوات لم أعد أسمع فيها بهنري كورييل ولا ريمون دويك حتى جاء عام ١٩٦٥ وسمعت أن الزعيم الجزائري المسلم هواري بو مدين قد أمر بإخراجه من الجزائر مع كل هنري كورييل آخر ...

ومنذ ذلك الحين .. رسخ يقيني بالعداء والتعارض بين الوطنية والشيوعية وبين الإسلام والماركسية ... وتساءلت بيني وبين نفسي ماذا يكون الإنسان بدون إيمان وعقيدة .. ؟ وأي شيء يكون هذا الإنسان حين تختنق في نفسه الغيرة على الدين والوطنية ..

* * *

ولكننا عشنا حتى رأينا عجباً ...

فالشيوعية لم تكن وحدها في هذا المسلك لقد فعل فعلتها كثيرون من العرب ، وقال قولتها أناس محسوبون على المسلمين بالاسم والنسب ...

ففي مجلة تصدر في دولة عربية قال واحد من أولئك الممسوخين إن الله والدين دمى يجب أن تحال إلى المتحف ..

وأنقل هنا حواراً دار بين مسخ من هؤلاء المسوخ الذين يسمون اساتذة وبين فتاة تقدمت لاختبار شخصي لتكون مدرسة ..

س ــ أنت تقولين إن نصف المجتمعات تعتبر الجنس جريمة فماذا يجب أن تسميه إذن ... ؟

ج ــ إنه عمل طبيعي عادي ...!

س ــ إذن فأنت توافقين على ممارسة الجنس مع أي شاب يا أميمة ..؟

ج ــ لا مانع عندي إذا نال الشاب إعجابي ...

س ــ إذن ما هو الفرق بينك وبين المومس ...؟

جـ ـ المومس تأخذ أجراً ـ أما أنا فأمارسه للذة الجنس فقط ... !
س ـ هل الفتاة التي تنتقل بين أحضان الرجال شريفة ...؟
جـ ـ نعم شريفة ...

طالبة أخرى : ـ

أنا أؤيد الطالبة أميمة وأزيد أن الجنس مثل الطعام والشراب والضرورات الأساسية ... ؟!

مثال آخر : ـ

في الفحوص المدرسية والبعثات العلمية والرحلات الثقافية خمسون علامة توضع أساساً للمنتسبين للحزب .. يوجد سؤال لا بد منه في مجموعة هذه الأسئلة التي يتوقف على الإجابة عليها نجاح الطالب أو رسوبه . تثبيته أو فصله[1] .

يقول السؤال :

إذا وجدت في غرفة وأنت جائع وكان الخبز في مكان مرتفع لا تصل إليه يدك إلا إذا ارتقيت على سلم من نسخ القرآن التي ليس في الغرفة غيرها مما يمكن الارتقاء عليه فهل تظل جائعاً .. أم تدوس على نسخ القرآن ..؟

هل تريدون مزيداً ... ؟

ولكني كفى ... كفى ... فالكوارث التي مرت بالأمة العربية كافية لإحياء الموتى ... ولكن العرب وحدهم هم الذين يزيدون بهذه الكوارث والنذر موتاً ... ؟

* * *

---

(١) هذه النماذج من الأسئلة . مما يطرحه حزب البعث على الراغبين في الالتحاق بالحزب.

كم هي أليمة هذه المشاعر التي تثير في النفس كوامن الأسى والغضب ... ولكن المأساة في عالمنا الإسلامي والعربي أن الأجيال الحاضرة لا تريد أن تعترف بالواقع المر ... إنهم يرفضون كل كلمة صادقة تصدر من ناصح محب ... لا يقبلون إلا الوافد الغريب من القول .. والتافه المستورد من الفكر ... الحق وحده ما يقوله ماركس وانجلز وسارتر ولينين والحضارة والتقدم وقف على لندن وباريس ووشنطن .....

لكن ... لا بأس .

فما دام قد قضي على هذه الأجيال بالمسخ . ووقر في نفسها الإحساس بالقصور والعجز . وانحصر إيمانها في كل ما يصدر من الشرق أو الغرب ... فلنحاول مجاراتها في هذا الوهم ولنمش معها إلى نهاية الشوط ...

* * *

منذ خمسة عشر عاماً تقريباً وقع في يدي كتاب حرر بأقلام ستة من كبار الكتاب في أوربا ... اسم هذا الكتاب « الصنم الذي هوى » ولم تتح لي فرصة لقراءته طوال هذه السنوات كلها . حتى هيأ الله هذه الفرصة ... ومع طبعة جديدة من هذا الكتاب الذي يعرض هذه الحقائق المرة ... والذي نقله الأستاذ فؤاد حموده إلى العربية .

إن الستة الكبار من كتاب أوربا يحدثوننا عن رحلتهم إلى الشيوعية بعد أن تحمسوا لها أولاً ثم عن « كفرهم » بها بعد أن يئسوا منها ثانياً .

هؤلاء الستة الكبار هم : —

اندريه جيد ورتشارد رايت ، وآرثر كستلر ، وستيفن سبندر وأكفار سيلوني ولويس فيشر .

ولن نستطيع بالطبع عرض آراء هؤلاء في الشيوعية . لأن ذلك يقتضي إفاضة ينتفي معها الغرض من هذا العرض . ولأن أكثر هؤلاء كانوا شيوعيين محترفين ثم تركوا الشيوعية بعد معاناة فكرية ونفسية وروحية قد لا يتوفر معها « العدل » والحياد في التحليل والنقد ...

سنترك المفكر العالمي الفرنسي « أندريه جيد » يتكلم وحده لأنه : ـ

أولاً ـ تحمس للشيوعية من خلال قناعته المستقلة وإحساسه الإنساني بما يعانيه الأشقياء والمحرمون فوق هذه الأرض .
ولأنه ..

ثانياً ـ مفكر عالمي متسم بالعدل والنزاهة في الرأي .
فماذا يقول أندريه جيد ... ؟

سافرت إلى روسيا . كنت في كل مكان أركب أفخم السيارات وأسكن في الفنادق أحسن الحجرات . وآكل أفخم الأطعمة .

لقد كان يهتف لي . ويولم لي . إلا أن هذا التكريم كان يذكرني دائماً بالامتيازات والفروق . بينما كنت أرجو أن أجد المساواة .

لقد كانت الوجبة الواحدة التي تقدم لي تتكلف على الأقل ما بين ٢٥٠ روبل إلى ٣٠٠ روبل بينما العمال الذين لقيتهم ما كانوا يربحون سوى خمس روبلات في اليوم . وكان عليهم أن يكتفوا بالخبز الأسود والسمك المجفف .

لقد حدث أن زرت إحدى المزارع الجماعية . ودخلت بيوتاً

متعددة وليتني استطيع أن أنقل إليكم ذلك الانطباع المطرد الكئيب الذي يحس به من يدخل هذه البيوت من أثر انعدام الفردية انعداماً تاماً ، لقد كان في كل مكان منها نفس قطع الأثاث القبيحة ونفس الصورة للزعيم « ستالين » ولا شيء غير هذا فلم يكن هناك أي أثر لأي تحف أو ممتلكات شخصية . ولكن هل من الممكن أن تسمي هذا التشابه والاطراد وهذا الفقدان للمشاعر الشخصية هل يمكن أن تسمي هذا تقدماً ونجاحاً .

* * *

إن العمال لم يعد يستغلهم حملة الأسهم الرأسماليون . إلا أنهم مع ذلك يستغلون أبشع الاستغلال . وبطرق خفية ملتوية بحيث لم يعد العمال يعلمون على من يلقون اللوم .. إن غالبيتهم العظمى يعيشون تحت مستوى الفقر ...

* * *

عندما زرت « سوتشي » عجبت لكثرة المصحات التي أنشئت للعمال إلا أنه من المؤسف أن غالبية من يتمتعون بهذه الميزات هم من الطبقة المميزة الجديدة وإنه لمن المحزن أن نرى الرجال الذين يعملون في هذه الاستراحات ذاتها . وكيف يحصلون على أجور غاية في الضآلة ويحشرون في مخيمات دنيئة وحقيرة ...

وإذا كنت أحمل الإعجاب للاستراحات في (سوتشي) فماذا أقول عن فندق « سينوب » ؟ لقد كان أرقى وأسمى من كل شيء آخر إلا أنك إذا عبرت النهر رأيت صفاً من الأعشاش الحقيرة يعيش في كل حجرة من حجره الصغيرة أربعة أفراد يدفع كل واحد منهم روبلين في الشهر ...

إن حرية الانتخاب لا وجود لها في الاتحاد السوفيتي إن الناخبين لا يملكون إلا حق انتخاب من عينوا لهم .. إن العمال يخدعون ويكممون وتقيد أيديهم وأرجلهم إلى حد أصبحت معه المقاومة غير ممكنة . لقد لعب ستالين لعبته ، والشيوعيون في كل أنحاء الدنيا يهللون له ويصفقون ويسمون كل من يخالفهم في الرأي خائناً وعدواً للشعب ...

بيد أن هذا النظام في روسيا قد أوجد خيانة من نوع جديد إن من أروع الوسائل في الحصول على الترقية والتقدم أن يصبح الإنسان مخبراً ... إن الإنسان إذا وضع قدمه على هذا المنحدر المهين الزلق فلا يمكن لمسائل الصداقة أو الأمانة أن تتدخل لإيقافه بل عليه أن يتقدم في كل مناسبة منزلقاً آخر نحو الهاوية والعار والنتيجة أن يصبح كل إنسان متشككاً في غيره ، وتصبح الملاحظات البريئة العابرة ـ ولو كانت من أطفال ـ أمراً خطيراً قد يجلب الدمار ...

إن العامل السوفيتي البائس مربوط بمصنعه والعامل الزراعي مربوط بمزرعته ، وإذا فكر هذا العامل في ترك عمله لأي سبب من الأسباب التي يراها مناسبة لتحسين معيشته فإنه يجد نفسه في ضياع يفقد بعده العمل والسكن ولقمة العيش .

* * *

لقد آن الأوان لأن نفتح العيون على هذه الخيبة المريرة التي ذهبت بكل آمالنا الكبار . لقد كان من الممكن أن نتقبل فقدان الحرية الشخصية إذا كانت هناك على الأقل دلائل تشير إلى أن التقدم المادي للجماهير يتم ولو على مهل ... إلا أن الأمر ليس

كذلك للأسف . بل إن الدلائل تدل على أن أسوأ مظاهر الرأسمالية وأحقها باللوم تتكون من جديد .. والذي يزعجني أن أراها تزداد ...

* * *

لقد اكتشفت أن عضواً بارزاً من أعضاء أكاديمية العلوم قد أخرج من سجنه حديثاً . وكانت كل جريمته أنه كان مستقل الرأي .. وقد طرد عالم آخر من الجامعة لأنّه عبر عن بعض آرائه العلمية التي لم تتفق مع رأي الحكومة والحزب . ثم أرغم على كتابة خطاب يتبرأ فيه من آرائه لكي يتجنب النفي أو القتل ...

أما المحامي في الاتحاد السوفيتي فالويل له إذا قام يدافع عن متهم تريد السلطة إدانته مهما كانت قضيته عادلة ... إن ستالين لا يسمح إلا بالمديح وعبارات الاستحسان إن صورته في كل مكان واسمه على كل لسان .

إنني أذكر وأنا في طريقي إلى « تفليس » ... أن مررت ببلدة « غوري » التي ولد فيها ستالين فرأيت مناسباً أن أبعث إليه ببرقية خاصة كتعبير عن امتناني لكرم الضيافة الذي أحطت به ...

وسلمت الموظف المختص برقية أقول فيها : ــ

إنني أحس وأنا أمر في هذه الرحلة المدهشة ببلدة « غوري » أن أرسل إليكم ....

وهنا توقف المترجم وعلمنا أنه لا يستطيع أن ينقل هذه الرسالة لأن كلمة « اليكم » إذا وجهت إلى ستالين ليست بكافية ولا لائقة ولا بد من إضافة شيء آخر . ثم اقترح أن أقول أنتم يا قائد الطبقة العاملة ... أو أنتم يا مولى الشعب ... ؟

إنني ألوم الشيوعيين في فرنسا وفي البلدان الأخرى أيضاً . ألوم أولئك الذين علموا الحقائق ثم كذبوا على العمال في الخارج لقد آن الأوان للعمال خارج الاتحاد السوفيتي أن يعلموا أنهم قد خدعوا وضللوا من قبل الأحزاب الشيوعية كما خدع عمال روسيا من قبل ...

لقد كان من الممكن أن أظل ساكتاً رغم الأحوال المحزنة المؤسفة في روسيا ... ولكنني أرى من واجبي أن أتحدث بصراحة ووضوح لأنني مقتنع تماماً بأن الاتحاد السوفيتي ينزلق إلى أسفل المنحدر الذي كنت آمل أن أراه صاعداً إلى قمته ...

إن مسألة الولاء للحزب لا يمكن أن تعوقني عن التحدث بصراحة ووضوح فإني أضع الحق فوق الحزب وأنا أعلم تماماً أن الماركسية لا تعترف بشيء اسمه الحق ... فالحق لديها نسبي فقط : إلا أنني أومن مع هذا بأن من الاجرام في أمر خطير كهذا أن تضلل الآخرين ...

إن الاتحاد السوفيتي قد خدعنا في أعز أمانينا ... إن روسيا قد عجزت أن تكون إلهاً ... ولن تقوم أبداً من نيران المحنة الشيوعية ...

* * *

انتهى كلام أندريه جيد . أو الصفقة الغير مربحة كما قالت البرافدا ... صفقة غير مربحة لأنه قال الحقيقة ولم يتأثر بمظاهر الزيف والتضليل التي أحاطوه بها .

إن كلمة « برافدا » باللغة الروسية معناها الحقيقة فكيف تتضايق « الحقيقة » من قول الحقيقة التي تحمل اسمها ... ؟

لقد ذهب ستالين على كل حال ... ونبش قبره على يد خروشوف .. وأخرجت جثته من المقبرة في الكرملين إلى مقبرة مجهولة وذهب خروشوف هو الآخر ومات في عزلة ، وجاء من بعد ستالين وخروشوف بريجنيف وكوسجن ونيقولاي بودجورني ، تغيرت الأسماء والوجوه وبقيت الحقيقة المرة رغم أنف البرافدا .

يقول منشور سري صدر في موسكو إن أجر العامل في الاتحاد السوفيتي لا يزيد على ثلث ما يجب أن يكون عليه أجر العامل الحقيقي وأين تنفق كل هذه الأموال ... ؟

ينفقها رجال الدولة في الكرملين ... ينفقونها على حياتهم المترفة وعلى بيوتهم الريفية المكيفة . وعلى سيارات الليموزين الفخمة . وعلى استراحاتهم الخاصة ، ومستشفياتهم الخاصة ، إنهم يعيشون في مستوى أرفع بكثير عن مستوى القياصرة .

* * *

ويقول منشور آخر .. لماذا يأتي الشعب السوفيتي في حساب درجة المعيشة في الدرجة السادسة والعشرين بين شعوب العالم ... ؟ ولماذا يتقاضى العامل في الغرب أربعة أضعاف ما يتقاضاه العامل الروسي ... ؟

* * *

لندع « هدريك سميث » مدير مكتب (New York Times) الذي عاش مع أسرته ثلاث سنوات في موسكو يحدثنا عن الحياة في روسيا ، وعن « خيبة الأمل » في هذا النظام الذي مني به الشعب السوفيتي :

إن الفساد والنشاط الخاص غير المشروع في روسيا ـ أو ـ

« الرأسمالية الزاحفة » كما يحلو لبعض الروس أن يسموها ينمو كنتيجة لطبيعة نقص السلع ورداءتها والتأخير الفظيع في الخدمات.. وهذا القصور تسبب في أكثر من مجرد ظهور ما يعرف في الغرب بالسوق السوداء . ذلك لأنه نشأ في روسيا في موازاة اقتصاد مضاد منتعش يتعامل بأحجام ضخمة من أوجه التجارة الخفية وشبه الخفية التي لا يمكن الاستغناء عنها سواء بالنسبة للمؤسسات أو الأفراد . وفي أي مكان من جمهوريات الاتحاد السوفيتي كلها ..

كل شيء في روسيا يمكن ـ من الناحية العملية ـ أن يتم الاتفاق عليه في الخفاء .. ابتداء من تأجير كوخ في الريف لقضاء الأجازة ، أو شراء معطف أو حذاء من نوع جيد من أحد المحال التابعة للدولة . أو الحصول على فستان أنيق لدى أحد الخياطين أو الخياطات المشهورات ، أو نقل «كنبة » عبر المدينة ، أو وضع عازل صوتي أمام باب الشقة ، أو علاج الأسنان عند طبيب أسنان ماهر ، أو إلحاق الأطفال بمدرسة خاصة ، أو الاتفاق مع جراح كبير على الكشف في المنزل ، إلى إنشاء المباني أو مد المواسير في المزارع الجماعية .

لقد أصبح هذا الاقتصاد المضاد جزءاً لا يتجزأ من النظام السوفيتي ، وظاهرة راسخة دائمة من ظواهر المجتمع السوفيتي وهو يشمل كل شيء .. ابتداء من الرشوة الصغيرة إلى الاتجار في السوق السوداء والاختلاس بالجملة من الدولة ، وإقامة صناعات خاصة في الخفاء على مستوى يصل إلى مستوى عملية « الأب الروحي » التي كشف عنها النقاب وأدت إلى سقوط شخصية كبيرة من رجال الحزب الشيوعي ، عضو في المكتب السياسي .

وهو يدار على نطاق واسع وبصورة طبيعية إلى الحد الذي يثير أشد السخط في نفوس الثوريين البلاشفة .

* * *

ومع ذلك فإن الناس يعتبرونه أمراً مفروغاً منه كتشحيم ضروري لترميم الاقتصاد الموجه . فما يحصل عليه المحظوظون من أبناء الطبقة العليا بطريقة رسمية ومشروعة من محال البيع المخصصة لهم وعن طريق الامتيازات الممنوحة لهم ، يسعى المواطن العادي للحصول عليه مضطراً بطريق غير مشروع من الاقتصاد المضاد ..

.. وفي هذا سمعت صديقاً كيماوياً يقول : ـ « إن هذا هو ما يجعل لاشتراكيتنا طابعاً إنسانياً » .

وقد سألت يوماً عالم الطبيعة المنشق على النظام : أندريه ساخاروف عن حجم الاقتصاد المضاد فقال انه يقدره يقينا بـ « ١٠ في المائة أو أكثر » من إجمالي الإنتاج القومي كله ، أو نحو ٥٠ بليون روبل (٦٦ بليون دولار) وإن كنت سمعت عن حجمه من آخرين أرقاماً تزيد وأخرى تقل .

على أنه لا يوجد في روسيا من ينكر وجود الاقتصاد المضاد . ـ فالصحف تنشر العديد من المقالات عن الفساد ، والاختلاس ، والاتجار غير المشروع ، وإن كانت لا تنشر أبداً أية أرقام يمكن أن توضح أبعاد العمليات غير المشروعة . لكن هناك الكثير من الأخبار تنشر في كل عام عن مجرمين اقتصاديين صدرت ضدهم أحكام بالإعدام لاشتراكهم في عمليات غير مشروعة تصل إلى مئات الألوف من الروبيلات وبعضها يتجاوز المليون روبل .

وقد أعيدت عقوبة الإعدام بالنسبة لجرائم الاقتصاد في سنة

١٩٦١ بعد أن ازدادت خطورة تلك الجرائم .

وفي تقرير صحفي نشر في عام ١٩٦٦ أن ربع جميع الجرائم التي ترتكب في الدولة جرائم تتعلق بسوء استخدام ممتلكات الدولة وفي شهر سبتمبر سنة ١٩٧٢ كشفت صحيفة « برافدا » النقاب عن ٢٠٠ حالة اختلاس واسعة النطاق من الدولة حدثت أخيراً في الجمهورية الروسية (نصف البلاد تقريباً) ، وقالت إن معظم القضايا الخطيرة من هذه الحالات خاصة بعمليات طويلة الأجل يقوم بها مجرمون محترفون .

وقد بلغت خطورة المشكلة حداً اضطر وزارة الأمن الداخلي إلى إنشاء فرع خاص فيها أطلقت عليه اسم « مكتب مكافحة نهب الممتلكات الاشتراكية » . ومدت أوجه نشاطه إلى البلاد كلها .

ولم يقف هذا المكتب عند حد الفشل في مكافحة هذه المشكلة ، وإنما ـ كما سمعت عدداً ممن أعرفهم من الروس ـ يتحدثون عن قضايا أمكن فيها شراء موظفي المكتب كما يحدث في الغرب عندما يشتري تجار المخدرات رجال مكافحة المخدرات . يضاف إلى ذلك فإن تقارير الصحف تشير إلى أن إجراءات الرقابة الواسعة النطاق التي اتخذت لحماية المخازن والمصانع والمزارع وغيرها قد فشلت لأن المشرفين على تنفيذ إجراءات الرقابة كانوا أنفسهم جزءاً من المؤامرة .

* * *

على أن الفساد ليس بالأمر الجديد بطبيعة الحال . وقد سمعت من عدد من الروس أنه كان موجوداً حتى في أيام ستالين القاسية .

ويجدر بالذكر هنا أن عقوبة الإعدام لجرائم الاقتصاد فرضت لأول مرة في عام ١٩٣٢ ، من قبل ستالين نفسه ، أيام الزراعات التعاونية الاجبارية والتصنيع الإجباري ، ولم ترفع إلا بعد الحرب ، في سنة ١٩٤٧ . لكنهم يعترفون بأنه انتشر بصورة حادة مع ازدياد الرخاء في المجتمع السوفيتي في أواخر الستينات وأوائل السبعينات .

وأذكر قول صديق من العرب تربطه صداقات عديدة في موسكو أنه عاد إلى موسكو بعد غياب طويل وسأل صديقاً وزوجته عن أكبر تغيير حدث في البلاد خلال العقد الماضي فجاء ردهما بصوت واحد : « الفساد ... » .

قال الزوج : « لقد نما بصورة مذهلة » .

وقالت زوجته الأنيقة : « إنك لا تستطيع أن تتصور مدى ما وصل إليه فسادنا . كان من يمارسونه في الماضي أشخاص يتبادلون المعروف فيما بينهم ـ كمبادلة تذاكر الباليه بالسجائر أو هدية من الكافيار تقدم للخياطة ، أما الآن فكل شيء أصبح لا يتم إلا بالفلوس .. وبكثير من الفلوس » ، وأتت بأصبعيها الحركة المعروفة على النطاق العالمي حين يتحدث الإنسان عن المال .

وللاقتصاد المضاد في الاتحاد السوفيتي لغته وتقاليده .. أساليبه ومبادئه .. يعرفها كلها الجميع ، ويستخدمونها على أساس يومي تقريباً وهي على أنواع لا تحصى ، لكن أشهرها وأكثرها براءة هو ما يطلق عليه الروس كلمة « بلات » ويشمل معناها : ـ النفوذ ، والاتصال بالمسئولين ومن في حكمهم .

إن « النفوذ والاتصال » في وسط اقتصادي يعاني أوجه نقص

حادة وامتيازات موضوعة ومدروسة بعناية يصبحان عملية « تشحيم » أساسية للحياة . فكلما ازدادت رتبة الإنسان وسلطته كلما ازداد نفوذه لكن الصحيح أيضاً أن في استطاعة أي إنسان أن يبسط منافع « النفوذ والاتصال » على غيره من الناس ـ على البواب أو الشيال أو عاملة النظافة في محل لبيع الأغذية أو على بائع أو ميكانيكي أو حتى أستاذ ـ لأن كلاً من هؤلاء الناس يستطيع أن يؤدي خدمات أو يقدم أشياء يريدها الناس ويصعب الحصول عليها . ويبدأ تطبيق استخدام ـ النفوذ عندما يطلب شخص من شخص آخر أن يقدم له معروفاً مع إفهامه بأنه سيحصل على معروف مقابل معروفه . وإذا أخذنا كلمة النفوذ بمعناها الحرفي فإنها لا تعني استخدام المال . ولهذا فإن واحدة من الممثلات قالت لي في تفسيرها « النفوذ لا يعني ـ في الحقيقة ـ الفساد .. وإنما يعني أنك : أنت لي وأنا لك » . وبمعنى آخر فإنه يعني : ـ « سأهرش ظهرك مقابل أن تهرش ظهري » .

* * *

هل بقي شيء من الحقيقة .. ؟ إن من أمر الحقائق في علاقة الاتحاد السوفيتي بالعالم العربي . أنه خدع العرب في حرب خطط لها بتدبيره لتسقط شعوبه المسلمة في شراك الهزيمة فلا تخرج منها إلا بعد أن توصم فوق جباهها بالعار والمطرقة والمنجل ..

لقد بدأت المأساة بقصة شراء الأسلحة ، وظن المخدوعون في العالم الإسلامي أن الطريق إلى حرية هذا العالم ومجده سيتم فتحه وتعبيده على يد موسكو ..

إن قصة هذه الأسلحة قصة أليمة كتبها من بدايتها إلى نهايتها

اللواء التشيكي « جان سينيا » الذي عاش على مسرح تلك القصة منذ البداية ومن المعروف أن مصر حين قبلت في منتصف الخمسينات أن تـأخذ السلاح من الكتلـة الشرقية عقـدت أول صفقة مع تشيكوسلوفاكيا ، ولم تقبل أن تأخذ من موسكو ، ويمهد اللواء التشيكي للقصة السوفيتية في هذا بكلمة يقول فيها : « إن شعار موسكو في زحفها على المنطقة العربية كان الشعار الذي ينادي به القادة السوفيت وهو : في تقدمنا نحو الشرق الأوسط علينا أن نقلد النمل في صبره وإصراره ، وان نذر قليلاً من الرماد في العيون كلما عزمنا على التقدم إلى الأمام خطوة جديدة . ؟!

ثم يبدأ اللواء التشيكي في رواية القصة فيقول : وفي أوائل عام ١٩٥٥ زار براغ أول وفد عسكري مصري برياسة اللواء حسن رجب ، وكنت وقتذاك برتبة عقيد اشغل منصب قائد سلاح الهندسة في الجيش التشيكي ، بالإضافة إلى عضويتي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وقد انتاب القادة السوفيت في موسكو عقب هذه الزيارة موجة من الفرح وقالوا لنا : هذا جميل ، وبقي عليكم أن تتحركوا بسرعة ، ومن بين النقاط التي أثاروها معنا وقتذاك أن نطالب المصريين بقبول خبرائنا إلى جانب أسلحتنا ، ثم طالبونا بأن نقترح على الحكومة المصرية أن توفد من جانبها وفداً لزيارة موسكو ، وكان المصريون يشعرون بحساسية لزيارة موسكو وكان جوابهم عندما عرضنا عليهم ـ تنفيذاً لأوامر الكرملين ـ القيام بهذه الزيارة .

ـ لا أبداً .. إن الاتصال بالاتحاد السوفيتي سيعرضنا للخطر على صعيد رأي العالم العربي والعالمي .

وهكذا أصر المصريون على التعامل معنا فقط في تشيكوسلوفاكيا واستمر هذا التعامل أكثر من سنة ولكن حينما انفجرت أزمة السويس سنة ١٩٥٦ تغيرت الصورة ، وأصبح الاتحاد السوفيتي هدية السماء إلى العرب ، وتصدى خروشوف والاتحاد السوفيتي للقيام بدور حماة العالم العربي . وطلبت الحكومة السوفيتية أن نقول للحكومة المصرية عندما تفاتحنا بصفقات جديدة من الأسلحة تعوض ما فقدته في سيناء سنة ١٩٥٦ ، أن هذا يتجاوز طاقات تشيكوسلوفاكيا ، وليس أمامنا سوى اللجوء إلى موسكو وفي أواخر سنة ١٩٥٦ ، وبعد أن انسحب الفرنسيون والانجليز من السويس وصل إلى براغ وزير الحربية المصري عبد الحكيم عامر ومنها تابع رحلته إلى موسكو في زيارة للاتحاد السوفيتي ، وخلال هذه الزيارة قمنا بالاتفاق مع السوفيت بأول محاولة لحمل الحكومة المصرية على الانحياز إلى الكتلة الشرقية ، لا على الصعيد العسكري فحسب ، بل على الصعيدين السياسي والاقتصادي كذلك ، وكان عامر شديد الحذر بالنسبة لهذا ، ولكنه طلب المزيد من التسهيلات لتدريب العسكريين المصريين ولم يكتشف عامر إلا بعد زيارة أخرى أن من بين المواد التي تدرس للمصريين دروساً في الماركسية ـ اللينينية غير أن الوقت كان قد فات للتراجع . !؟

وبعد زيارة عامر لموسكو عاد إلى براغ واجتمع برئيس وزراء تشيكوسلوفاكيا ، فقال لعامر بإيعاز من موسكو : إن عبد الناصر يتيح فرصة العمل أكثر من اللازم لعدد من الاحزاب السياسية ، وإنه مناوئ للشيوعية ، ويعتمد في حكمه على عناصر برجوازية ،

وقبل عامر بإيعاز من موسكو أيضاً أن تقيم تشيكوسلوفاكيا مدرسة حربية في مصر وذهاب عدد أكبر من الضباط التشيك إليها ، وكان الروس يراقبون الموقف لانتهاز الفرصة ، فعندما طالب عبد الناصر بصواريخ أرض ـ أرض وأرض ـ جو قلنا له : ليس هذا في طاقتنا ، وإنما هو في طاقة موسكو كما أراد السوفيت أن نقول ، وتضمنت الاتفاقية أن يكون مع الصواريخ الخبراء الروس وبدأ الخبراء الروس يتوافدون فعلاً على مصر ليحلوا محل الخبراء التشيك . وكانت كل قافلة من المرحلين التشيك تحل محلها قافلة أضخم عدداً من الروس ، ومن هنا بدأت قصة الخبراء السوفيت المعروفة .

ويختم اللواء التشيكي القصة قائلاً : وبفضل حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ استطاع السوفيت أن يشددوا من قبضتهم خلال أسابيع على وادي النيل ، ولولا هذه الحرب لاقتضاهم ذلك سنين طويلة من الجهود ، ولكن شعار النملة الصابرة الذي كانوا يتحدثون به لم يعد يسير سير النملة ، وإنما راح يندفع اندفاع الصاروخ » .

هذه هي القصة الأليمة التي مثلها السوفيت مع مصر في السلاح والخبراء ، قصة ذر الرماد في العيون عند كل خطوة إلى الأمام كما قال ذلك القائد التشيكي الذي شهد كل وقائع القصة ، السلاح الذي كانوا يقدمونه بقدر ، وبالثمن ، وبالمقابل في تغلغل النفوذ السوفيتي في مصر وتدريس الماركسية اللينينية للمصريين. لقد أثرنا أن نضع القصة بتفاصيلها ، وكما رواها اللواء التشيكي تحت أنظار الناس حتى يعلم الناس الحقيقة فيما يذيعه الكرملين

اليوم عن تسليحهم لمصر ومساعدتهم لمصر ... وهي حقيقة لا نعتقد أنها في صالح السوفيت ..

* * *

لقد مثلت روسيا مع مصر دور « شيلوك » في مأساة شكسبير ، فلا يمكن لباحث منصف إغفال هذا الدور الذي لعبته روسيا في نكبة سنة ١٩٦٧ .

لقد كان تخطيطاً رهيباً يهدف إلى القضاء على مصر « المسلمة » وتحويلها إلى تابع في فلك الدب الكبير ..

واندفعت القيادة السياسية ـ في ذلك الوقت ـ تحت ضغط الظروف القاهرة لتلبية كل ما يطلبه منها الكرملين .. وبلغت المأساة ذروتها حين أصبح في مصر جيش من الخبراء السوفيت يفرضون ـ بالجهل والعنجهية ـ إرادتهم على جيش مصر وعلى شعب مصر الصابر المسلم ..

كان الرئيس عبد الناصر كما يقول اللواء الحناوي قائد القوات الجوية في حالة انهيار تام وكان على استعداد لقبول أي شرط ، ـ فوافق فعلاً على أن يعين مستشاراً سوفيتياً لكل قائد بادئاً من القائد العام للقوات المسلحة حتى قادة الأسراب والكتائب ..

وبدأ تنفيذ تلك الخطة اعتباراً من أول نوفمبر سنة ١٩٦٧ ، وهذا التاريخ يعتبر نقطة تحول هامة في العسكرية المصرية وفي الوضع السياسي في جمهورية مصر .. لقد تم في فترة ما بين ١٣ يونيو بعد النكسة وأول نوفمبر ١٩٦٧ تشكيل القيادات الجديدة للقوات المسلحة بشكلها النهائي .. فعزل من عزل وحوكم من حوكم وعينت قيادات جديدة من المفروض أن تتحمل مسؤولية

بناء القوات المسلحة الحديثة .

ومن ٢ نوفمبر ـ أي اليوم التالي مباشرة ـ اتخذ المستشارون السوفيت مواقعهم في كل موقع من مواقع القوات المسلحة ، وفي اليوم التالي لتولي اللواء مصطفى الحناوي قيادة القوات الجوية والدفاع الجوي وجد له مستشاراً يدعى الجنرال جريالوف .. واجتمع القائد العام في القيادة العامة للقوات المسلحة بقيادة الأفرع الرئيسية لتعريف القادة بالمستشارين السوفيت ودورهم .. وكان التقديم لطيفاً ظريفاً لا يشكل شيئاً غير مألوف وفهم الجميع أن دورهم في الرجوع إليهم فيما يستعصى فهمه .. وهذا أمر لا بأس به .

ولكن هل كان هذا هو الغرض الحقيقي ..؟

بالطبع لا .. فقد كان الهدف أعمق من ذلك بكثير .. بدأ المستشارون السوفيت ينفذون مخططهم الأساسي من أول لحظة .. ويمكنني ـ والكلام هنا للواء الحناوي ـ بتلخيص بسيط بعد التجربة مع هؤلاء الخبراء أن نستنتج بعض الأغراض الخفية لهؤلاء الخبراء .

كانت غايتهم إضعاف الثقة في نفوس قادة القوات المسلحة وإشعارهم أنهم غير قادرين على اتخاذ القرارات السليمة ، وإن كفاءتهم أقل بكثير من مناصبهم التي يشغلونها .. ونسوا أنهم يتعاملون مع جيل جديد من القيادات متعلم له خبرة طويلة كل في مجاله . ومهما كانت درجة ثقافتنا العسكرية فإن خبرتنا من العمليات الطويلة على مدى عشرين عاماً كانت أكثر بكثير من تجارب خبراء الاتحاد السوفيتي ، فهم منذ نهاية الحرب العالمية

الثانية لم يشتركوا في عمليات حربية بعكس ضباطنا الذين اكتسبوا الخبرة منذ عمليات سنة ٤٨ حتى سنة ١٩٦٧ سواء بنجاح أو فشل .

بالإضافة إلى انعدام خبرتهم التامة بنوعية المقاتل المصري ... فنحن أبناء وطن واحد أدرى بنفوسنا من غيرنا .

وبذلك تهتز ثقة القادة في أنفسهم وبالتالي تهتز ثقة المرؤوسين في قادتهم وفي هذا الوقت لن يكون هنالك مفر من التجاء الرئيس والمرؤوس إلى أحضان الخبراء السوفيت وهذا كسب كبير يمكنهم من التصرف في كل صغيرة وكبيرة ويصبح القادة المصريون مجرد « برافانات » يدير من خلفهم المستشارون السوفيت دفة الأمور وفق هواهم ومخططاتهم داخل القوات المسلحة .

كان من مخططات المستشارين السوفيت في أثناء ديناميكية العمل على ما فيها من نجاح أو فشل إلصاق الفشل فوراً بالقادة المصريين ـ وتحميلهم التبعة واقتناص العمليات الناجحة لأنفسهم من أول وهلة وإذاعتها على كل المستويات .

التحكم الكامل في معدلات الاستكمال في القوات المسلحة استعداداً ليوم المعركة ، وكانت تصرفاتهم ريفية ساذجة ومكشوفة للغاية .. فمثلاً :

وصل الحال إلى أنه كان في القوات الجوية احتياطي خمس ماكينات للميج ٢١ برغم أنه كان في الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت ما يربو على ٢٠٠ محرك للتعمير لأنه كان من أساليب التحكم أيضاً ألا تتم العمرة إلا في الاتحاد السوفيتي رغم وجود مستشاريهم بمصر .

ولما استنجدنا بالاتحاد السوفيتي لإرسال عدد من تلك المحركات

رفضوا بشدة مما وضع القوات الجوية في حالة حرج شديد حيث كنا في فترة عصيبة لقيامنا بعدة مهام في وقت واحد للدفاع عن المجال الجوي وإعداد الطيارين الجدد ورفع كفاءة الطيار القديم ، ونظراً لكثرة استهلاكنا لمحركات الطائرات سواء بسبب كثرة ساعات الطيران أو الأعطاب التي تحدث لمحركات الطائرات ، وبعد محاولات يائسة قرر السوفيت إرسال ٢٣ محركاً جديداً كصفقة جديدة ..

واشترطوا ثمناً لها ثلاثة أضعاف ثمن المحركات التي تعاقدنا على شرائها سابقاً ، ولم تمض فترة وجيزة بعد وصولها إلى مصر حتى أرسلوا دفعة من محركاتنا التي تم تعميرها بالاتحاد السوفيتي ..

ولقد كانت القوات الجوية مسرحاً أساسياً وخصباً لمخطط الاتحاد السوفيتي .. فمن أول يوم تم فصل القوات الجوية عن قوات الدفاع الجوي وهذه نظرية مقبولة ، لكن الاعتراض كان على الأسلوب الذي اتبع في بذر عوامل الشقاق والتنافر بين أفراد القوات الجوية وأفراد الدفاع الجوي بصورة صارخة .. كانوا يوغرون صدور قادة القوات الجوية من ناحية ، ويوغرون صدور قادة الدفاع الجوي وأفراده من جهة أخرى .

وهنا أنبه أن الخبراء الروس في هذا المجال كانت لهم اليد الطولى والنفوذ القوي ، فقد كانوا يستمدون سلطتهم من رئيس الجمهورية مباشرة ويصورون له الأمور كما تحلو لهم .

وكان الرئيس الراحل يثق فيهم ثقة عمياء على عكس ثقته في القادة المصريين حيث كانت تقريباً منعدمة .

وكان ذلك واضحاً في كل اجتماع من اجتماعات المجلس

الأعلى للقوات المسلحة برئاسة الرئيس عبد الناصر .

كما كان من أهدافهم الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات عن القوات المسلحة المصرية سواء عن الأفراد والقيادات أو القواعد الجوية والإنشاءات وكل صغيرة وكبيرة دون استثناء مما كان ملفتاً للنظر للغاية ..

وأوضح برهان على ذلك أن أحد الخبراء بعد تركه للعمل في مصر وأثناء توجهه إلى الاتحاد السوفيتي ووقوف الطائرات في إحدى البلاد الأوربية فرّ ولجأ إلى إسرائيل ومعه كل ما أمكنه جمعه من المعلومات ... !!!

وأخطر من ذلك بكثير أننا في أثناء حرب الاستنزاف كنا نجري عمليات استطلاع جوي لمواقع العدو شرقي القناة في سيناء ، ولقد لوحظ أنه في كل مرة تخرج طلعات استطلاع نجد مظلات اسرائيلية تواجهها بمجرد عبورها القناة ، في بادئ الأمر كنا نعتقد أنها يقظة وكفاءة عالية لأجهزة الإنذار الإسرائيلية ولكنها لا يمكن أن تكون بهذه الدقة والسرعة في كل مرة فارتبت في الأمر وأجريت تجربة على ذلك ..

حددت موعداً لعمل طلعة استطلاع في الليلة السابقة وحددت ميعاد الطلعة والأماكن التي تمر فوقها لتصويرها ، وكان في نيتي ألا أنفذ هذه الطلعة وراقبت خريطة الموقف العام في نفس الموعد المحدد لتنفيذ تلك الطلعة ، وإذا بي أجد الطائرات الإسرائيلية قد ظهرت دون خروج طائراتنا ـ !!! فقوي الشك عندي .. وحتى لا تتوقف عمليات الاستطلاع كنت ألجأ لحيل كثيرة منها أن طائرات الاستطلاع تقوم من قاعدة ثم تتحرك وتتمركز في

قاعدة أخرى وتنفذ عمليات الاستطلاع في موعد غير المعلن عنه للخبراء الروس ، وفي تلك الطلعات لم يكن هناك أي اعتراض لطائراتنا التي تقوم بالاستطلاع .. ؟؟؟

ولقد كان حظي وزملائي في الأفرع المختلفة للقوات المسلحة سيئاً للغاية بوجود الخبراء الروس منذ الأيام الأولى لتولينا قيادتنا وتحملنا لمسؤولية إعادة بناء القوات المسلحة ، فإن المعقوقات التي كانوا يضعونها أمامنا أكبر من أن تحتمل ، وإنني أعجب ــ لا يزال الحديث للواء الحناوي ــ هل كان ذلك مقصوداً أم هي طبيعة السوفيت ؟ لأن عامل الوقت بالنسبة لهم لم يكن له قيمة على الإطلاق ..

فبمجرد دخولي المكتب في الصباح يدخل كبير الخبراء ومعه المترجم ويظل مرافقاً لي أثناء قيامي بالعمل .. يتدخل في كل شيء بدرجة مملة عقيمة وقد نبهت كبير الخبراء إلى أهمية الوقت ولكن ذلك كان عبثاً فلا احترام للوقت أو حتى للأصول العسكرية أو كرامة القادة لدرجة أنني من شدة سخطي في أحد الأيام خرجت عن صبري وطردت كبير الخبراء والمترجم من المكتب بمنتهى الشدة والقسوة . وتكرر هذا التصرف مني وفي كل مرة كان يشكوني إلى وزير الحربية محمد فوزي وإلى رئيس الجمهورية.

لقد كانت تلك الفترة أصعب فترة في تاريخ مصر ، فكنا بعد النكسة والقوات المصرية محطمة والروح المعنوية منهارة بالإضافة إلى النقص في السلاح والأفراد والتنظيم كانت تقتضي هذه الفترة الاستغلال لكل دقيقة لإعادة بناء القوات الجريحة . وكنت أشعر بالجهد المضني الذي يبذله الخبراء السوفيت للحد من ذلك الاندفاع

الرهيب وكأنهم حجر ثقيل في عنقي .. ويا ليت الأمر اقتصر على هذا ولكن حتى استشاراتهم كانت مضللة ولكنها نافذة .

وإنني أدلل على مدى سوء نوايا الخبراء المستشارين في القوات المسلحة بأمثلة عديدة منها كنا دائماً نطالب بالتسليح والطائرات لكي نبني قواتنا الجوية وبعد إلحاح شديد قررت القيادات السوفيتية تزويدنا بعدد ١٠٠ طائرة وحضر إلى القاهرة مارشال جرتشكو وزير الدفاع السوفيتي واجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية وزف لنا هذه البشرى السعيدة وطلب منا تحديد الأنواع على أن نخطره بذلك مؤخراً .. وفي أثناء الاجتماع كانت هناك فترة استراحة لشرب فنجان من الشاي ، وإذا بمارشال جرتشكو ينتحي بي جانباً متسائلاً :

ما رأيك لو زودناك بعدد ٥٠ طائرة اليوشن ٢٨ ؟ . فأصابتني الدهشة . وقلت له قطعاً إنك تمزح لأن هذه الطائرة أبطل انتاجها في الاتحاد السوفيتي منذ ١٩٥٢ وهي بطيئة للغاية كما يسهل على أي وسيلة دفاع جوي حتى الرشاشات أن تصيبها وتدمرها ، إلا أنه أصر على رأيه قائلاً إنها طائرة ذات مدى جيد وحمولتها معقولة إلا أنني تمسكت برأيي ورفضي لأن هذه الطائرة لا تساوي ثمن وقودها وغير فعالة ضد العدو الذي يستخدم الميراج والفانتوم فسكت على مضض ودبر في نفسه أمراً .

بعد انتهاء الاجتماع .. أرسل كبير الخبراء في مهمة خاصة وطلب مني أن نجلس معاً وعلى انفراد ولفترة طويلة لأن لديه أمراً هاماً يريد أن يبلغه لي . ودار الحوار بيني وبينه . ابتدأه قائلاً مادحاً متملقاً لشخصي وذكائي ونشاطي وكفاءتي ... الخ

إلا أنه قال : إن رفضي لقبول طائرات اليوشن ٢٨ يضرني ويطيح بي من منصبي أما في حالة قبولي فسيكون موقف الاتحاد السوفيتي بجانبي وسيكون مستقبلي زاهراً ؟! فذكرت له أن المارشال جرتشكو من القوات البرية بصرف النظر عن كونه وزيراً للدفاع للاتحاد السوفيتي فإنه عندما يعتقد أن تلك الطائرات ممكن أن تؤدي دوراً في عملياتنا المستقبلة مع إسرائيل فله بعض العذر ..

.. أما هذا القول فغير مقبول من جنرال طيار .. واستطردت قائلاً : إنني لا أساوم على مصلحة بلدي ولو كان تهديدك يفقدني منصبي فإني أرحب بذلك كل الترحيب لأنني بأي حال لن أبيع وطني وأهلي وعشيرتي بأي ثمن .. فلما لم يجد استجابة قال لي : أنا أعلم أنك متيسر الحال ؟ وإنك بفقدك منصبك يمكنك أن تعيش نفس المستوى أما لو كنت فقيراً فأعتقد أنك كنت ستوافق فوراً .. ؟!!

وحمدت الله على نعمته التي مكنتني من قول الحق مهما كانت العواقب ، وقد أسرها الخبراء السوفيت في أنفسهم وكانت الركيزة لعزلي من قيادة القوات الجوية بعد ذلك لعدم استجابتي لرغبات السادة الرفقاء .

بعد ذلك في مايو سنة ١٩٦٩ أراد الرئيس عبد الناصر أن يعلم ما تم إنجازه عن إعادة بناء القوات الجوية . فهي ولا شك كانت في ذلك الوقت العنصر الحيوي في بناء القوات المسلحة سواء في مصر أو في إسرائيل .

فاستدعى كبير الخبراء السوفيت إلى استراحة القناطر ليقدم له تقريراً عن تلك الإنجازات ، ولأن الرفقاء لم يكونوا مشغولين

بالمساهمة في بناء القوات الجوية لأنهم كانوا مشغولين بمخططاتهم وأهدافهم الجانبية فقد أسقط في يد كبير الخبراء ماذا يفعل وماذا يقول ؟ .

أخذ يجمع من القادة المصريين الإنجازات التي تمت ، وكم كان مندهشاً حين علم أن كل ذلك العمل قد تم في تلك الفترة الوجيزة..

وحمل ذلك التقرير وأبلغه إلى الرئيس عبد الناصر ... وربما يكون قد نسب لنفسه ورفاقه كل هذه الانجازات ، ولكن قيادة القوات الجوية وأفرادها كانوا يواصلون الليل والنهار لإنجاز ما انجز على أسس علمية سليمة بالعرق والدم والسهر .. والحمد لله فإن قواتنا انتصرت في اكتوبر بدون هؤلاء الخبراء ..

* * *

فلم يكن عجيباً أن يأمر الرئيس السادات بطرد خبراء التخريب والتجسس ..

وأن يمزق بإرادة مصر الحرة ورقة الذل والعبودية أو ما يسميه قياصرة الكرملين بمعاهدة الصداقة التي لم تصدق في حرف واحد منها .. !

ماذا بقي من الحقيقة .. ؟

لقد نشرت إحدى الصحف الأوربية أن الرئيس السادات رفض الاعتراف بحكم المارق الشيوعي « هاشم أبو العطا » الذي أراد حكم السودان بالمطرقة والمنجل بعد أن طلب منه السوفيت هذا الاعتراف الدموي ... فكان هذا سبباً من أسباب حقدهم عليه ، وتآمرهم للإطاحة بحكمه ..

ثم ماذا أيضاً .. ؟

بقي على المخدوعين في العالم العربي والعالم الإسلامي أن يعرفوا الحقيقة من مصادرها الحقيقية لا من « نوفوستي » ولا من وكالة « تاس » ولا من « البرافدا » الصحيفة التي تحمل اسم الحقيقة ولا صلة بينها وبين الحقيقة ... !!!

* * *

في عهد (الاخطبوط الدموي) الذي كان يسمى بمراكز القوى كتب على شعب مصر المسلم ، أن يرضخ في هذه الفترة الكئيبة لمفاهيم لا عهد له بها في تاريخه ، ولا سابقة لها في ماضيه أو حاضره .

لقد تصدر الأمر ـ في ذلك العهد أناس مسخوا (وحوشاً مفترسة) ولكنها وحوش من نوع يثيره لون الدم ... دم الإنسان البريء الحر ، ودم القيم والفضائل التي أريقت هنا على أرض مصر .

ولأن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، فقد آثر هؤلاء أن يغلقوا على مصر كل الأبواب إلا باباً واحداً ينفتح على الشرق . الشرق بمعناها (الايديولوجي) البحت ، والشرق بمعناه الدموي الذي يهون فيه الإنسان حتى الموت .

كان الطلبة يوجهون إلى تلك الجامعات التي يتعلم فيها الطالب (صناعة الحقد) ويجردون فيها من كل مكرمة عرفها الإنسان منذ قام الإنسان على هذه الأرض .

وكان العلماء والمفكرون ورجال السياسة والاقتصاد يرحلون إلى هذه (الاصقاع) ليتعودوا فيها على حياة الصقيع والبرد ويتلقون فيها أصول (الحكم) أو (النظرية) التي لا تعرف غير (الإبادة والقتل) .

حتى الفلاحون ... الفلاحون الذين درجوا منذ آلاف السنين فوق هذه الأرض الطيبة يزرعونها بالحب لم يسلموا من هذا التشويه والمسخ ، ولم يدعوهم في القرى الآمنة ... قانعين بما قسمه الله لهم من رزق متواسين فيها بينهم بالأخاء والحب . هؤلاء الفلاحون ساقوهم إلى متاهات الضياع ، (الايديولوجي) المتزمت وشحنوهم بالطائرات إلى هناك في محاولة للتغيير أو التدمير المبيت .

كيف كان يحدث هذا ؟ إن أحداً في مصر لم يكن يتصور ما كان يحدث في ذلك العهد .. كنا نقرأ ونسمع . ونهمس . ولكن القراءة في تلك الأيام كانت جزءاً من الأخبار (المصنوعة) في معاهد (الكذب) .. والهمس في هذه الفترة من الزمان كان حلماً من أحلام اليقظة في مواجهة الموت والخوف .

لقد زارني في مكتبي الأستاذ أحمد موسى سالم وأهداني كتاباً من تأليفه اسمه (سباق المستقبل بين الدين والشيوعية) تسلمته شاكراً وإن كنت في الواقع لم أعره اهتماماً لم أعر الكتاب لا الكاتب وأستغفر الله من هذا اللبس ...

لقد كتب الكثيرون عن الشيوعية وعن الصراع أو الخلاف بينها وبين الدين ، وقرأت أكثر هذه الكتب ورأيت أنني اكتفيت بما كتب ، وقنعت بما قرئ ، ولم يعد يثيرني الحديث عن هذه القضية بعد أن تعرت الشيوعية في مهدها وانفضحت وبعد أن عرف الناس أنها أي (الشيوعية) زفرة حاقدة على البشرية منذ وجدت .

غير أن هذا الكتاب جذبني إنه ليس كتاباً من تلك الكتب التي ترص فيها المعلومات قالباً إلى جوار قالب إن هذا الكتاب فيض تجربة حقيقية ونبض قلب مؤمن بالقيم والأخلاق المصرية . وكان

(مسرح) هذه التجارب أو (اليوميات) في ألمانيا الشيوعية أي الشرقية .

في أول لقاء مع الرفاق كما يقول الأستاذ أحمد سالم : قدموا لنا الخمر امتنعنا .. فقال الرفيق (شبرلنج) رئيس اتحاد الفلاحين في ألمانيا الشرقية ـ :

(عندما كنت في القاهرة صادف ذلك شهر الصوم عندكم . وعندما لاحظت في حفل استقبالي أن أمين الفلاحين لا يشرب الخمر سألته ؟ فقال لي : نحن في رمضان .. ولذلك نحن نمتنع عن الخمر تماماً ..)

ثم توجه نحوي بالكلام عن طريق المترجم وقال : واليوم أنا متأكد أنكم لستم في رمضان .. فلماذا الامتناع عن الخمر إذن . ؟

وقلت أرد عليه ـ :

إنه بالنسبة للخمر يا سيد شبرلنج فإن كل الشهور عندنا رمضان .. إننا نمتنع عنها في كل الشهور أي أننا نمتنع عنها دائماً .. ونحن لا نمتنع عن الخمر ابتداء بسبب الالتزام بأمر الدين . فهناك قبل أن نرجع إلى الأمر الديني أسباب كثيرة تفرض علينا أن نمتنع عن الخمر .

فقال شبرلنج تعجباً وغير مصدق : حسناً ما هي هذه الأسباب .؟

قلت :

أولاً : لقد سرق الانجليز أرضنا الزراعية بوسائل غير أخلاقية : منها أنهم نشروا (الخمارات) التي يملكها الأجانب في القرى . لقد نشروها كجزء من خطة استعمارية تتسرب بها الأراضي التي في يد صغار الفلاحين الذين

سكروا بائتمان أرضهم إلى أيدي (أصحاب الخمارات) الأجانب .

ثانياً : نحن نحتاج اليوم إلى ترميم أخلاقنا التي حاول هدمها المستعمر ولا يكون ذلك بشرب الخمر .

ثالثاً : فإن الناس عندكم يشربون الخمر بأمر الطقس وأحكامه ، بينما في بلادنا يأمرنا الطقس بالعكس

رابعاً : فإنني أعتقد أنكم مع اباحتكم للخمر تمنعونها في بعض الأحوال فأنتم تعلمون أن الخمر تطلق الألسنة بما يقال ، وما لا ينبغي أن يقال ؟ ومعنى هذا أنه حتى أنتم يا أصدقاء الخمر لا تستطيعون أن تبيحوها إباحة مطلقة .

* * *

كان أول القصيدة (كفراً) كما يقول المثل ، غير أننا سنرى من خلال اليوميات التي سجلها المؤلف أن (الكفر) كان قاسماً مشتركاً في كل حفل أقاموه ، وفي كل مكان ذهبوا إليه وفي كل حوار أو مناقشة دارت بينهم وبين الرفاق الشيوعيين في ألمانيا ، أو بين (العرب) الذين سافروا لنفس المهمة من آسيا أو إفريقيا ؟؟

يقول المؤلف ــ :

منذ اليوم الأول من إقامتنا بمدرسة الهندسة الزراعية في قرية (تونينشنتال) علمنا بوجود وفود عربية من سوريا ومن السودان . وكانت فرحتنا عارمة بوجود الأشقاء من السودان ومن سوريا .. لكن لم نكد نلتقي بالوفد السوداني المكون من عشرة أعضاء ــ نصفهم مع رئيس الوفد : شيوعيون ــ حتى تبخرت أكثر آمالنا .. من أول لحظة نظر رئيس الوفد الشيوعي السوداني إلى الفلاحين

المسلمين نظرة طبقية ... وسمح لنفسه بتوزيع منشور يحمل عنوان (وثيقة) إدانة هاجم فيه (الدين) تحت ستار مهاجمة الحكام وكان أعجب شيء أن رئيس الوفد ـ الشاب الشيوعي ـ خفيف الرأس يتكلم معنا ومع غيرنا كرئيس دولة وكان (رئيس الدولة) هذا كما تكشف لنا بعد امتحان طبيعته وهز معلوماته صورة غريبة من فهم الماركسية فهماً صوفياً (انجذابياً) بنفس مقاييس دراويش (التعايشية) الذين يهاجمهم مع رفاقه : صورة يرى فيها أن الماركسية هي (الطريقة) وأن الحزب هو (القطب) المعصوم. وأن تعاليم الحزب هي (الأوراد) وأن أعضاء الحزب هم (دراويش) الماركسية المنتظرون للجنة والنعيم هنا على الأرض جنة مليئة بالخمر والنساء والسيارات والمصايف والمأكولات والهرمونات والسعادة المعلبة في قراطيس المانيفستو الذي أكل عليه الدهر ...!

وقد تكررت الصورة نفسها مع الوفد السوري الممثل لحزب البعث : وفي لون من استعراض القوة : تكلم أحد المتفلسفين من أعضاء هذا الوفد . تكلم (منجعصاً) على مقعده كأنه نصف (امبراطور) ثم لم يلبث عندما حمي الكلام ـ أن أخذ يقفز ويجلس في مثل حركات راقصي (الدبكة) أو لاعبي (السيرك) وقد انتابه شبه هذيان هستيري وهو يسأل ـ يسألنا نحن الفلاحين المسلمين القادمين من مصر ـ

قال البعثي الفيلسوف :

ما هو الرباط بين الاشتراكية إذا كنتم أخذتم بها ـ وبين الدين ؟ وما هو المعنى لحركة (ثورة) إن لم تكن تغييراً للواقع ، واستئصالاً لكل الماضي من جذوره ؟ أو لماذا ـ وهو المهم ـ لم

تأخذ مصر بمنهج البعث الذي يجمع مع دعوة القومية خطأً أيديولوجياً يتقدم به المجتمع على أساس غير ديني ؟

قلنا له ـ بكل هدوء إنك مع الكلام الجميل قد تركت التعرض للقضية الأساسية التي تحمل لكل العرب جميع الإجابات عن الحل .. !

فقال ـ وهو ينتفض في مكانه ويقترب بمقعده : حدثوني إذن ما هي هذه القضية الأساسية ؟ وحملق فينا بعينيه كالممسوس أو الشارب ؟ قلت له : إن الحقيقة التي لا يزال يطرحها علينا التاريخ المسجل : أن كلمة (عربي) لا تعني مجرد الانتماء القومي للأمة المصرية وإنما تعني بجانب هذا الانتماء القومي التاريخي (نظرية شاملة) في تفسير الحياة ، وبناء المجتمع ، وصياغة المستقبل ، وهي نظرية تنبع بطبيعتها في عقل العربي وفكره ولغته : على أساس الدين وإيماناً بحقائق الدين ؟

وإذا كنتم (أيها البعثيون) تريدون اليوم ، ولأول مرة منذ آلاف السنين أن تفصلوا بنظريات (غير علمية) من كلمة (عربي) وما تدل عليه من احتوائها على نظرية شاملة للحياة وما بعد الحياة لها أساس ديني فقولوا لنا إذن : ما هو معنى كلمة (عربي) بمفهومكم البعثي أو بأي مفهوم آخر ؟ فأغمض الفيلسوف عينيه ثم فتحها .. ولم يتكلم ! !

وقد حضر بعض الطلبة الألمان وشاهدوا هذا الحوار الساخن بين الأشقاء العرب ، وإن كانوا بالطبع لم يفهموا منه كلمة واحدة ، وكأنما أدرك أحدهم في لحظات الصمت والوجوم أننا وصلنا إلى مرحلة حرجة فأراد أن يجدد النشاط فطلب من

المترجم أن يسأل أعضاء الوفد المصري هذا السؤال ـ :

هل صحيح أنكم تأكلون لحم الجمل ، وتحرمون لحم الخنزير ؟

وضحكنا كثيراً لهذه المفاجأة . وقال أحد أعضاء الوفد ـ ونحن نتهيأ للانصراف ـ : نعم نحن نفعل ذلك لأن هناك حكمة قديمة تقول إن طباع كل شعب تتحدد بطباع الحيوان الذي يأكله !؟ ولم يكد الحوار الساخن ينتهي بيننا وبين مجموعة الوفد السوري (البعثي) حتى كانت الأخبار . وربما كانت التسجيلات الصوتية الكاملة قد وصلت إلى إدارة المدرسة (التي كنا نقيم فيها) .

وقد أصبح واضحاً أن الفرسان الثلاثة من المترجمين العرب ـ الماركسيين بالضرورة ـ والذين اختارتهم إدارة المدرسة للقيام بالترجمة من العربية إلى الألمانية والعكس ـ هؤلاء المترجمون العرب ـ اسماً ـ ، الماركسيون الشيوعيون ـ حقيقة ـ كانوا عيوناً مفتحة علينا تراقب أقوالنا وتحاول النفاذ إلى أعماق أفكارنا من الداخل لتنتقل إلى المسئولين (الشيوعيين) صورة تقريبية لها !! يقول المؤلف ـ :

كنت لا أثق شخصياً في المترجم (علي السوداني) الذي كان يتطوع بنشر الدعوة إلى الإلحاد ويناقش بوصفه مسلماً (سابقاً) في بعض معاني آيات القرآن التي لم يكن يفهمها إلا بالمقلوب .

وكثيراً ما كان وجهه يتورم حنقاً عندما يوضع جهله بمعاني القرآن أمام مرآة صافية تعكس له هذا الجهل وتؤكد عجزه التام عن التطاول على القرآن أو على بنائه المتين وبيانه المبين .

أما المترجم السوري اسماعيل السراج فإنه لم يكن ليمتنع ـ ومعه

المترجمة السورية الشركسية (نيفين) عن تقديم المعلومات المتاحة عنا إلى إدارة المدرسة بانتظام ، فقد كان هذا واجبهما الأساسي ؟

وهكذا لم نستغرب ـ بعد لقائنا مع البعثيين السوريين ـ هذه الإشاعة التي تقول : لم لا تكون مصر قد أرسلت إلينا عدداً من المثقفين داخل الجلاليب كـ (بالون) اختبار ؟

لقد خرجت هذه الإشاعة وظلت تتحرك حتى وصلت إلى عدد من المثقفين الماركسيين العرب الذين يدرسون في جامعتي (مارتن لوثر) و (كارل ماركس) وكان من حظنا أن نعلم بوجود هذه الإشاعة ، وعندها توقعنا أن يكون رد الفعل (هجمة مباغتة) من بعض هؤلاء تأخذ شكل الزيارة الودية ؟

ولم يلبث هذا التوقع أن تحقق ، لقد هبطوا كما يهبط المظليون المحترفون على قلعة حصينة لاقتحامها من الداخل . وبدأ الحوار وانهالت الأسئلة ولم يكن هذا الحوار ولا تلك الأسئلة إلا هجوماً على الدين وتقليلاً من شأنه في قلوب المؤمنين ؟

كانت القاعدة التي انطلقت منها هذه (الصواريخ) الصبيانية تركز أساساً على التهوين من شأن الدين وأن الخلاف بين الدين والاشتراكية راسخ ومتين ، ومن نماذج هذه الأسئلة التي وجهها الماركسيون ـ :

إذا لم يكن التطبيق العربي للاشتراكية مرحلة من مراحل التحول السلمي إلى الماركسية ، فلماذا هذه الحالة من عدم الوفاق بين الثورة وبين الجماعات التي تدعو إلى الدين ؟

وهل تعتقدون حقاً : أنه من الممكن تنظير الإسلام ليقف نظرياً في مواجهة الماركسية والرأسمالية ؟ ثم انفجر سؤال عثر عليه

أحدهم في (المخزن) فقال : لقد انتهت أوربا من قضية وجود (الله) فهل ترى أن العرب لا يزالون ـ مع الاشتراكية ـ يحتاجون إلى وجود الله ؟

يقول المؤلف : ـ

قلت ـ وأنا أطيل النظر إلى وجه السائل الممتقع ـ :

قلت : ان المبدأ الأول في الجدول الماركسي يؤكد أن هناك (تعلقاً فعلاً) بين أجزاء الواقع المختلفة فالفرد ليس إلا معنى مجرداً لأنه ذو علاقة بالفعل الذي تقوم به الكائنات المحيطة به ، فهل لا زلتم تعتقدون في هذا المبدأ ؟

قالوا : نعم ، نعم ؟

قلت لهم : لا تعجبوا إذا قلت إن القرآن يقرر هذا المبدأ ، وأن العرب قبل الإسلام تحدثوا عن هذا المبدأ وعلينا الآن أن نجرب معاً تطبيقه على الإنسان الأوربي من حيث هذا (الحيز الحقيقي الذي يراه من العالم والواقع) أي عن المادة وحركتها ، هذا الحيز الذي يعكس مثاليات المادة عن طريق الحواس والمخ على فكر الإنسان هذا الحيز المادي الذي يشبه (العينة) التي ينقلها العالم إلى معمله ليحللها ويستخرج القوانين العلمية منها . أقول إن الإنسان الأوربي لا يرى ـ في الحقيقة ـ في مثل مناخ أوربا المعتم القابض بالبرودة أكثر من (حيز مادي) فاقد الدلالة على أجزاء الواقع بفعاليتها مع نفسها ، وداخل نفس الإنسان . إن أجزاء هذا الواقع ناقصة ومبهمة ومتباعدة في المشهد الطليعي المغلق الذي يراه الأوربي من حركة العالم لهذا تضاربت أفكار

فلاسفة أوربا أمثال (ديكارت وهيجل وماركس) لأن العينات التي فحصوها بالتفكير من أجل تفسير الوجود كانت ناقصة ومضللة ؟

إن (كارل ماركس) كان لا يرى أكثر من غرفته التي يملأها دخان غليونه أو عشرات السنتيمترات خارج نافذته ، أو مدى رؤيته لموضع أقدامه ، وهو يسير في الطريق منكس الرأس داخل معطفه ، بينما الإنسان العربي الذي آمن بالله ـ كان ومنذ آلاف السنين ـ يعيش ويرى من خلال حركته المنتظمة والمندمجة في الواقع والمعبرة عن الواقع : قطاعاً كاملاً من هذا الوجود المنسق ، يجمع بين السماء والأرض ؟

لقد أتيح لهذا الإنسان أن يعرف (الله) ويؤمن به وأن يسميه باسمه (الله) الذي لا يعني لهذه الإشارة إليه في الغيب أي تجسيد بشري ونحن العرب المسلمين لا نعترض على أفكار الشعوب ولا نعترض على (الماركسية) و (الرأسمالية) في بلادهم وإنما نعترض على محاولات فرض ذلك علينا نحن المؤمنين بالله ورسوله ؟

ويقول الأستاذ أحمد موسى سالم : كان التناقض الذي عمد الألمان (الشيوعيون) إلى تفجيره بيننا وبين الأخوة السودانيين قد تهيأ له المناخ المناسب أخيراً لينفجر ، وكان ذلك ـ بالضبط ـ عندما أعد الأخوة السودانيين لندوتهم التي أقاموها بعد ندوتنا في قرية (تاوندروف) القريبة من (هندروف) تميزت الندوة التي ساعد الألمان على إخراجها بالدعاية السوقية للماركسية ، فتصدرت المنصة صور : لينين ، وماركس ، وأولبرخت رئيس (ألمانيا الشرقية) السابق وكأن السودان كما أراد أن يظهره هؤلاء

الأدعياء المجذبون ـ هو رغم أنفه : عضو في الكتلة الشرقية ، وكانت فرصة لنا أن نسمع ـ من كلمة رئيس الوفد السوداني ـ (سماريت) كل ما اتفقت عليه ـ ضد الإسلام ـ آراء الصابئة من الماركسيين العرب المختلي الشعور داخل مجتمعاتهم الباطنية ، وفي دهاليزهم المعتمة ، ووراء حدود الوطن الأم عندما يحتضنهم الحزب الماركسي بوساوسه ؟

لقد بدأ (سماريت) هذيانه بالكلام عن موقع السودان جغرافياً وسط تسع دول ليضعف من انتمائه الطبيعي للأمة العربية ، وهاجم عندئذ مصر والمصريين ، والجيش المصري ، ومن هذه النقطة قفز إلى قصة التخلف (الفظيع) الذي جلبه الإسلام على كل من الرجال والنساء في السودان ، ولم يكن غريباً وإن كان إشفاقاً أن يظل هذا المعتوه المسخر في حديث المظالم التي ألحقها الإسلام بالمرأة حين أصبح الرجال به (قوامون على النساء) وحين لم يساوهم بالرجل في الميراث ثم عندما زعم : أن بعض الرجعيين يتكلمون الآن في الوطن العربي عن تحرير المرأة ، والحقيقة أنهم اعداؤها ـ أي أن التحرير في نظره إنما هو تجرع العرب لدكتاتورية العمال ، بروتوكولات ماركس التي أباحت له أن يسكر كل ليلة ، وأن يبهت بعد ذلك بجسده ولونه على من تقع له ، أو يقع لها ، من المتحررات الماركسيات المزقات نفسياً وإنسانياً بمقياس أي مجتمع حر ؟

كان من الحتم أن نتصدى له وأن ندافع ـ رغم أنفه المتورم ـ عن الرجل السوداني والمرأة السودانية اللذين حملا السلاح في وجه الاستعمار ، وشرحنا أمام الألمان كيف أن بين السودانيات كثيرات

جداً من البطلات والشهيدات ، وأن تحميل الإسلام أوزار الاستعمار ليس إلا تدليساً مخجلاً ، بل هو جريمة يجب ألا تتورط فيها الماركسية ، وألا يأخذها الألمان الماركسيون مأخذ الجد ؟

ومن أجل هذا ، وبعد إحراج رئيس الوفد السوداني إحراجاً مهيناً تلقيت الدعوة إلى لقاء وندوة مع لجنة السيدات في (تاوندروف) بكثير من الترحاب ، واعتبرنا أن هذا اللقاء الذي سيتم ولا شك بوصفنا مسلمين مع عدد من قيادات النساء الألمانيات بوصفهن ماركسيات سيتيح لنا إلقاء بعض الضوء على حقائق الموقف الإنساني الفريد الذي وقفه الإسلام من تأكيد مساواة المرأة إنسانياً بالرجل مع تقديمها عليه في الرعاية ومع إتاحة الحرية لها في نفسها وقلبها ومالها في حدود هذه الشريعة التي لا تزال قادرة على تجديد عطائها الإنساني للرجل والمرأة في هذا العصر .

عندما وصلنا إلى مكان الندوة أجلسونا على منصة مشرفة على القاعة ، وكان إخواننا من السودانيين الشيوعيين والاشتراكيين على جنب منا ينتظرون ما يكون ، بينما وقف المترجم السوداني إلى جانبي ينتظر إطلاق القذيفة الأولى ليبدأ عمله الرسمي ؟

ولم تلبث الطلقة الأولى أن وصلت إلينا تزغرد فوق رؤوسنا من خندق النساء حاملة إلينا هذا السؤال المصبوب في أخبث قوالب الدهاء والسؤال هو ـ :

لماذا لم تحضروا زوجاتكم معكم ؟

وكان الجواب ـ :

لقد كان من أحب الأشياء لنا ولزوجاتنا أن نصحبهن معنا إلى بلادكم الجميلة ، ولكن موعد حضورنا صادف زراعة القمح

المبكر في بلادنا كثيراً عن بلادكم ، ونساؤنا لا يضيعن فرصة زراعة الأرض إذا غاب أزواجهن في رحلة كهذه نقطعها إلى بلادكم لنتعلم ؟

وقوبل هذا الاعتذار بالموافقة الجماعية من السيدات ودار الهمس والضحك والابتسام بينهن ، وجاء السؤال الثاني سريعاً ـ :

هل صحيح أن الإسلام يحبس المرأة في البيت أو يمنعها من التعليم والعمل ، ولا يسوي بينها وبين الرجل في الميراث ؟

وقد أجاب المؤلف عن ذلك إجابة توضح موقف الإسلام من هذه القضية وكيف أعطى المرأة حقوقاً لم تكن معروفة عند العرب ولا في حضارة الرومان والهند أو في أوربا عندما كان رجال الكنيسة يعتبرونها فاقدة الإنسانية بالنسبة للرجل وتستحق اللعنة وأن الشيطان لا يظهر إلا في صورتها ؟

ثم شرح المؤلف الحكمة من تعدد الزوجات ، وأنه حلال بشرط العدل والمساواة بين الزوجات وبين فضيلة هذا الأمر في بناء الأمم وتقويتها والأسباب الداعية إليه من واقع الحياة ومشكلاتها الخ ، الخ .

وجاء سؤال من سيدة صغيرة السن في لهجة أقرب إلى التحدي : قالت : هل لا يزال نظام الحريم سائداً في مصر ؟

يقول المؤلف ـ :

فقلت إنه سائد الآن تماماً في أوربا تحت عنوان التحرر ووراء واجهات محلات بيع المتعة والشذوذ وأما الحريم الذي نسبه الأوربيون إلى المسلمين ، فأصله أوربي وأن المسلمين لم يعرفوا (الحريم) إلّا على أيدي الشعوب الآرية التي دخلت في الإسلام

وفي جوفها كثير من معتقداتها الإباحية القديمة ؟

وقالت سائلة أخرى ـ :

وأنتم لا تشربون الخمر فهل نساؤكم لا يشربنها أيضاً ؟

قلت إنني أكتفي بالرد على هذا السؤال بأن أنفي تهمة شرب الخمر عن نسائنا في الريف وأن أكتفي في إيضاح الأسباب بقول تشيكوف في سياق قصته (الفلاحون) وهو يصف حالة الفلاح الروسي التعسة أيام القيصرية ـ :

(كان الفلاح الروسي يقاسي من الجوع والجهل والمرض والفودكا) .

* * *

إنني لا استعرض هذا الكتاب وإنما أقوم بدور (المصور) الذي يلتقط صورة من هنا وصورة من هناك ليجعل من هذه الصور « صورة جديدة » تحدد ملامح هذه النظريات التي ابتلي بها المسلمون في فترة حالكة من تاريخهم المعاصر .

فالشيوعيون عادة يلجأون إلى التحايل والخداع (تكتيكياً) حين يصطدمون بجدار العقيدة الدينية التي تقف حجر عثرة في طريق زحفهم الدموي إلى السلطة ، ومن ثم يتظاهرون بالتدين ـ تظاهراً ـ من الظاهر فإذا ما خلا لهم الجو ، وسقطت الأقنعة الزائفة التي يتقنعون بها ظهروا على حقيقتهم البشعة أناساً تجردوا من القيم والفضائل ولم يكن (سماريت) الشيوعي السوداني إلا نموذجاً مشابهاً لهذا التضليل بالباطل .

يقال هذا الكلام نفسه عن البعثيين الذين اتقنوا هذا الدور الذي يمثله الشيوعيون في وقتنا الحاضر فهم هنا في الوطن (الأم)

يظهرون غير حقيقتهم الكامنة في الباطن ... فإذا ما أتيحت الفرصة لإظهار خبيثتهم فعلوا ما فعله الشيوعيون من غير خباء وبدون ساتر ... ؟

والمأساة تكمن هنا في انخداع الشعوب بالأشكال والمظاهر ، وفي استهوائها بمعسول القول وأفانين الحيل والتآمر ؟

إن الشيوعية تنحسر في أقطارها انحسار المد في الظلام الداهم ، والبعث ـ تحول إلى « موت » على أيدي الرفاق المتناحرين في مختلف العواصم .

لقد زرت برلين الشرقية مرتين .. ولم أنس ذلك اليوم الذي ركبت فيه الطائرة من لندن .. قضيت ليلة في برلين الغربية ، وفي الصباح توجهت قاصداً برلين الأخرى مروراً بالبوابة الشهيرة وعبوراً للخيط الرفيع الفاصل بين المدينة الممزقة .. وعند نقطة الحراسة قدمت جواز سفري إلى الجنود المقيمين بهذه النقطة .. كانوا خليطاً من الألمان الغربيين والأمريكيين والفرنسيين والانجليز قلت لهم : إني متوجه إلى برلين الشرقية ... ولم أكد أكمل عبارتي حتى قالوا جميعاً وفي صوت واحد ، ودون النظر في جواز السفر اذهب اذهب ، ولو كانوا مسلمين لقالوا : أنتم السابقون ، ونحن اللاحقون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون . ! !

عبرت الخيط الفاصل بين الشرق والغرب ، وإن شئت فقل : بين الحياة والموت ، هل هي مبالغة مني ؟ لنرى أولاً : ماذا حدث في أول لقاء مع الأصدقاء الشيوعيين ، أمسكوا جواز السفر ... نصف ساعة كاملة ، يراجعون فيها الصفحات والكلمات تعجبت لأنني مصري ... والزعماء والقادة يتحدثون عن الصداقة المتينة

والعلاقات الوثيقة بين برلين والقاهرة فإذا كانت هذه معاملة أبناء الشعوب الصديقة فكيف لو كنت قادماً من تونس أو السعودية . ؟

أخذت الجواز وانطلقت إلى مكتب ثان .

ماذا تحمل من كتب أو مطبوعات أو صحف .. نصف ساعة أخرى في (استجواب) نازي شيوعي ثم انطلقت إلى مكتب ثالث ؟

ماذا تحمل من نقود ؟ مارك ألماني (غربي) استرليني ؟ دولار ؟

قلت : معي بعض الدولارات ! وبلوعة الظامئ المشرف على الموت قالت المرأة العجوز ـ :

اعطني أعطني ؟

وأعطيتها ما معي لاستبدالها بعملة رديئة لا وزن لها في الجيب أو القلب وانطلقت .. ابحث عن سيارة لم أجد ... مشيت حتى تعبت ، سألت رجلاً : أن يرشدني إلى سيارة تحملني إلى المطار لقد كنت عائداً إلى بيروت على متن (انترفلوج) .. ولم تكد السيارة تتحرك حتى توقفت أمام نقطة حراسة ونزلت ؟

أين جواز سفرك ؟ فحصوا الجواز وانطلقت السيارة ؟ ثم توقفت أمام نقطة ثانية .. وثالثة .. الكل يسأل عن جواز السفر .

أخيراً .. وصلت إلى المطار ، وأي مطار ؟ إن تسميته بالمطار فيه كثير من التجاوز .. سكة حديد القاهرة أجمل منه في نظري ألف مرة ؟ وللأمانة والحق . كان ذلك في سنة ١٩٧٠ ربما يكون ذلك قد تغير فإني لم أره بعد ذلك .. ولم أفكر في رؤيته أبداً .

أخذت مكاني فوق أحد المقاعد ، مقاعد محطات السكة الحديد في الريف لا القاهرة أبحث عن شيء آكله ، لا شيء .. بعد

ساعة حضرت (عجوز) وأخذت مكانها في كشك تبيع فيه الحلوى ..

اشتريت قطعة من (الشيكولاتة) ولم تكد أن تلمس فمي حتى وضعتها على المقعد بجواري .. كانت مرة .. وتسميتها بـ (الحلوى) من باب (عموم البلوى) ...

أهذه هي ألمانيا (الديمقراطية) الشعبية .. الشيوعية ؟ الا فلتذهب إلى الجحيم كل هذه الشعارات الزائفة .

الأفعى اليهودية

هذا اسم الكتاب الذي أصدره الأستاذ عبد الله التل أحد رجالات الإسلام المعدودين في الأردن . وقبل أن يغادر هذه الدنيا إلى دار الخلود والبقاء .

والأستاذ المؤلف واحد من القلائل الذين حملوا أمانة السيف والقلم دفاعاً عن مقدسات الإسلام . وكان ضابطاً كبيراً في الحرب الإسرائيلية العربية الأولى ومسئولاً عن قطاع كبير من مدينة القدس . وكان مقدراً لخطته أن تنجح في تحرير المدينة لولا عوامل الخيانة التي أجهضت خطة التحرير في مراحلها الأولى المبكرة .

وهذا الكتاب الذي نتعرض له واحد من مؤلفاته التي عالج فيها الخطر اليهودي في بلاد الإسلام وكشف فيه الحقائق بالوثائق والأرقام ، وحدد فيه مواطن الخطر التي تهدد بلاد العروبة والإسلام .

وإذا كان المؤلف قد اختار لكتابه اسم « الأفعى اليهودية » في بلاد الإسلام فلأن طبيعة اليهود هي طبيعة الأفعى في كل العصور والأزمان .

فجميع الثورات والانقلابات والحروب التي وقعت عبر القرون ـ الثامن عشر والتاسع عشر ، والعشرين ـ تكاد كلها تكون من

صنع اليهود أنفسهم ابتداء من الثورة الفرنسية ومروراً بالثورة البلشفيه وانتهاء بما يعانيه العالم من فتن وقلاقل واضطرابات .

وقد لوحظ أن الثورة الفرنسية لم يقم بها فرنسيون لحماية فرنسا ، بل قام بها أجانب يتسترون وراء قوة سرية تهدف إلى هدم كل قائم في فرنسا ، ولم يكن هؤلاء الأجانب سوى اليهود الذين خططوا للثورة وعهدوا لها .. بإثقال كاهل البلاد بالديون ، وبإشاعة الخلاف بين الحكام والشعوب . فقد كان وزير مالية فرنسا على عهد الملك لويس السادس عشر يهودياً يدعى نيكر فأغرق هذا الوزير فرنسا بالديون ، وكانت الملكة ماري انطوانيت قوية الشخصية في وجه مطامع اليهود والماسون ، وتلقت منهم الانذار تلو الانذار ، فأشاعوا أن الملكة قد أوصت على عقد ماسي ثمنه ربع مليون جنيه ، بينما شعبها يتضور من الجوع .

وفي سنة ١٧٨٩ أرغم الدائنون اليهود الملك على إصدار قانون لسرقة العرش ونهب أموال الدولة .

فانطلقت المظاهرات الصاخبة في شوارع باريس ، وطالب الثوار برأس الملك ورأس الملكة .. وكان من أبرز قواد الثوار « لاكوس » مدير القصر الملكي وهو يهودي اسباني . ورئيس لجنة الأمن العام وهو يهودي اسمه ديفيد .

وقد بدت روح التلمود وخططه الإجرامية ودستوره الأخلاقي في وثيقة خطيرة بين أوراق ميرابو في منزل مدام لجاي ناشر كتب ميرابو وذلك في ٦ أكتوبر ١٧٨٩ وقد جاء في هذه الوثيقة :

« يجب أن نسحق كل النظم ، وأن نلغي كل القوانين ، وأن نمحو كل السلطات وأن نترك الناس في فوضى ، وأن نحمل

الشعب على بغض كل من نريد هدمه وأن نشتري الأقلام المرتزقة ، والتي تبث مبادئنا ، ونهاجم أعداءنا وفي مقدمتهم رجال الدين الذين لا يمكن هدمهم إلا بالتحقير والسخرية ، وتصويرهم أوغاداً منافقين ، وأن ننسب إليهم أحقر الرذائل » ! ! !

وتمضي هذه الوثيقة الدموية فتخاطب رجال الجيش والشرطة :

« انسوا شيئاً اسمه الضمير والإنسانية والرحمة ، ماذا تهم الضحايا وعددها ؟ ماذا يهم التخريب والإحراق والنهب وسفك الدم . يجب ألا تقدسوا شيئاً وأن نعمل كل شيء ما دام.ذلك يخدم غايتنا .. » .

ثم يمضي المؤلف مع التاريخ حتى ينتهي بنا المطاف عند الثورة الشيوعية ودور اليهود الرئيسي فيها ، وسيرى القارئ عجباً حين يعلم أن الثورة الشيوعية مولها كبار الأغنياء اليهود ، وأصحاب ملايين أمريكيون يهود ، منهم جاكوب شيف مدير شركة كوهين لوب في نيويورك . وفيليب واربورج ، واوتو كوهين ، وكانت ملايين الجنيهات تتدفق على اليهود عن طريق تروتسكي أحد زعماء الثورة الشيوعية الذي اغتيل في أمريكا اللاتينية بعد أن نفاه ستالين إلى هناك . بعد اتهامه بالخيانة .

وكما فعل اليهود في الثورة الفرنسية أعادوا نفس الدور في الثورة الشيوعية كان زعماء القتل والتخريب والإبادة يهوداً أو انصاف يهود أو عملاء لليهود .

كان من وراء الثورة قولاً وعملاً وتنفيذاً تروتسكي ـ زيرفلوف ـ كامينيف سوكولنكوف ـ اورتسكي ـ لتفينوف ـ زينوفيف ـ رادك ـ كاجانوفتشي ـ وكلهم من اليهود ، أما لينين فتختلف

الأقوال في نسبته ، البعض يقول كان يهودياً خالصاً والآخرون يقولون إن أمه يهودية ، أما ستالين فقد كانت زوجته يهودية . وكذلك مولوتوف وزير الخارجية الأسبق .

وفي أول إحصائية عن الوزارات والدوائر الرسمية بعد الانقلاب الشيوعي في روسيا كان عدد المسؤولين في الوظائف العليا بالدولة ٥٣٢ موظفاً ، كانت نسبة اليهود منهم ٨٠٪ أي ٤٢٥ موظفاً كبيراً .

ويمضي المؤلف بعد ذلك في سرد دسائس اليهود ونفاقهم الديني والسياسي فيذكر أن اليهود حين تضطرهم الظروف لاعتناق دين غير اليهودية فإنهم يفعلون ذلك خدمة لأهدافهم البعيدة وأغراضهم الخبيثة ، ويضرب مثلاً بذلك بدزرائيلي الذي ترأس الوزارة في الأمبراطورية البريطانية والذي يعبر عن هذه الخديعة في مقال نشره في كتاب عن حياة لورد جورج بنتك ، يقول دزرائيلي :

« شعب الله يتعاون مع الكفرة الملحدين .. أمهر الناس في جمع المال يتحالفون مع الشيوعيين .. الجنس المختار يصافح يد الجنس الحقير من حثالات أوربا نعمل كل ذلك من أجل تحطيم المسيحية الناكرة للجميل ، والتي تدين لليهود حتى باسمها .. » (وقد اعترف اليهودي ماركس اياس في مقال نشر في يناير ١٩٢٨ بالتغلغل السري في الكنائس والمدارس المسيحية) وقال مخاطباً الكفار (غير اليهود من النصارى والمسلمين) :

إنكم تثيرون الضجة عن تغلغلنا في حياتكم العامة والخاصة .. ولكن ما قيمة ذلك حين تقارنونه بسلطتنا المذهلة في كنائسكم ومدارسكم وقوانينكم وحكوماتكم وتفكيركم وثقافتكم ؟

ولقد اتضح في المؤتمرات المسكونية التي عقدت أخيراً أثر هذا التغلغل .. حتى وقر في أذهان الغيورين من رجال الكنيسة أن اليوم الذي يجلس فيه يهودي على كرسي البابا في روما أوشك أن يكون قريباً ..

ولقد حاول اليهود ذلك قديماً مع الإسلام في حركة عبد الله ابن سبأ .. وحاولوا ذلك حديثاً بمجموعات كثيرة تظاهرت باعتناق الإسلام في دولة الخلافة العثمانية يسمون (الدونمة) وهم جماعة من اليهود تظاهروا باعتناق الإسلام وتغلغلوا في أعماق الدولة العثمانية واستطاعوا أن يصلوا إلى مراكز كبيرة في الجيش وفي أجهزة الدولة ، وأن يرفعوا شعارات قومية زائفة لإحياء الطورانية والانسلاخ عن المسلمين ورفض التراث الإسلامي العربي وصناعة زعامات وهمية تتلقى منهم التعاليم وتنفذ عنهم الخطط ويهدمون من أجلهم كل صالح ومقدس .

ويشير المؤلف إلى شخصية عرفت في التاريخ العثماني الحديث باسم : (مدحت باشا) .. هذا كشف فيه السلطان عبد الحميد شخصية يهودية ماسونية رغم التظاهر بالإسلام والغيرة على تعاليمه .

فقد حاول مدحت جر الدولة العثمانية إلى التبعية الأوربية وعمل على إنجاح نواب في مجلس المبعوثان (البرلمان) ظهر أنهم من المتظاهرين باعتناق الإسلام . ويضمرون عقائد يهودية .. كما اكتشف السلطان عبد الحميد تآمر مدحت واشتراكه في مؤامرة لقتل السلطان عبد العزيز .. ثم إصراره بعد ذلك على إخضاع دولة الخلافة خضوعاً كلياً للوصاية الأجنبية .

وقد حاول اليهود بعد ذلك شراء السلطان عبد الحميد في

تلك المقابلة الشهيرة بينه وبين هرتزل مؤسس الدولة لقاء توطين اليهود في أرض فلسطين المسلمة فقال السلطان : ـ

« إن أرض وطننا لا تباع بالدراهم .. إن بلادنا التي حصلنا على كل شبر منها بدماء أجدادنا لا يمكن أن نفرط في شبر منها دون أن نبذل أكثر مما بذلنا في الحفاظ على إسلامها وحريتها » .

وتقول بعض الروايات : إن السلطان عبد الحميد ركل هرتزل بقدمه بعد أن بصق في وجهه . !

ولم ينس اليهود ذلك للسلطان . فأثاروا ضده كل عناصر التخريب والهدم في الدولة .. الماسونية والدونمة والجمعيات السرية (الاتحاد والترقي) التي كان من نتاجها رجال مثل مصطفى كمال الذي حاول الإجهاز على الإسلام والمسلمين في دولة الخلافة .

ومنذ ذلك اليوم واليهود يعيثون فساداً في الأمة الإسلامية ، فالجمعيات الماسونية والجماعات السرية والتخريب والفتن التي شملت العالم الإسلامي والدعوات الهدامة والمخربة .. ومحنة الإسلام في الحبشة واريتريا والمذابح التي حلت بالمسلمين في زنجبار والفلبين وسقوط الأوطان الإسلامية في أيدي الاستعمار والمتآمرين وتسلط غير المسلمين على المسلمين ، وقتل الزعماء المجاهدين في نيجيريا وأمريكا .. وجنوب إفريقيا وتمزق باكستان وإيقاد نار العداوة والبغضاء بين المسلمين . كل ذلك من صنع اليهودية وعملائها والدائرين في فلكها والمخدوعين بنظرياتها وفلسفاتها .

ولقد سيطر التعصب الأعمى على نفوس اليهود ونما مع توالي الأجيال حتى أصبح طبيعة ثابتة في تكوينهم وقد عبروا عن هذا في التلمود وهو عندهم أقدس من التوراة ... حيث ذكروا : « أن أرواح اليهود تتميز عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله ، أما أرواح غير اليهود فهي أرواح شيطانية شبيهة بأرواح الحيوان » . ولهذا يزعمون أنه لن يدخل الجنة غير اليهود ، وأن النار مأوى جميع الشعوب ، ولهذا أصبح من مبادئهم المقدسة في التلمود . أنه يجب على كل يهودي أن يبذل جهده لمنع تملك باقي الأمم في الأرض لتبقى السلطة لليهود وحدهم .

وقبل أن يحكم اليهود نهائياً باقي الأمم يلزم أن تقوم الحرب على قدم وساق وأن يهلك ثلثا العالم وهم يعتبرون غيرهم من الشعوب حيوانات ويسمونهم أميين ، أما هم فملائكة .. بل : « هم عند الله أكثر من الملائكة ، فإذا ضرب أمي إسرائيلياً فكأنه ضرب العزة الإلهية ، ويستحق الموت ، ولولا خلق اليهود لزالت البركة من الأرض .. والأجانب كالكلاب والأعياد المقدسة لم تخلق للأجانب ولا للكلاب والكلب أفضل من الأجنبي ، إنه مصرح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب ، وليس له أن يطعم الأجنبي أو يعطيه لحماً ، بل يعطيه للكلب لأن الكلب أفضل منه ، وقد خلق الله الأجنبي في صورة إنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من أجلهم والسرقة من غير اليهودي لا تعتبر سرقة ، بل هي استرداد لأموال اليهود الذين خلقت الدنيا من أجلهم وخلق الله العالم لهم ، إن أموال غير اليهود مباحة لليهود كالأموال المتروكة أو رمال البحور إلى غير ذلك

مما تفيض به صفحات التلمود »[1] .

بهذه النظرة المقيتة ينظر اليهود إلى العالم .. انهم لن يستريحوا حتى تتحول الحضارة البشرية إلى أنقاض وخرائب ، وكل ما يهم اليهود أن يبقوا وحدهم متربعين في هذه الحياة ملوكاً وسادة .

لهذا كان الهدم وسيلتهم في سبيل هذه الغاية الخسيسة .. الهدم بالقنبلة والمدفع ، والهدم بالإباحية والإنحلال .. والهدم بالمذاهب والفلسفات التي تقوض كل بناء أخلاقي أو ديني في هذا العالم .

لقد كانوا وراء نظرية « دارون » التي تقول : إن المادة تتجه من البساطة إلى التركيب والتعقيد ، وأن الحياة لا تظهر إلا عند التركيب كما تظهر الخصائص الكيميائية من بعض العناصر عند امتزاجها ، ثم ينتهون من هذا إلى أن العقل الإلهي نفسه نشأ من المادة الموجودة منذ الأزل . فالمادة هي التي انتجت الروح ، والكون هو الذي خلق الله ، أو أن المخلوق هو الذي خلق خالقه ، وهذا أبعد ما يتخبط العقل في ظلماته ، أو هو نكسة للطبيعة البشرية ، فكيف تخلق المادة العمياء الله . ولا يخلق الله المادة العمياء ؟ ثم كيف يخلق النقص كمالاً ؟ ... والضعف قوة ، والمقيد مطلقاً ؟ والعدم وجوداً ، أليس هذا التخبط شبيهاً بقول القائل : إن الجواد يمتطي فارسه ، وأن الثور يذبح آكله ، وأن الفاكهة تأكل زارعها ؟ وأن الجنين يلد اباه وأن الرضيع يرعى أمه ويرضعها من ثديه ؟ وأي خيال يفوق هذا الخيال ؟ .

إن نظرية التطور لا تنفي وجود الخالق فإن : « والاس » شريك

---

(١) راجع الكنز المرصود في قواعد التلمود ، وإسرائيل والتلمود .

« دارون » في تأسيس هذا المذهب ، يؤمن بالله ويؤمن بوقوع المعجزات ، ويعلن أن ظواهر الانتخاب الطبيعي لا تنطبق على خلق الإنسان ، وبعض أشياع هذه النظرية من كبار العلماء يعتبرون بواعث هذا الانتخاب دليلاً على إبداع الخلاق العظيم وهو سنة من سننه الكونية المعجزة .

ودارون نفسه قال أكثر من مرة « إن وجود القدرة الإلهية أقرب الحلول إلى العقل عند النظر إلى قضية الوجود كله ، وإن كان هو لا يملك البرهان القاطع الذي يلزم به غيره ويحمله على التسليم به » ثم يذكر ان بقاء الأنواع ورغبتها في التوالد والتكاثر دليل قوي على أن عوامل الشر في الحياة لا تزيد عن عوامل الخير فيها ، وأن أسباب الإقبال على الوجود لا تقل عن أسباب الإعراض عنه والنقمة عليه ، على أن كثيرين من العلماء الباحثين يقررون أن هذا المذهب لا يزال مجرد نظرية لا ترتقي إلى الحقائق العلمية وأن فيه فجوات يسميها اتباع النظرية بالحلقات المفقودة ، ولا تزال مفقودة حتى الآن على الرغم من موالاة العلماء البحث عنها في أنحاء العالم أكثر من مائة عام .

* * *

وكانوا أي اليهود من وراء « الوجودية » التي يقرر زعيمها « سارتر » أن العالم لا وجود له في ذاته إلا بنا ، وليس وجودنا مشروطاً به ، فلولانا ما كان شيء ، ثم يقول : « إنني أنا الذي أخلق وجودي بنفسي ولنفسي . فالعالم الوحيد بالنسبة إليّ هو من صنع وعيي » . وتتجلى نظرته للإله فيما قاله على لسان أحد أبطال رواية « الذباب » : وكان عليك ألا تخلقني حراً وما أن خلقتني حتى

انفصلت عنك وتخليت عن نسبتي إليك ، فأنا لم أبق ملكاً لك وليس ثمة في السماء من خير أو شر أو من يصدر إليّ الأوامر ، لن أعود لأخضع لشرعك ، ولست محمولاً على الخضوع لغير شريعتي أنا لأنني إنسان ، وعلى كل إنسان أن يبتكر طريقته بنفسه .

وكما هاجم الوجوديون الدين ، هاجموا العقل أيضاً ، لأن العقل يقيد الحرية الذاتية ، ويحد من الانطلاق الذاتي ، ويقيد النزعات والأهواء وفي هذا يقول باسبرز : « إن الوجود معناه أن نعيش لا أن نعرف » ويقول ستستوف : « إذا أردت أن تكون وجودياً صادقاً فيجب أن تنبذ ظهرياً وجود الله واستعمال العقل لأن البواعث الإنسانية لن تزدهر معهما » وكما هاجموا الدين والعقل تمردوا كل التمرد على تقاليد المجتمع وما يفرضه من فضائل وما يدعو إليه من أخلاق مثالية وهم في هذا يناقضون « دور كايم » الذي دعا إلى إحلال سلطة المجتمع محل سلطة الإله بل هم لا يؤمنون بوجود أي مجتمع ، وفي هذا يقول بردباها : « إن المجتمع أضعف حيوان تسحقه بقدمك » فالمجتمع في نظرهم وهم خادع أو بناء مفكك منهار أو بحر تأكل أسماكه الكبيرة أسماكه الصغيرة .

والوجودي الحق عندهم لا ينبغي له أن يرتبط بأي نظام أو التزام نحو المجتمع وألا يقيم وزناً للقيم التي تربط الأفراد بالمجتمعات ويقرر مارسيل : « إن الناس آلات تمارس عن طريقها وجودنا ، إن الإندماج مع غيرنا هروب من المسؤولية التي هي إحدى المحاور الأساسية للوجود » .

* * *

وقد أعلن اليهود أنهم هم الذين روجوا لنظرية « فرويد » .. روجوا لهذه النظرية التي تشكك في كل عاطفة نبيلة ، وترجع كل شيء إلى الجنس والرذيلة .

إن أشهر مقولة في نظرية « فرويد » هي عقدة « اوديب » أو مركب « أوديب » .

وقد بني هذا المركب على القصة الإغريقية القديمة التي تنبأ فيها عراف من العرافين لملك مدينة طيبة بأن ولداً من أولاده سيقتله ويتزوج أمه . ثم ولدت زوجته أوديب وخافت أن يقتله أبوه الذي آمن بهذه النبوءة فهربته لدى أحد الرعاة إلى أن شب ثم اشتبك في قتال مع أناس كان فيهم أبوه فقتله ... ونصبه أهل طيبة ملكاً عليهم وتزوج أمه دون أن يعرف أنها أمه أو أنه قتل أباه .

وخرج فرويد من هذه القصة ليزعم أن الطفل الذكر يحب أمه ويبغض أباه لأنه ينافسه في حبها وكذلك الطفلة تحب أباها وتبغض أمها لأنها تنافسها في حبه .

ويرجع هذا التفسير عند فرويد إلى أن الغريزة الجنسية قوية عند الطفل والطفلة وأن من مظاهرها مص الثدي والأصبع والتغوط إذ يشعر الطفل في جميع هذه الحالات بلذة جنسية وذلك كله قبل البلوغ .

والعجيب عند فرويد أنه يرجع جميع الدوافع الغريزية إلى دافع غريزي أساسي هو الغريزة الجنسية بل طبقها بالنسبة للكبار على مظاهر الحياة الإجتماعية .

وهذا التعميم الجارف في إرجاع جميع الدوافع الغريزية إلى الغريزة الجنسية وحكم مذهب فرويد بأنه عبارة عن جنسية

شاملة . قد انتقده وليم مكدوجل في كتابه التحليل النفسي وعلم النفس الإجتماعي .

وقد نشر فرويد في سنة ١٩٢٧م كتاباً بعنوان : (مستقبل وصم) ... وذهب فيه إلى أن الدين ما هو إلا وهماً من الأوهام يستقي أصوله من رغبتنا في الرعاية السماوية التي نتصورها في الأب الحنون الذي يحل محل الأب الحقيقي ... إلا أن هذا لا يلبث أن يخيب آمالنا كلما شببنا عن الطوق وبلغنا مبلغ الرجولة .

وواضح أن هذا التفسير للدين استمده فرويد من العقيدة المسيحية التي تؤمن بالأب والابن وروح القدس . ولكن ماذا عن الديانات الكبرى التي لا تؤمن بهذه العقيدة كالإسلام ؟ بل ماذا عن البوذية والكونفوشية المجردة من أية الهيات . وتقتصر على سلوك الإنسان بل ان العقيدة الأساسية في البوذية أنها ترى السعادة في قتل الرغبات والغرائز وهو ما يسمى بالنرفانا للوصول إلى السعادة الحقيقية .

* * *

عندما كتب دستور الولايات المتحدة الأميركية ألقى الزعيم الأميركي بنيامين فرانكلين خطاباً مهماً في تلك المناسبة ، حذر فيه المواطنين الأميركيين من خبث اليهود وخطرهم على أميركا في المستقبل .

وفيما يلي نص الجزء الكامل من خطاب فرانكلين الخاص بخطر اليهود :

« هناك خطر كبير على الولايات المتحدة الأميركية .. وهذا الخطر هو اليهود » ...

أيها السادة :

في أي أرض يحل اليهود ، يصبح المستوى الخلقي منحطاً ، والمعاملات التجارية تجري بصورة غير شريفة .

« بقي اليهود منطوين على أنفسهم وظالمين في معاملاتهم مع الناس ... وحاولوا خنق مالية الدول مثلما جرى في البرازيل وإسبانيا » .

أيها السادة :

بكى اليهود مصيرهم المحزن منذ أكثر من ١٧٠٠ سنة بسبب طردهم من وطنهم الأم .. ولو أن العالم قدم فلسطين إلى اليهود ملكاً لهم فإنهم سيجدون أسباباً قوية لعدم العودة إليها ، لأنهم يبتزون الأموال ..... ولا يستطيعون العيش بعضهم مع بعض .. ولا بد لهم من العيش بين المسيحيين وغيرهم من الشعوب التي لا تنتمي إلى جنسهم .

« وإذا لم يطرد اليهود من الولايات المتحدة الأميركية بموجب نصوص الدستور ، فإنهم سيفدون على بلادنا خلال المئة عام القادمة بأعداد كبيرة تؤدي إلى أن يحكموا البلاد ويغيروا شكل حكومتنا ، وهي الأمور التي بذلنا نحن الأميركيين في سبيلها دماءنا ، وأرواحنا ، وممتلكاتنا ، وحياتنا الخصية .

« وإذا لم يطرد اليهود من بلادنا خلال مائتي عام ، فإن أطفالنا سوف يعملون في الحقول لإطعام اليهود ، بينما يقيم اليهود أنفسهم في قصورهم يفركون أيديهم فرحاً وسروراً .

« إنني أحذركم أيها السادة .. وأقول لكم إذا لم تخرجوا اليهود من أميركا إلى الأبد ، فإن أولادكم وأحفادكم سيلعنونكم في قبوركم .

« إن اليهود لا يتحلون بالمثل العليا التي نتحلى بها نحن الأميركيين ولو أنهم عاشوا بيننا طيلة عشرة أجيال ، إن الفهد لا يستطيع أن يغير لون جلده الأرقط ، إن اليهود يشكلون خطراً على أميركا ، إذا سمح لهم بدخولها وسوف يعرضون مقوماتنا الإجتماعية للخطر .. ولذلك يجب أن يخرجوا من بلادنا بموجب الدستور » .

وقد علقت مجلة التمدن الإسلامي في عدديها ٢٥ و ٢٦ المجلد ١٨ على خطاب الرئيس الأميركي بنيامين فرانكلين المذكور فقالت : ـ

.. وعندما قرأ معالي مصطفى الزرقا ـ وزير العدل السوري الأسبق ـ تعليق المجلة المذكورة .. كتب إلى صديقه السيد حسين القاضي ـ السعودي الجنسية ـ الذي يدرس في الولايات المتحدة الأميركية لمراجعة الترجمة العربية لخطاب الرئيس الأميركي المذكور . وتوجه السيد القاضي إلى معهد فرانكلين في مدينة فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأميركية لمراجعة ما طلب منه الأستاذ الزرقا ولدى مراجعته النسخة الأولى من أصل نسختين ، من خطاب الرئيس فرانكلين عجب لفقدان القسم الخاص باليهود من هذه النسخة ، فراجع مدير المعهد الذي ساعده على الرجوع إلى النسخة الثانية التي وجد فيها القسم المذكور عن اليهود في خطبة بنيامين فرانكلين . ومن الواضح أن مجرماً ، لا شك أنه يهودي ، قد أقدم على جريمة سرقة هذا القسم من النسخة

الأولى بقصد تشويه الخطاب .

ونتيجة لهذه السرقة اتخذ المعهد المذكور الاحتياطات اللازمة للمحافظة على النسخة الثانية التي تحتوي على القسم الخاص باليهود في خطاب الرئيس فرانكلين .

إن الرئيس الأميركي بنيامين فرانكلين تكهن ، منذ ١٥٠ سنة عن أشياء أصبحت اليوم حقيقة واقعة . ولكن يظهر أن الأميركيين لا يريدون أن يتعظوا ... ويستفيدوا بنصيحة رئيسهم التاريخي ... ولكن لا بد وأن يزول الخطر اليهودي عن العالم أجمع ، يوماً ما ، نرجو أن يكون قريباً .

الرِّسَالَة المحمَّدِيَّة

كان للمرحوم الأستاذ العقاد باع طويل في البحث والتقصي ...
وكان رحمه الله نهماً لكل أنواع المعرفة ، دؤوباً في كشف الأسباب والعلل واستنباط الحقائق والنتائج . حتى انه ليقرأ في مسألة واحدة أكثر من مائة كتاب في أكثر من لغة ..

وفي كتابه « مطلع النور » يكشف لنا الأستاذ العقاد خفايا هذه المرحلة السابقة للبعثة النبوية حتى ليحس القارئ أنه يعيش بنفسه هذه المرحلة ، ويصطدم بما كان فيها من نحل وعقائد زائفة .. ويرى من خلال ظلماتها الكثيفة تباشير فجر تتألق أنواره الباهرة ...

يقول الأستاذ العقاد نقلاً عن كتاب ألفه « باحث هندي » أن اسم الرسول العربي (أحمد) مكتوب بلفظه العربي في « السامافيدا » من كتب البراهمة وقد ورد في الفقرة السادسة ، والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ونصها :

« إن أحمد تلقى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس ... »

ولا يخفي المؤرخ الاعتراضات التي قد تأتي من جانب المفسرين البرهميين بل ينقل عن أحدهم « سينا أشاريا » أنه وقف عند كلمة « أحمد » فالتمس لها معنى هندياً وحاول أن يجعلها تفيد معنى آخر غير معناها الحقيقي . ولكن « الباحث الهندي » يعقب عليه

تاريخياً وبالأدلة نفسها التي يستند إليها مما يسقط الاعتراض لتبقى هذه الكلمة كما هي دليلاً على قدوم نبي يسمى « أحمد » ...

ويقول « الباحث الهندي » إن وصف الكعبة المعظمة ثابت في كتاب ... « الآثار فازفيدا » حيث تسمى في هذا الكتاب « بيت الملائكة » ويذكر من أوصافه أنه ذو جوانب ثمانية ، وذو أبواب تسعة .. ولا ينسى الباحث أن يسمي هذه الأبواب بالأسماء المعروفة للكعبة . أما الجوانب الثامنة التي ذكرت في الوصف البرهمي فإن المؤلف يحاول نسبتها إلى أسماء الجبال المحيطة بالكعبة .

وفي جانب آخر يقول الأستاذ العقاد إن قدرة « الباحث » في استيعاب هذه الحقائق كان نتيجة لمعرفته الواسعة بلغات الحضارات القديمة ، الفارسية والهندية والعربية . ومن ثم .. فإنه لا يقف في بحثه هذا عند جانب واحد من جوانب المعرفة الخاصة بالتراث الهندي . بل يتجاوز ذلك إلى آفاق جديدة من العلوم والمعرفة في التراث الفارسي ... وللمؤلف صبر طويل على توفيق هذه العلاقات وأشباهها يستخرج منها الطالع بعد الطالع والنبوءة إلى جانب النبوءة .

ففي كتاب « زندافستا » المنسوب إلى « زرادشت » نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين « سوشياتت » ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية « أبا لهب » ويدعو إلى إله واحد لا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون . وبالطبع فإن هذه الصفات هي الصفات نفسها التي جاء بها القرآن وأعلنها النبي محمد صلى الله عليه وسلم ..

إن تلك النبوءات لا تترك مجالاً لمتشكك في أن المقصود بها هو

النبي العربي محمد صلوات الله وسلامه عليه فهي من الظهور والوضوح بحيث لا تحتاج لمزيد من البيان والأدلة . لأنها تنطبق تمام الانطباق على « محمد » رسول الله بالاسم واللفظ والصفة وإذا كانت هذه النبوءات قديمة قدم أصحاب هذه الديانات والمذاهب . وإذا كان عمر بعضها يتجاوز ألوف السنين عداً وعدداً . فماذا يمكن أن يقال عن غيرها في الكتب والأسفار الأخرى .. ؟ في الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية كلمات تقول :

جاء الرب من سيناء .. وأشرق لهم من سعير .. وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم .

يقول المؤرخ جيروم واللاهوتي يوسيبيوس :

إن فاران بلد عند بلاد العرب . وجاء في الترجمة السامرية للتوراة والتي صدرت عام ١٨٥١ « ان اسماعيل سكن برية » (فاران بالحجاز) فأين هي « فاران » ؟

ومن هذا الذي تلألأ فيها بنور الهداية والإيمان ؟

فاران بالحجاز .. إنها مكة .. والمتلألئ فيها بالهداية والنبوة هو محمد .. وقد جاء في الباب الرابع عشر من انجيل يوحنا : إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ... وأنا أطلب من الأب فيعطيكم « فارقليط » آخر ليثبت معكم إلى الأبد ..

والفارقليط هو روح القدس الذي يرسله الأب باسمي .. هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم ما قلته ...

وفي الباب السادس عشر من الإنجيل نفسه يقول المسيح عليه السلام :

« لكن أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق لأني إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فأما إن انطلقت أرسلته إليكم وإذا جاء روح الحق ذاك فهو يعلمكم جميع الحق لأنه لا ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي وهو يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم » .

وفي سفر « أشعيا » يتحدث عن نبي « يرفع راية الأمم من أقصى الأرض فإذا هم بالعجلة يأتون لا ينعسون ولا ينامون .. ولا تنحل حزم حقائبهم . ولا تنقطع سيور أحذيتهم » . فمن هو هذا النبي الذي يدعو الناس كافة إلى الله . ويرفع راية الأمم من بعيد ؟ ويأتيه أناس من أقصى الأرض ؟ (وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) كما يقول القرآن .

إنها نبوءة عن نبي من غير أرض فلسطين .. ولا نصدق هذه النبوءة إلا على محمد يقول كريستوفر ديفيز أستاذ علم مقارنة الأديان :

كل هذه النبوءات بمعانيها وأوصافها وملابساتها لا تنطبق إلا على النبي العربي محمد بن عبد الله ..

أما إنجيل « برنابا » الذي لا يعترف به الاكليروس فقد تكلم بصراحة عن « المسيا » الذي بشر به المسيح هذا الإنجيل أولاً عثر عليه في مكتبة « ليدن » ونقل منها إلى المتحف البريطاني ثم ترجم إلى العربية في فصول لمجلة المنار التي كانت تصدر في مصر بقلم المرحوم السيد رشيد رضا .

إن هذا الإنجيل يتكلم بصراحة واضحة ، ويتحدث عن رسول الله مباشرة دون غموض والجموع التي كانت تستمع إلى المسيح

وهو يبشر بمقدمه تهتف صارخة من أعماق . أعماق إيمانها ...
يا محمد ... تعال سريعاً لخلاص العالم ...

* * *

لقد كان الأستاذ العلامة « سليمان الندوي » من القمم الإسلامية التي أضاءت أنوار معرفتها سماء الإسلام في كل من باكستان والهند .

إنه الرجل الذي اختارته الهند الإسلامية لمخاطبة العالم الإسلامي في مؤتمرات كثيرة ، فهو الذي رأس وفد الخلافة في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في مكة المكرمة ١٣٤٦ هـ وكان أحد أعضاء الوفد الإسلامي الذي سافر إلى لندن وأوربا لإعلان كلمة المسلمين في القضايا الوطنية . وكان واحداً من كبار المفكرين الذين اختارهم ملك أفغانستان الأسبق نادرشاه لتأسيس جامعة إسلامية ..

له مصنفات علمية نافعة سارت سير الشمس ومن أهمها ـ العرب والهند ـ سيرة عائشة ـ خطبات مدارس ـ أرض القرآن ـ وقد بلغ في هذه المواضيع المختلفة من الإجادة والتحقيق ما لم يبلغه أحد من معاصريه في بلاد الهند . ففي كتابه « أرض القرآن » تناول بالتحقيق والبحث جميع البلاد والأمم المذكورة في القرآن ، وأحاط بتاريخهم وجغرافية بلادهم التي كانوا يقطنونها ، وهذا الموضوع بكر لم يسبقه إليه أحد من المؤرخين وأرباب الفكر ..

ومن أبرز أعماله العلمية وأرفعها ذكراً إكماله لكتاب « سيرة النبي » الذي كان بدأ بتأليفه أستاذه العلامة المحقق « شبلي النعماني » وهذا الكتاب يعتبر دائرة معارف في السيرة النبوية وقد نشرت منه ستة مجلدات ضخمة لا يقل كل واحد منها عن سبعمائة صفحة من القطع الكبير ، وهذا الكتاب يعتبر من عيون ما ألفه

العلماء المسلمون منذ قرون . ومن غرر ما أهداه علماء الهند إلى المكتبة الإسلامية العامة . وقد أثبت المؤلف في هذا الكتاب بما لا مجال بعده للشك إمكان المعجزات وعدم معارضة العلوم العقلية لها . وقد اهتدى بها كثير من المنخدعين بعلوم الافرنج وضلالاتهم .

في القسم الأول من هذا الكتاب يتحدث المؤلف عن الصفوة المختارة من البشر .. هؤلاء الذين يحكمون القلوب بالمحبة .. من يكونون ؟ فلاسفة ؟ ملوك وفاتحون لا .. لا لقد خابت آمال البشرية في كل عطاء لا يباركه الله . في كل إنسان مقفر من فيوض القلب في كل عقل غريب عن الروح ..

إن يد الأيام قد عبثت « بالراجا أشوكا » ملك « باتلي ياتر » عبثت ولم تبق يد البلى من أوامره وأحكامه إلا صخوراً منقوشة وحجارة ميتة .. إن أوامر ملوك « اجين وهستابور » في دهلي وقنوج أمست أثراً بعد عين .

والملك « حمورابي » من ملوك بابل كان أول من سن القوانين ولكن أين هي أوامره وأحكامه ؟

لقد نسج عليها العنكبوت من زمان طويل ، أما تعاليم النبي ابراهيم فما تزال حية في قلوب المؤمنين .

وأين فرعون ودعواه أنا ربكم الأعلى ؟ لقد أصبحت أضحوكة .. أما نبي الله موسى فإنه يسود القلوب . والقانون الروماني الذي اعتبر عيسى عليه السلام جانياً خارجاً على القانون ؟ لقد خلت عليه القرون تسفيه برياحها .

أما عيسى عليه السلام فلا تزال تعاليمه نوراً في ظلمات الخطوب . وأين أبو جهل ؟ وكسرى الفرس ؟ وقيصر الروم ؟ .. كل أولئك

قد طوى الدهر صحائفهم وذهبت جميعاً أدراج الرياح . أما محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإن حكمه ما زال ولن يزال باقياً على الدهر وأوامره نافذة وسننه متبعة في كل زمان وفي كل مكان ..

لقد عاشت تعاليم الأنبياء لأنهم كانوا قدوة وكانت حياتهم وقفاً على تجسيد تعاليمهم في الفرد والمجتمع والأسرة ، وكان رسولنا محمد صلوات الله عليه هو المثل الأعلى لهذه الحقيقة .

لكن لماذا محمد بالذات هو النبي المختار للاتباع والأسوة ؟ لماذا كان النبي العربي صلى الله عليه وسلم هو وحده المرشح للقيادة ؟

ذلك .. لأنه من أجل أن تقتدي بإنسان فلا بد وأن تعرف كل شيء يتصل بهذا الإنسان . كيف نشأ ؟ وكيف عاش ؟ طريقته في الحياة أسلوبه في العمل .. نظرته إلى الناس . إيمانه بالدعوة .. وسيلته في التطبيق ، حياته الخاصة . أحواله في البيت والأسرة . سياسته في الحكم والحرب والسلام ..

كم نبي عرف عنه كل ذلك ؟ إنه محمد وحده .

لكن .. لماذا ؟

يقول المؤلف :

إن موسى عليه السلام لا نعلم عن حياته حسب الأسفار الخمسة من التوراة إلا قتاله وقيادته في الحرب . أما النواحي الأخرى من حياته كالحقوق في أمور الدنيا ، والفرائض والواجبات فلا نكاد نعرف عنها إلا القليل النادر ... ومن يحاول أن يقف على ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين الزوج وزوجه ، والوالد وولده . وشروط الصداقة بين الصديقين وشروط الهدنة بين المتحاربين وكيف ينفق المرء أمواله وكيف يعامل الفقراء واليتامى ... ومن يحاول أن يعرف

شيئاً من كل ذلك ، فلن يعرف شيئاً .. مع أن موسى كان زوجاً وأخاً وكان له أقارب . وكان نبياً من أولي العزم . وعاش مائة وعشرين سنة ...

وعيسى عليه السلام الذي يبلغ اتباعه قرابة ألف مليون في العالم ؟ لقد بذل العلامة الفرنسي « رينان » قصارى جهده ليقف على حياته كاملة . ومع كل ذلك لا تزال هذه الحياة سراً مكنوناً في ضمير الزمن لم يبح به بعد ..

إن عيسى عليه السلام عاش في هذه الدنيا ثلاثاً وثلاثين سنة كما يقول الإنجيل وكل ما ذكر عن حياته في هذه الأناجيل لا يكاد يتجاوز السنوات الثلاث الأخيرة من حياته فنحن لا نعرف عن حياته إلا أنه ولد . وهاجر وأمه إلى مصر وأراه الله آية أو آيتين في صباه ثم غاب عن الناس وظهر لهم وهو في الثلاثين من عمره ، فتراه قائماً يعظ الملاحين وصيادي الأسماك على الشواطئ وفي بعض الربوات . فصحبه جماعة من الحواريين وحاور اليهود وناظرهم في بعض الأحيان حتى أثاروا عليه الرومان ، ورفع أمره إلى محكمة يرأسها قاض من الروم فقضى عليه بالصلب ، وبعد ثلاثة أيام وجد قبره خالياً من جسده عليه السلام .

هذا ما تقوله الأناجيل عن حياته . ولكن أين قضى عيسى الثلاثين أو الخمس والعشرين سنة على الأقل من حياته ؟ وفيم قضاها ؟ وبأي الأعمال شغل هذا الفراغ الواسع من عمره ؟ إن الدنيا لا تعلم عن كل ذلك شيئاً ولن نعلم ، والثلاث السنوات الأخيرة من حياته ماذا نعرف عنها : آيات ومعجزات معدودات ، وبعض العظات . ثم المحاكمة .. ورفعه بعد ذلك إلى السماء ..

لقد ألقى « باسورث سميث » عضو كلية التثليث في جامعة اكسفورد ١٩٤٧ محاضرات عن « محمد » والإسلام نقتطف منها هذه العبارات :

نحن لا نعلم من حياة « يسوع » إلا شذرات تتناول جانباً صغيراً من حياته المتنوعة ومن ذا الذي يستطيع أن يكشف لنا الستار عن شؤون ثلاثين عاماً هي تمهيد للثلاثة أعوام الأخيرة من حياته فقط .. وما الذي نعلمه عن أمه ؟ وعن حياته في بيته ؟ وما الذي نعلمه عن أصحابه الأولين ؟ وعن حواريه وكيف كان يعاملهم ؟ وكيف تدرجت رسالته في الظهور ؟ وكيف فاجأ الناس بدعوته وكم ؟ وكم من أسئلة تجيش في نفوسنا ولن يستطيع أحد أن يجيب عليها إلى يوم القيامة ؟ .

ويقول سميث :

أما الإسلام فأمره واضح كله ، ليس فيه سر مكتوم عن أحد وليس في حياة نبيه غموض لم يكشف ولا تجد فيما كتب عنه أموراً مبهمة ، ولا أساطير ولا خرافات . والأمر كله واضح وضوح النهار كأنه الشمس يرى الناس تحت أشعة نورها كل شيء ..

وقد كتب جون ديوي يورت سنة ١٨٧٠ كتاباً بالانجليزية في سيرة النبي جعل عنوانه « اعتذار إلى محمد والقرآن » .

يقول في مقدمة هذا الكتاب :

لا ريب أنه لا يوجد في الفاتحين والمشرعين من يعرف الناس حياته ، وأحواله أكثر تفصيلاً وأشمل بياناً مما يعرفون من سيرة محمد « صلى الله عليه وآله وسلم » وأحواله .

يقول العلامة سليمان الندوي : كان الواعظ الذائع الصيت

الأستاذ حسن علي ـ رحمه الله ـ يصدر في (Betnah) قبل خمسين عاماً مجلة نور الإسلام . وقد قال في جزء منها :

إن صديقاً له من البراهمة قال له :

إني أرى رسول الإسلام أعظم رجال العالم وأكملهم . فقال له الأستاذ حسن علي وبماذا كان رسول الله عندك أكمل رجال العالم ؟ فقال الرجل الهندوسي : لأني أرى فيه خصالاً لم تجتمع كلها في رجل واحد وفي آن واحد .. وبهذا الكمال والرقي ، والرفعة والسمو ..

لقد كان محمد ملكاً دانت له أوطانه بالطاعة ومع ذلك فهو متواضع في نفسه يرى أنه لا يملك من الأمر شيئاً . وأن الأمر كله بيد ربه .. وتراه في غنى عظيم تأتيه الأموال بالخزائن إلى عاصمة ملكه ويبقى مع ذلك محتاجاً ولا توقد في بيته نار لطهي الطعام ولعدة أيام . وكثيراً ما يطوى على الجوع : ونراه قائداً عظيماً يقود الجند القليل العدد فيقاتل بهم ألوفاً من الجند المدجج بالسلاح ويهزمهم شر هزيمة ، ونشاهده بطلاً شجاعاً يصمد وحده لآلاف من أعدائه غير مكترث بهم ، وهو مع ذلك رقيق القلب متعفف عن إراقة قطرة دم . ونراه مشغولاً بجزيرة العرب كلها بينما لا يفوته أمر من أمور بيته وأزواجه وأولاده . ولا أمر من أمور فقراء المسلمين ومساكينهم ، لقد كان إنساناً يهمه أمر العالم كله وهو مع ذلك متبتل إلى الله منقطع عن الدنيا فهو في الدنيا وليس فيها لأن قلبه لا يتعلق إلا بالله وبما يرضي الله . لم ينتقم من أحد قط لذات نفسه ، وكان يدعو لعدوه بالخير . وتراه رسولاً حصيفاً ونبياً معصوماً في الساعة التي تتصوره فيها فاتحاً للبلاد ظافراً بالأمم

وإنه ليضطجع على حصير له من خوص ، وينام على وسادة حشوها ليف .. ويعيش أهل بيته في فاقة في الوقت الذي تتجمع فيه الغنائم العظيمة في فناء مسجده ـ فيفرقها على الفقراء والمحتاجين ولا ينال أحد من أهله أو أهل بيته نصف درهم . فإذا كانت شخصية الرسول العربي هي الشخصية النموذجية الكاملة ، وكان ـ بحياته وأقواله وأعماله ـ مثالاً يحتذى به في كل خطوة . فأين تقف رسالته من هذا الشمول الجامع ؟ وما هي أبعادها الفكرية والعقدية في هذا العالم المتصارع .. ؟ يقول المرحوم العلامة سليمان الندوي :

لقد توزعت الدنيا ـ قبل بعثة النبي ـ عقائد باطلة . وأوهام سخيفة . كان أهل كل دين في أية مملكة من الممالك يحسبون أن مملكتهم هي الدنيا فقط .. فكان براهمية الهند ومتصوفوها يرون أن بلادهم هي أرض الله المختارة وما خرج عنها فلا نصيب له من رحمة الله .. وكذلك قال « زرادشت » الذي أعلن أن بلاده هي المقدسة دون غيرها من أرض الله . وكذلك قال بنو إسرائيل فهم أساتذة هذا النوع من الإدعاء والافتراء والزعم ..

والمسيح عليه السلام أعلن أنه لم يرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة .. وقد جاء في الاصحاح السابع من إنجيل مرقس أن امرأة بابنتها روح نجس سمعت به (أي المسيح) فأتت وخرت عند قدميه وكانت المرأة أممية أي من أبناء الأمم غير الإسرائيلية . فسألته أن ـ يخرج الشيطان من ابنتها وأما يسوع فقال لها : دعي البنين أولاً يشبعون لأنه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب . فأجابت وقالت . يا سيد ، والكلاب أيضاً تحت المائدة

تأكل فتات البنين فقال لها : لأجل هذه الكلمة . اذهبي قد خرج الشيطان من ابنتك ..

كانت دعوته عليه السلام إلى بني إسرائيل .. وإلى خرافهم الضالة وفي حديثه مع المرأة الغير إسرائيلية يقرران (الخبز) الذي يحمله إنما هو للبنين (الإسرائيليين) أولاً .. وإنه لا ينبغي أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب ..

ويقول العلامة سليمان الندوي :

إن من أكبر الجرائم التي اقترفتها الأمم ، ولا تزال باقية في بلاد لم تشرق عليها أنوار الإسلام . إنهم جعلوا ثراء المال . ونقاء الدم وشرف النسب . ولون البشرة أساس الكرامة وسنوا لذلك من القوانين والشرائع ما يجسد هذه العنصرية البغيضة حسب أهوائهم ومذاهبهم .

في الهند يعتبر الهنادك كل من عداهم انجاساً مناكيد ، فإن لمسهم لامس من غيرهم أو صافحهم وجب عليهم أن يغتسلوا ويتطهروا من هذا الأجنبي الذي يعتبر في نظرهم رجساً وقذارة .

وبنو إسرائيل يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباءه وما عداهم من الأمم فهم خدم لهم وعبيد وأوربا التي ترفع راية الاخاء والتقدم والحضارة تنظر إلى العالم الآخر في إفريقيا وآسيا نفس هذه النظرة ، فالأبيض هو وحده المثقف ، وهو وحده الإنسان المتقدم بل إن بعض البيض يترفع عن الركوب في قطار يشاركه فيه رجل ملون . وقد عزلوا الجنس الأسود في إفريقيا الجنوبية وأمريكا المتحضرة . فبنوا لهم أحياء منعزلة عن البيض ، ولم تنحصر هذه التفرقة في الأمور الدنيوية فقط بل تجاوزت ذلك كله إلى دور العبادة فبنوا

للبيض كنائس خاصة منفصلة عن كنائس الملونين والسود[1] ..

أما الإسلام فقد محا هذه الفوارق والعصبيات كلها وسوى بين بني آدم كلهم . وهدم أسوار التفرقة بين الناس من ثراء المال ، ولون البشرة ، وعراقة النسب .. فالناس سواسية كأسنان المشط كلهم من بني آدم وآدم من تراب . فلا فضل لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى وطاعة الله .

في غزوة بدر سقط أبو جهل رمز النقائص البشرية الذميمة . ونظر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة برجل يضع قدمه على صدره ، ويتأمل أبو جهل في وجه هذا الرجل فيجده عبد الله بن مسعود فتتحشرج الكلمات في حلق أبي جهل وهو يصرخ . عبد الله بن مسعود رويعي الغنم . لقد استكثر أبو جهل كلمة راعي فصغرها وقال رويعي . لقد ارتقيت مرتقى صعباً أي عالياً .. ورفيعاً . فمن الذي رفعك ؟ فيقول عبد الله : إنه الإسلام يا عدو الله يرفع الله به أقواماً ويرغم به أنوف آخرين . وفي خلافة عمر يستأذن رجلان في الدخول عليه .. بلال العبد الحبشي وأبو سفيان الزعيم القرشي . فيأذن عمر لبلال في الدخول أولاً .. ويقف أبو سفيان على الباب مغيظاً . حتى إذا أذن له عمر قال له معاتباً : تسمح لبلال العبد .. وتترك أبا سفيان السيد ؟ فيقول عمر : كان ذلك في الجاهلية شريعة هبل واللات .. أما في الإسلام فالأمر يختلف يا أبا سفيان .

لقد سبقك بلال إلى الإيمان .. وهذا هو الميزان الذي يقوم به الإنسان أي إنسان ..

---

(١) انظر الفصل الخاص بنشأة الرق وتطوره من هذا الكتاب .

لقاء الفلاسفة

في صبيحة الأربعاء ١٧ من ابريل ١٩٣٥ ، جمعت الصدفة الطيبة بين الشيخ عبد العليم الصديقي رحمه الله والكاتب الإيرلندي الشهير جورج برنارد شو ، وكان لقاؤهما في منزل حاكم ممباسا ، فدار بينهما هذا الحوار الذي ننشره معرباً عن الانجليزية :

شو : يؤسفني أن ارتباطاً سابقاً قعد بي عن شهود محاضرتك البارحة وقد كنت بالغ الحرص على حضورها . دار حديثك حول فلسفة السلام وقد كان الأجدر بك ما دمت مسلماً لو تحدثت عن فلسفة الحرب لأن الإسلام إنما انتشر بحد السيف .

الشيخ : هذا سوء فهم شائع للإسلام وقد تناولت تلك المسألة بالبحث في حديثي البارحة . وإني لأعجب حقاً كيف يتسنى لأسطورة كهذه ثبت بطلانها وانكشف أن تنال حظاً عند عالم في مقامك ومهما يكن فدعني أخبرك أن كلمة (الإسلام) ذاتها مشتقة من (السلام) . وقد حفظ لنا في القرآن والسنة سجل ثابت لتعاليم الإسلام في صفائها الفطري ، وهي تقرر بما لا يدع مجالاً للريب .. إن الإسلام لا يبيح استعمال السيف إلا في وجه

العدوان السافر الذي يلجئه إلى أن يدفع عن نفسه .
والقرآن يقرر أن (لا إكراه في الدين) مما يحرم بوضوح استعمال القهر والقسر في شؤون الدين ، ويجعل الحجة والبرهان هما طريق الدعوة فيقول : (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) .

والأسلوب الذي يرشد إليه الإسلام في سبيل نشر دعوته والذي أدى في الماضي والحاضر إلى أن يتقبله عقلاء الناس وأن يبلغ أرجاء العالم تتضمنه هذه الآية : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) .

وعلى العكس من ذلك يشهد التاريخ بأن عقيدة اتحاد المسيح والأب إنما أعلنها مجلس « نيس » الذي دعا إليه قسطنطين في بثيانا في عام ٣٢٥ بعد الميلاد . ومن أجل التمكين للإيمان بألوهية المسيح اتبع سبيلاً مفرطاً في البشاعة منافياً للإنسانية سفكت فيه دماء الألوف من الأبرياء الذين أنكروا تلك العقيدة . وقد جرى ذلك لا في أوربا وحدها بل في بيت المقدس الطاهر . ولكن رغم ذلك لا أرد مغبة هذا كله إلى المسيحية الحقة بل يقع عبء اللوم كله على ممثلي الكنيسة الذين أرادوا أن ينطبع مجدهم وسلطانهم في قلوب الناس وأن تستقر سلطتهم الدينية .

وكذلك نرى أن الحروب الصليبية الدامية تمخضت عن التدبير الميكافيلي النفعي لفئات من القساوسة حين

أدركوا أن دعوة الإسلام الخالصة إلى وحدانية الله تقوم حجر عثرة في طريقهم وأن سلطتهم الدينية المبتدعة في خطر من ذلك فشنوا حملة فاجرة في وجه الإسلام والمسلمين وحرضوا أوربا ـ وقد كانت غِرة في تلك العصور المظلمة ـ أن تشن الحروب التي زعموها مقدسة ضد الإسلام والمسلمين وذلك بأن أشاعوا خرافات موغلة في الوهم من فتك المسلمين بالمسيحيين وتحدثت عن كفر المسلمين وانهم أعداء ألداء للدين والمال والنفس .

وهب أن بعضاً من حكام المسلمين وقبائلهم ـ بعد عهد طويل من ظهور الإسلام ـ قد دفعتهم شهوة الفتح إلى الاعتداء واطلاق دواعي الحرب ابتغاء الكبرياء في الأرض .. لو سلمنا بذلك جدلاً ، فإنه ليس يحق لنا إلا أن ندين أولئك الأفراد على جرائمهم تلك ، ولا ينال الإسلام شيء من ذلك بالطبع .

شو : لا شك أن المعتصبين في الكنيسة الرومانية ينالهم نصيب وافر من المسؤولية عن تلك الحوادث الأليمة ، ولا شك أن تعاليم المسيح الصافية لا شأن لها بوقوع ذلك . وقد نقر أيضاً سيادة كثير من ضروب الفهم الواهم للإسلام ، وإنه طالما صور بوجه خاطئ لكن هل توافقك الجماهير المسلمة على تفكيرك ؟ وهل يعتقد هؤلاء أن الإسلام لم يسبق له أن انتشر بالقهر وما ينبغي له ذلك ؟

الشيخ : إن كل مسلم ملزم بالأخذ بهذا القول ، فهو ما يقرره

القرآن على وجه التحقيق ، ولا دخل فيه لتصوراتي وآرائي الخاصة ، وقد نشرت في ذلك كتب كثيرة ، وتناوله باستفاضة جملة من علماء الدين الإسلامي طرقوا سائر جوانبه ومن بينهم السيد أمير علي والسيد أحمد خان والعلامة الشبلي ..

شو : لا يغيب عني أن بين الإسلام والمسيحية تلاقياً ملحوظاً ..

الشيخ : ولا يقتصر ذلك التوافق على الإعراض والأسماء بل إن الإسلام يعلن صراحة أنه ما دام وجود الله هو غاية كل دين ومصدره فإن وحدة حقيقة الأديان أمر محتوم . لقد ساد تصور الإسلام على أنه دين جديد ، مع أن القرآن نفسه يعلن أن دعوته الدينية ليست إلا ذات الدعوة التي دعا إليها الرسل السابقون من إبراهيم إلى عيسى ، صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً . فقد بعثهم الله جميعاً لينشروا نفس المبادئ وما كانت بعثة خاتم الرسل إلا لأن الرسالات السابقة قد بدلت وامتد إلى جوهرها الفساد ودخل في أصولها الوضع فجاء الرسول مصدقاً لما بين يديه ومعززاً ومكملاً لتلك الرسالات الخالدة وقد أشار القرآن إلى ذلك إشارة جلية حيث قال : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

شو : إن تراجم القرآن التي اطلعت عليها تصدق كل ما جاء في حديثك وتروق لي كثيراً من بين هذه التراجم واحدة

تنهج في ترتيب السور منهجاً مستقلاً وقد كانت تلك الترجمة لا تكاد تفارقني أبداً إبان رحلتي في المغرب والجزائر وكانت إشاراتي العابرة لمضمونها مبعث كثير من المتعة والانشراح لمسلمي تلك البلاد . وقد أوصيت بعض الناشرين بنشر تلك الترجمة على نطاق واسع .

الشيخ : لعلك تشير إلى ترجمة المستر رودهل ..

شو : نعم .

الشيخ : لا ريب أن المستر رودهل قد بذل كل طاقته واستنفد جهده في ترجمة سور القرآن حسب ترتيبها الزمني ، لكن بضاعته من الأدب العربي والتاريخ الإسلامي لم تكن من اتساع الساحة وبعد الغور بما يجنبه الخطل ، فجاء كثير من عباراته مجانباً للقصد ممعناً في الوهم . ولا أرد ذلك بالطبع إلى سوء النية بل لما ذكرت من قصور معرفته .

وأود أن أقترح عليك ـ في هذا الصدد ـ ترجمة معاني القرآن للمستر بكتهول وإني واثق أن الاطلاع عليها سيمكنك من تذوق جمال القرآن الرائع وحكمته النافذة وتلمس أسلوبه في سوق الكلام وطيب وقعه في النفوس . ولا أقول لك أنك واجد في تلك الترجمة صورة صادقة للأصل فجدير بكاتب مرموق مثلك أن يقدر أنه ما يكون لمترجم ـ مهما علا كعبه ـ أن ينقل كتاباتك إلى لغة أخرى دون أن يسلبها كثيراً من الروعة والتوقد .

شو : حقاً أن روح الكلام لا يتسنى أداؤها عند ترجمته للغة أخرى ولم تنج من ذلك تراجم الإنجيل ولكنها قد بلغت شأواً بعيداً نحو الكمال وما تنفك الجهود مبذولة لتحسينها.

الشيخ : مهما بلغت تراجم الإنجيل من مراتب الكمال من حيث الأداء اللغوي فلا سبيل للجزم بأنها تحتوي على الرسالة المسيحية الحقة ، أو أنها روايات صادقة لإرشادات المسيح ولا يخفى عليك أن رسالة المسيح في صفائها المنقى وكما بلغها بنفسه لم يبق لها أثر . وقد أدت التراجم المتتالية للإنجيل مع ضياع أصله الأول إلى تخليط مسرف لا يجد الباحث عن الحقيقة في حياضه ما يشفي ظمأ ، بينما حفظ القرآن بوجه لم يحدث معه أدنى تبديل في أصغر حرف أو شكل ـ ويبدو ـ لذلك ـ أن الراغب في تعرف المسيحية الحقة لا يجدها إلا بالنظر في القرآن .

شو : هل سلم القرآن حقاً من كل تغيير ؟ وهل وصل إلينا قطعاً في صورته الأولى ؟ أكان محمد يعرف الكتابة ؟ وهل بقي شيء من خط يده ؟

الشيخ : إن لدينا سجلاً لا يعتريه نقص ولا يتطرق إليه شك بكل سورة بل كل آية وكلمة وردت في القرآن . وقد كان للرسول كتاب اتخذهم لتسجيل القرآن . وكانت سنته حالما يوحى إليه بآية أو أكثر أن يبعث إلى هؤلاء ويملي عليهم ما نزل عليه ثم يستقرئهم ما كتبوا حتى يسمعه ويستوثق منه وبعدئذ يشرح لهم معانيه .

وبين أيدينا وثائق بخط زيد بن ثابت ـ أوثق كتاب

القرآن وأجلهم ـ محفوظة بأكملها في مستودعات الوثائق بالقسطنطينية ومكة . وتتفق مع هذا الأصل الثابت كل طبعات القرآن في العالم فلا تجد في نسخ القرآن من تفاوت ولا أدنى نقطة أو حرف أو علامة وقف .

شو : ماذا ؟ أتزعم أن في نصوص القرآن علامات للوقف ؟

الشيخ : بلى . لكن لا كما نعهد من علامات الوقف المختلفة في اللغة الانجليزية ففي القرآن مثلاً مواضع للوقف اللازم أو الجائز ويجهر بأواخر الكلمات أو يخفت بها في موضع دون آخر وهلم جرا . وتفاصيل التجويد والوقف من الدقة والعسر بما أصبحت معه تلاوة القرآن فناً متميزاً ، وكم ألفت من جلائل الكتب في مباحث علم التجويد ورواية ما جرت به القراءات .

شو : إن هذا جله غريب عليَّ ، بل هو حقاً من دواعي دهشتي ، وقد علمت كذلك أنك ألقيت حديثاً حول الإسلام والعلم في نيروبي ولا أتصور كيف يمكنك أن تعرض صورة الجنة والنار الواردة في القرآن بأسلوب مقنع على المطلعين على العلوم الحديثة ممن تأنف عقولهم أن تقر شيئاً لم يقم عليه دليل مادي محسوس .

وإني لأنطوي على تقدير عظيم لنبي العرب ، وأدرك أنه قد كفكف من غلواء تلك الأمة الضاربة في وهاد الجهالة والتحلل وأنه صدهم عن ارتكاب أفحش الجرائم ، وبعث فيهم الحمية للمجاهدة في الحق ،

وتلقي مكارم الفضائل والأخلاق . وما كان له أن يفعل ذلك بغير أن يصور لهم ناراً حامية رهيبة تفزع منها القلوب تقابلها جنة رخية مغرية تفيض فيها انهار اللبن والعسل .

وقد أعجبت كذلك بأسلوب القرآن وشدة تأثيره . فما أروع تلك الآية التي تصور مشهد القيامة المرعب ، وما أبدع الآية التي تعالج مسألة الوأد وتنتهي إلى سؤال مثير للطفل ـ الذي قبر حياً أو قتل عمداً : « بأي ذنب قتلت » . إن ذلك عندي لأنجع مسلك للتأثير على الناس .

ولعلي بذلك أمعنت في شجون الحديث فالذي أحرص على معرفته هو كيفية شرح مسألة الجنة والنار في ضوء من البيان العلمي .

الشيخ : إنك لا ريب ضليع في فن الكتابة ، وإن الأسلوب الطريف الأخاذ الذي يجزئ به قلمك الساحر يحدث ثورة في ألباب القراء ، ولكني واثق من موافقتك على أن لغتنا المادية لا تصلح أداة للتعبير المضبوط عن ماهية الحقائق الغيبية ومعنى الظواهر الروحية دون اللجوء للتشبيه والمجاز وتقريب المعنى بالاشتباه والنظائر .

وذلك أمر لا بد من الانتباه إليه حتى نجعل اعتباراً لوسائل التعبير في تفهم وصف الجنة والنار في القرآن ، وإذا كانت العقول تنصرف بتلك التشبيهات إلى مجرد البشرى بالمتاع الحسن فإن القرآن يدعونا بجلاء ألا نفرط

في استقراء الطبيعة الحقيقية لنعيم الجنة : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) وقد جاء الحديث بأنه لا ينبغي أن نتوهم الجنة والنار من مثل ما نعهده في الدنيا : (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) . فكيف يليق مع هذا البيان أن ندعى لنعيم الجنة أدنى شبه بما يطيب لنا ونسعد به في أمور الدنيا ؟ بل إن حقيقة الأمر على عكس ذلك ، وإذا كان اتباع سنن الكون الطبيعي يؤدي بنا تلقائياً إلى رفاهية وتقدم مادي يناسب مبلغ علمنا وعملنا بتلك السنن ، فكذلك بقدر إخلاصنا وتمسكنا بالقواعد الخلقية والروحية ومدى تحقيقها في واقع حياتنا تبلغ درجات في السعادة والنعيم الروحي ويعود علينا خرقها بالعذاب الروحي والشقاء المقيم .

وإذا تأملنا قانون التطور ألفينا كل شيء في تقدم دائب ، ولكنه حتماً منته إلى غاية مطلقة لا مجال بعدها للتقدم . وهذا نفسه يسري على ما يعترونا من تجارب الراحة والنعيم والألم والشقاء فهي حالات لا بد أن تكون لها غايات قصوى . وما الجنة إلا تلك الغاية القصوى للنعمى والسعد ، وما النار إلا المبلغ الأخير للحسرة والألم.

وإذا كنا نألف من بين الأوساط المادية ما يهيئ السعادة أو يجلب الشقاء في هذا العالم فلا غرو أن توجد في الدار الآخرة أوساط معينة تولد السعادة في النفس أو تثير فيها الألم والشقاء . وقد استعيرت صورة كلامية

لتنقل لأفهامنا نعيم الجنة ، كما ضرب مثل مليء بالرعب والهول رمزاً للنار .

أما الدار الآخرة التي تدعوها رحبة أو سماوية فإنها تختلف عن عالم المادة ، لكن ذلك لا يعني أنها تقتصر على الروح المجرد الذي لا يمت بصلة للمادة أو أن الأرواح تسرح فيها طليقة من عنصر المادة .

وما دام الإنسان ـ روحاً وجسماً ـ مسؤولاً عن أعماله ومحاسباً عليها ، فإن روحه يوم البعث ستقترن بجوهر في الجسد ويشتركان على ما تقتضيه ظروف الدار الآخرة من صنوف السعادة أو الشقاء .

يبقى علينا أن نعرف المادة ، وذلك فيما تعلم أمر غير ميسور برغم ما بلغنا من مراتب الرقي العلمي فإن ماهية المادة طلسم لم تفض بسره بعد محاولات أرجح العقول ، ولم يفلح في تحليلها علم الكيمياء ، بل قد أعيا أكابر العلماء أن يهتدوا لمجرد تصور كنهها . وأن غاية البحث العلمي إلى يرمنا هذا إنما تنتهي إلى النظرية الموضوعة للبروتونات والإلكترونات والتي تزعم أن موجات الاشعاع التي تحدثها هذه العناصر هي أساس الوجود الكوني وأن كل الأجسام الطبيعية الصلبة إنما هي أثر لتلك الاشعاعات .

وهذا مثلاً ما تقوله عن المادة مجلة (كون العجائب) :

« تبدو لنا المادة في غاية الصلابة لكن رجالات العلم يحدثوننا أنه لو انتفى الفراغ الكامن في الذرات التي

يقوم عليها بناء الجسد ثم ركزت النوويات والالكترونات الذرية في كتلة جسمية ، فإن ما يحصل لنا من جسد الشخص السوي سيكون من فرط صغره غير مرئي للعين المجردة » .

فإذا جاز للعالم أن يقبل دون برهان محكم أن دورات الالكترون السابحة حول نواتها تناهز بضعة آلاف من ملايين كل ثانية وأن أمواج إشعاعها هي قاعدة الأجسام الطبيعية الصلبة وما دام ذلك فلا ينبغي أن يتعسر على العالم تصور الجسم والروح في هيئة ـ ما ـ تتوافق مع أنواع السعادة والشقاء التي تنظرنا في عالم الغيب . وربما صح الزعم بأن في تجاربنا الغريبة ـ التي ندعوها أحلاماً ـ انعكاساً باهتاً لتلك الأحوال الغيبية .

شو : إن هذا حقاً لإيضاح شاف بليغ جميل . لكن هل يرتضيه سائر المسلمين في العصر الحاضر ؟

الشيخ : ليس هذا الوصف مما طبخه ذهني فهو ـ كما قدمت ـ مبسوط في القرآن . ولا أدعي لنفسي فضلاً حتى في طريقة عرضه فإن أسلافي الأئمة العظماء كفخر الدين الرازي والغزالي قد سلكوا هذا المنهج في خطاب الفلاسفة النابهين من أمثالك . ولو جاز لي أداء قولي هذا بتعبير شرقي فما أنا إلا قاطف فتاتاً من مآدبهم العامرة .

إن كل تعاليم الإسلام مما تدركه الأفهام وتعيه ، وليس فيها مجال للخفايا ومبهمات الفكر وحسبها أن تشرح وتكشف على ضوء من البيان من شأنه أن يجلي

مدلولها الصحيح إذ لا مناص لتفهم المصنفات في أي فن من الفنون من أن يكون لنا فيه طول باع ولزام علينا أن نستوعب مسائله ونحصل منه معرفة وثيقة نفقة بها قضاياه الشائكة .

(ودخلت عندئذ المضيفة تذكر شو بأن الوقت قد أزف للرحيل) .

شو : إن الحديث إليك في غاية المتعة والفائدة ، ووددت لو أني حظيت بصحبتك أعواماً ولكني الآن مضطر لمغادرتك لسوء الحظ .

الشيخ : وأحرص أنا كذلك على الفائدة المرجوة من تبادل الآراء مع حَبر مثلك ذي حظ وافر من العلم والثقافة لا سيما وقد قلت في الإسلام قولة فيها كثير من البشرى واليقين وإن كانت لا تصدر إلا عن معرفة . ذلك هو قولك : « سيكون الإسلام دين المستقبل للمتعلمين والمثقفين والمستنيرين من الناس » .

وقد كان مرامي من الحديث إليك حول الفلسفة العميقة والحقائق النفسية الواردة في القرآن إن أمكن عالماً مثلك . بما وهبت من العبقرية وبما أوتيت من الإلمام بأذواق العالم المتحضر وباتجاهاته العقلية أن يعرض تعاليم الإسلام بطريقة لائقة ذات وقع على النفوس .

شو : يؤسفني حقاً ألا يتيسر لي إلا هذا الوقت القصير في خطاب حكيم عالم مثلك .

الشيخ : لكني ـ من جانبي ـ ممنون لهذه الفرصة العابرة وأنتهزها لأقدم إليك نص المحاضرتين اللتين القيتهما قبل أيام حول « الدين والنهضة العلمية في العالم » و « ثقافة الإسلام الروحية » وأهدي إليك أيضاً هذه الرسالة عن الإسلام وهي من تأليف صديقي الياس برني أستاذ الاقتصاد بالجامعة العثمانية بحيدرآباد وقد جمع فيها آيات من القرآن صنفها على أبواب مختلفة وعززها بحواش من الشرح وأرجو أن تطلع عليها وتظل على صلة بي في كل ما يخطر من المسائل مما يتصل بالإسلام .

وسأبذل جهدي في زيادة الإيضاح وأرد على ما قد توجهه من نقد كل ذلك تحت ضوء الهدي الإسلامي .

شو : لا ريب أن لك أسلوباً أخاذاً في عرض تعاليم الإسلام ـ لكن هل يوافقك على ذلك أهل الإسلام التقليديون ؟

الشيخ : دعني أصارحك بأني نفسي شديد التمسك بالتراث التقليدي ، وأعد نفسي في الذين ينكرون كل تبديل في تعاليم الإسلام . ويمثل نصب عيني دائماً الحديث الشريف : ـ « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » بل إني ممن يلتزمون بأقل إرشادات الإسلام خطراً فكيف بقواعده الأساسية .

ومن هذا القبيل ان صديقي علي محمد جعفر النائب عن رئيس منظمتنا الإسلامية قد جاء بمصور يرجو أن يلتقط صورة للقائنا هذا ولكني رفضت طلبه بلا مواربة وصرفت المصور إن الصور قد أدت إلى عبادة الأصنام

وأي صورة تلتقط اليوم عرضاً وبلا مبالاة ربما أصبحت من بعد موضعاً للتقديس من معجب مفرط الحماس مع الحمية الواهمة .

ولذلك أبطل الإسلام هذا العمل ونزولاً على حكمه لم آذن قط أن تؤخذ صورتي إلا إذا لقطها لاقط دون إذني فذلك وزره على نفسه . وقد ذكرت لك كل هذا لتلحظ فرط تأدبي ازاء حكم فرعي لا يرى بعض المسلمين المحدثين بمخالفته بأساً ولك أن تقيس على ذلك مدى ثباتي على تقاليد الإسلام في المسائل الكلية .

شو : لقد سررت أشد السرور بالتعرف عليك ، وسيظل هذا اللقاء أغلى الذكريات في رحلتي هذه .

لماذا تأخّر المسلمون..؟

يقول الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله :

كتب إليّ تلميذي المرشد الشيخ محمد بسيوني عمران . أمام مهراجا جزيرة سمبس . بورنيو (أندونيسيا) . كتاباً يقترح فيه على أخينا المجاهد (أمير البيان) أن يكتب للمنار مقالاً بقلمه السيال يبين فيه أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر وأسباب قوة غيرهم من اليابان والافرنج ...

وقال في كتابه : إنه قرأ ما كتبناه في (المنار) وتفسيره من بيان الأسباب في الأمرين وما كتبه الأستاذ الإمام محمد عبده في مقالات (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) في الموضوع نفسه . وأنه يريد برسالته أن يكتب ذلك أمير البيان شكيب أرسلان بقلمه ..

يقول الشيخ محمد بسيوني عمران في رسالته :

ما أسباب ما صار إليه المسلمون من الضعف والانحطاط في الأمور الدينية والدنيوية معاً ؟ رغم ما يقول الله في كتابه : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فأين هي عزة المؤمنين الآن ؟ وهل يصح لمؤمن أن يدعي أنه عزيز ؟

ويتساءل أيضاً :

ما الأسباب التي ارتقى بها الأوربيون واليابانيون ارتقاءً هائلاً ؟

وهل يمكن أن يكون المسلمون أمثالهم في هذا الارتقاء مع المحافظة على دينهم وعقيدتهم ؟

هذه هي الأسئلة التي وضع بشأنها هذا الكتاب .. وكان ذلك منذ حوالى نصف قرن تقريباً . وقبل أن تبدأ الحرب العالمية الثانية بحوالى عشر سنوات . وبعد أن تقاسم العالم الإسلامي والعربي قوى الاستعمار الغربية وبدأت تمارس فيه أحقادها الدفينة ومؤامراتها الدنيئة .. كان العالم العربي في هذه الآونة شراذم ممزقة . والمسلمون يتامى في كل أمة . فقد أجهضت دولة الخلافة ووجهت إلى الإسلام طعنة قاتلة وخرجت من الجحور والشقوق عقارب البغضاء والكراهية . وارتفعت هنا وهناك شعارات تطالب بالفصل بين الدين والدولة ووقف أتاتورك يعلن إلى العالم تبرأه من الإسلام والعروبة .

وفي هذا الجوّ الخانق يصدر هذا الكتاب ويجيء جواباً على تساؤل شغل أذهان الكثيرين من أبناء العالم الإسلامي الذين تكاثفت من حولهم الظلمة .. وأحاط بهم يأس قاتل تموت فيه الهمة ...

لكن من هو أولاً المرحوم الأمير شكيب أرسلان ..؟

لقد وُلِدَ الأمير شكيب في بيت « أرسلان » العريق في لبنان في شهر رمضان المبارك سنة ١٢٨٦هـ وتعلم مبادئ القراءة والكتابة على يد معلم خاص حسبما كانت عليه عادة السراة في ذلك الحين . ثم انتقل إلى التعلم على يد أستاذ آخر فحفظ جانباً من القرآن الكريم وحين بلغ العاشرة من عمره دخل مدرسة الحكمة في بيروت وتلقى فيها دروس العربية على يد الشيخ عبد الله البستاني .

وفي مدرسة الحكمة تعلم اللغة الفرنسية والتركية وظهرت تباشير شاعريته وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وكان في سن دراسته مبرزاً على أقرانه وما هي إلا سنوات قليلة حتى رحل إلى دمشق وبدأ يجالس المشاهير ويتعرّف عليهم من أمثال : الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، والشيخ علي البستاني ، والشيخ علي يوسف صاحب جريدة « المؤيد » ، وحفني ناصف ، وأحمد زكي باشا ؛ وطفق رحمه الله وهو في سن الشباب ينشئ علاقات شخصية وأدبية مع أعلام عصره أمثال الشاعر اسماعيل باشا صبري ، وأمير الشعراء أحمد شوقي ، والبارودي ، وعبد الله باشا فكري .

وتقلبت به السنون شاعراً ، وثائراً ، ومُصلحاً ، وبحاثة لغوياً ، وزعيماً سياسياً ، ومترجماً ومحققاً . وهو في كل ذلك لسان حال العروبة الصادق ، ورجل العقيدة الذي لا يخاف في الله لومة لائم ...

لقيَ الأمير شكيب أرسلان ربه في الخامس عشر من محرم ١٣٦٦ هـ / ديسمبر ١٩٤٦ م فأفل النجم الذي أضاء دنيا العرب وأغمد ذلك السيف الذي طالما دافع عن قضايا العروبة والإسلام ...

وقد لاقى هذا الكتاب .. الذي دبجه يراع الأمير شكيب أرسلان بقلمه ـ روحاً في كل أنحاء العالم الإسلامي ـ وكان أشبه بعود الثقاب في الظلام الدامس المدلهم وقد قوبل هذا الكتاب بمعارضة ومطاردة من الدوائر الاستعمارية . وقابلته فرنسا بحماقة شديدة فمنعت دخوله بلاد شمال إفريقيا وحرمت قراءته على الناس

كأنه وباء ...

وفرضت العقوبات الصارمة على كل من يوجد عنده هذا الكتاب ..

يقول الأمير شكيب :

لقد ظن كثير من المسلمين أنهم مسلمون بمجرد الصلاة والصيام وكل ما لا يكلفهم بذل دم أو مال . وانتظروا بذلك النصر من الله .. وليس الأمر كذلك فإن فرائض الإسلام لا تنحصر في الصلاة والصيام ولا في الدعاء والاستغفار . وكيف يقبل الدعاء ممن قعدوا وتخلفوا ، وبخلوا وما بذلوا .. فكيف يطمع المسلمون أن تكون لهم منزلة الأوربيين في البسطة والقوة وهم مقصرون عنهم بمراحل في الإيثار والتضحية ؟

ويقول الأمير شكيب :

يقولون : لماذا سادت الأمة الإنجليزية هذه السيادة على العالم ؟ ونقول لهم جواباً عن ذلك : انها سادت بالأخلاق والمبادئ الوطنية العالية . اني أعرف رجلاً انجليزياً كان يأمر خادمه أن يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يومياً من دكان رجل انجليزي في البلدة التي يقيم فيها . فجاءه الخادم يوماً بجدول حساب وفر عليه به عشرين جنيهاً في الشهر فسأله الانجليزي : كيف أمكنك هذا التوفير ؟ فقال له الخادم : تركنا دكان الانجليزي الذي كنا نشتري منه إلى دكان آخر يبيع بسعر أرخص . فقال له الانجليزي :

ارجع إلى الدكان الأول الذي كنا نشتري منه . فقال الخادم : ولو كان ذلك يكلفنا عشرين جنيهاً زيادة ..؟

قال الإنجليزي : ولو كلفنا عشرين جنيها أخرى ..؟

إن العطاء والتضحية والبذل هي التي تصنع تاريخ الرجال والأمم لقد قام أهل الريف المغربي في وجه الدولة الاسبانية فطردوا جيوشاً بعد أن أبادوا في معركة واحدة ٢٦٠٠٠ (ستة وعشرين الفاً) من الاسبان وغنموا منهم ١٧٠ مدفعاً مع أن أهل الريف جميعهم لم يكونوا يزيدون في هذا الوقت عن ثمانمائة ألف رجل وامرأة وطفل وكان عدد سكان اسبانيا في ذلك الحين يقارب اثنين وعشرين مليوناً ..

إن المبالغ الزهيدة التي جمعها المسلمون لنصرة المجاهدين في برقة وطرابلس هي التي أوقعت بإيطاليا أفدح الخسائر وكبدت ميزانيتها مئات الملايين من الجنيهات ففي وقعة واحدة هي وقعة «الفويهات» على باب (بنغازي) ثبت مائة وخمسون مجاهداً عربياً لثلاثة آلاف جندي إيطالي من الفجر إلى غروب الشمس حتى انقرضوا جميعاً وبينما كان المسلمون في حزن لوفاة هؤلاء المجاهدين جاءت الأخبار بأن إيطاليا فقدت في هذه المعركة وحدها ١٥٠٠ جندي .. وأصيب سبعة من ضباطها بالجنون .. وصدق الله العظيم : «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا» .

لقد كانت نتيجة هذه الموقعة انفجاراً زلزل أرجاء إيطاليا . مائة وخمسون يقتلون ألفاً وخمسمائة .. ويتسببون في جنون سبعة من الضباط .. مائة وخمسون بالبنادق والأسلحة العتيقة يتصدون لجيش أوربي فيدمّرونه ويدحرونه ..

لقد جنّ جنون إيطاليا . فما سر هذه التضحية في جنود العرب ؟ إنه الإسلام .. فلنحرك في شبابنا أحقاد الماضي الدفينة وتاريخ

الحروب الصليبية .. فكان هذا النشيد الذي يقطر حقداً وعداوة وهمجية ..

صلّي يا أماه ولا تبكي ..

بل اضحكي وتأملي ..

ألا تعلمين أن إيطاليا تدعوني وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونه .. ولأحارب الديانة الإسلامية ..

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن ..

ليس بأهل للمجد من لم يمت إيطاليا حقاً ..

يا أماه .. أنا مسافر .. ألا تعلمين أن الأمواج الزرقاء الصافية من بحرنا ستلقي سفائننا على المراسي ..؟ أنا ذاهب إلى طرابلس مسروراً لأن رايتنا المثلثة الألوان تدعوني وذلك القطر تحت ظلها ..

لا تموتي لأننا في طريق الحياة .. وإن لم أرجع فلا تبكي على ولدك ..

ولكن اذهبي كل مساء وزوري المقبرة ونسائم الأصيل تحمل إلى طرابلس وداعك الذي يأبى الحداد على قبر فلذة كبدك ..

وإذا سألك أحد عن عدم حدادك عليَّ ... فأجيبه ..

إنه مات في محاربة الإسلام ...

يقول المرحوم أرسلان :

ومن أغرب الأمور أن نرى الأوربيين ودعاتهم وتلاميذهم من الشرقيين يتهمون المسلمين بالتعصب . ويزعمون لأنفسهم التساهل في أمور العقيدة والدين ..؟

بل أن بعض المسلمين «جغرافياً» ينساقون ببلاهة وراء هذه

الأكذوبة الضخمة فيتساهلون في أمور دينهم حتى يكونوا « متمدنين » وعصريين ..

فالمسلم في نظر هؤلاء لا يكون «غير متعصب» إلا إذا سمع بتنصير المسلمين ثم يمر بذلك كأن لم يسمع شيئاً .. وإلا إذا سمع أن الهولنديين والفرنسيين نصروا عشرات الألوف من المسلمين فهز كتفيه كأن لم ير شيئاً .. هنالك يصير « راقياً » ويعد « عصرياً » ويصبح عند أعداء الله محبوباً .

أما الأوربي فله أن يبذل القناطر المقنطرة على بث الدعاية التبشيرية بين المسلمين وله أن يحميها بالمدافع والطيارات والدبابات . وله أن يحول بين المسلمين ودينهم بالقوة والمدرعات .. وله أن يدس كل دسيسة ممكنة لهدم الإسلام في بلاد الإسلام وليس عليه من حرج في ذلك ولا يسلبه هذا العدوان والبغض صفة «راق» و « متمدين » و « عصري » .

وهؤلاء المسلمون الجغرافيون برغم هذه الشواهد والأدلة ورغم ما فعلته فرنسا «اللادينية» في محاولة تنصير البربر وفصلهم عن الاسلام .. ورغم حماية « هولنـدة » لمبشري الإنجيل واصرار بلجيكا على تنصير أهل الكونغو . ومنع الانجليز للدعاة المسلمين في كينيا وأوغندا وتنجانيقا وجنوب السودان . وبرغم أمور كثيرة لا نستطيع شرحها فإن الأغبياء لا يزالون يقولون :

إن أوربا قد رفست الدين .. وصارت دولها علمانية لا دينية .. ولهذا تقدمت وترقت ولا سبيل لرقينا حتى نترك الدين ..؟

ونقول لهؤلاء الأغبياء والعمي في أمتنا .. إن التبشير والاستعمار يسيران جنباً إلى جنب .. بل إن التبشير كان دائما هو طليعة

الاستعمار في كل أرض ، فقد أرادت أوربا أن توهم المسلمين بتخليها عن «الدين» حتى يحذوها وينفصلوا عن مصدر القوة والعزة والحرية .. أوهمت المسلمين ظاهراً بهذه الأكذوبة ثم أطلقت «عصابات التبشير» في مستعمراتها تحت حماية قواتها المسلحة لتدمر وتخرب في عقائد المسلمين .. لأن الإسلام هو العزة والحرية .. وما بقي المسلمون مسلمين فلا بقاء لمستعمر في أرض تدين بالإسلام والرسالة المحمدية ... وهنا نقف وقفة قصيرة ..

لقد حدثني في العام الماضي [1] رجل كان يشغل منصباً قانونياً كبيراً في هيئة دولية قال ذلك الرجل المسلم : عندما أممت قناة السويس وجد في ميزانيتها قرار باعتماد خمسة ملايين جنيه ترصد لأعمال التبشير سنوياً في المنطقة . والأغرب من هذا كله أن .. «فرديناند ديلسبس» المهندس الفرنسي الذي أشرف على شق القناة أرسل إلى بابا روما بعد حفل الافتتاح برقية يخبره فيها بأن الطريق إلى غزو العالم الإسلامي والسيطرة عليه أصبح ممهداً .. وسهلاً ... !

بل ان أحد الرهبان واسمه «سان لوي» هو الذي فكر منذ زمن بعيد بشق هذه القناة ليصبح الطريق مفتوحاً أمام جحافل الغزو الصليبي في قلب العالم الإسلامي ..

ولم أعجب حين سمعت من الرجل القانوني هذه القصة .. فقد رأيت بعيني تلك المدارس التبشيرية التي أنشأتها شركة قناة السويس في مدن القناة كلها . وكل هذه المدارس تديرها راهبات بإشراف الكنيسة والكرادلة وهي مدارس «سان فنسان دي بول» و «سان

---

(١) ١٩٧٢ م .

لوي » و « الفرنسيسكان » وبانباستير والصليبي الحاقد . فرديناند ديليسبس .

نعود مرة ثانية إلى كتاب المرحوم شكيب أرسلان :

يقول رحمه الله ..

إن من أكبر عوامل انحطاط المسلمين الجمود على القديم . فكما أن آفة الإسلام هي الفئة التي تريد أن تلغي كل شيء قديم بدون نظر فيما هو ضار أو نافع . كذلك آفة الإسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد أن تغير شيئاً ولا ترضى بإدخال أقل تعديل على أصول التعليم الإسلامي ظناً منها بأن الاقتداء بالكفار كفر ، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار ..

لقد أضاع الإسلام جاحد وجامد ..

أما الجاحد فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ويخرجهم عن جميع مقوماتهم ، ويحملهم على انكار ماضيهم ويجعلهم أشبه بالعنصر الكيماوي الذي يدخل في تركيب جسم آخر فيذوب فيه ويفقد هويته . وذلك لا يصدر إلا من الفسل الخسيس التعس الذي يشعر أنه في وسط قومه دنيء الأصل فيسعى هو في إنكار أصل أمته لأنه يعلم نفسه منها بمكانة خسيسة ليس له نصيب من الأصالة فيريد أن يجعل الكل شريكاً له في هذه الخسة .

إنهم كالقرود يقلدون بغير وعي ولا إدراك .. فقد قال المستر « شميرلين » ناظر خارجية انكلترا سابقاً . ورئيس وزرا ها في مطلع الحرب العالمية الثانية . نحن الانكليز أمة تقليدية محافظة على

القديم لا نرضى بتبديل شيء من أوضاعنا إلا إذا ثبت ضرره ولم يبق مناص من تغييره ..

ومما يزيد هذا المثال تأثيراً في النفس أن الآيرلنديين أمة صغيرة مجاورة للانجليز وقد حاولت بريطانيا كل ما يتصوره العقل لدمج هذا الشعب في الأمة الإنجليزية مدة تزيد عن سبعمائة عام فأبوا أن يصيروا انجليزاً وبقوا آيرلنديين بلسانهم وعقيدتهم ..

وفي فرنسا تأبى جماعة «البريتون» الا أن يحافظوا على أصلهم وفي جنوب فرنسا توجد جماعة يقال لهم «الباشكنس» ظلوا محتفظين بقوميتهم تجاه القوط .. والعرب .. والفرنسيين .. والاسبان ، وفي سويسرا ثلاثة أقسام لكل قسم لغة . الأمثلة كثيرة ولا تنتهي في أوربا وأقطارها وقد حصرت أمثلتي في أوربا لأنها القدوة لهؤلاء الجاحدين في العالم الإسلامي والعربي ... واليابان ..؟ انها دولة شرقية مائة في المائة فكيف نهضت وتقدمت وسبقت الكثير من دول أوربا والغرب ؟ هل تخلصت من قوميتها وعقيدتها ؟ هل انسلخت عن ماضيها وتراثها ؟ هذه الأمة الشرقية التي يضرب بها المثل في الرقي والتقدم لا تزال ملتزمة بعادات وتقاليد مضى عليها أكثر من ألفي سنة .. وامبراطورها هو ابن السماء والكاهن الأعظم .

ملك انجلترا وامبراطور الهند .. فيما مضى .. هو رئيس الكنيسة الانجليكانية (حسب الدستور) ومجالسه النيابية تناقش في قضايا لاهوتية خطيرة مثل قضية الخبز والخمر وهل يستحيلان بمجرد كلام القسيس إلى جسد المسيح ودمه كما تنص تعاليم الكنيسة

فكيف لا يقال عن هذا الملك إنه رجعي وأن دولته العظمى متأخرة متقهقرة .. ؟

إنها أمثلة لا تحصى أيضاً في الأمم الأوربية الأمم التي تدعي العلمانية .. وفصل الدين عن الدولة .

وهنا نقف وقفة ثانية ..

فاسرائيل دولة انبثقت من تعاليم التلمود والتوراة .. العبرانية تعود من جديد إلى الحياة .. المخترعات تحمل أسماء كانت قد اندثرت تحت أنقاض الزمن .. كل شيء في اسرائيل يتعطل يوم السبت لأنه يوم مقدس .. الأحزاب الدينية تكيف الحياة في اسرائيل حسب التعاليم التي انقرضت .. في كل فرقة من الجيش حاخام يفرض وجوده على قواد الفرق .. ومع ذلك فإن اسرائيل كما يردد القرود في العالم العربي دولة عصرية .. دولة عصرية رغم كونها عنصرية .. دولة تقدمية وكل شيء فيها ملون بأحبار الكهنة والحاخامات ..

ويقول المرحوم شكيب أرسلان ..

بقي بعد ذلك أن نتحدث عن الجامدين في العالم الإسلامي هؤلاء الذين مهدوا لأعداء المدنية الإسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية محتجين بأن التأخر الذي عليه العالم الإسلامي وإنما هو ثمرة تعاليمه وقيمه .

إن المسلم الجامد هو سبب الفقر في العالم الإسلامي لأنه جعل من الإسلام دين آخرة فقط . بينما الإسلام دين ودنيا . والجامد هو الذي شن الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية بحجة انها من علوم الكفار فحرم الإسلام ثمرات هذه العلوم وأورث أبناءه

الفقر ، والمسلم الجامد لا يدري انه بهذا المشرب يسعى لبوار أمته وحطها عن الأمم الأخرى ولا يتنبه لشيء من المصائب التي جلبها على قومه اهمالهم للعلوم الكونية حتى انتهوا إلى هذا الجهل الذي هم فيه وصاروا عيالاً على أعدائهم الذين لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة .

والحقيقة أن هؤلاء الجامدين هم الذين لا تأتلف عقائدهم مع المدنية وهم الذين يحولون دون الرقي العصري . والإسلام قبل غيره بريء من جمودهم وسذاجتهم .

إن الإسلام ثورة على القديم الفاسد ، وقطع كل العلائق مع غير الحقائق فكيف يكون الإسلام ملة الجمود وهو وحده دين التقدم والتطور ... ؟

فالمسلم الجامد يحارب كل علم غير العلم الديني الذي ألفه . وينسى أن العلوم الطبيعية والرياضية والفلك والطب والهندسة والكيمياء وكل علم يفيد الاجتماع البشري هي علوم دينية . وكم جرى تدريس هذه العلوم في الأزهر الشريف والزيتونة والقروبين وقرطبة ، وبغداد ، وسمرقند وغيرها عندما كان للإسلام دول ورجال أعاظم .. وكم نبغ في الإسلام من عظماء جمعوا بين الحكمة والشريعة ونظموا بين الحديث والرياضة وأن أكبر فيلسوف عربي اشتهر اسمه في أوربا هو القاضي «ابن رشد» وقد كان من أكابر الفقهاء والفلاسفة ... ؟

لقد بلغت بغداد في عهد المنصور والرشيد والمأمون ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها إلى هذا العصر حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان .

كذلك كانت دمشق والقاهرة وحلب وسمرقند وأصفهان

وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الإسلام كانت القيروان وفارس ومراكش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول أو يناظرها مناظر أو أن يكاثرها مكاثر في ممالك أوربا حتى القرون الأخيرة . وكانت قرطبة مدينة فذة في أوربا لا يدانيها مدان . وكان عدد سكانها مليون ونصف المليون نسمة ، وكان فيها نحو سبعمائة جامع عدا المسجد الأعظم وقد حدثني المهندس الاسباني الذي كان يرافقني حين زيارتي لهذا المسجد أنه يسع لحوالى (٥٠٠٠٠) خمسين ألف مصلي في الداخل و(٣٠٠٠٠) ثلاثين ألف مصلي في صحنه الخارجي .

وحسبك أن غرناطة التي كانت حاضرة مملكة صغيرة في آخر أمر المسلمين في الأندلس لم يكن في أوربا في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة تضاهيها ولا تدانيها . وكان فيها عندما سقطت في أيدي الاسبان نصف مليون نسمة ولم يكن في ذلك الوقت في أية عاصمة أوربية نصف هذا العدد .

هكذا كان المسلمون سادة الدنيا ومفخرتها .. كانوا كذلك حين كان الإسلام فعالاً مؤثراً في الحياة والحكم . حين كان الإسلام هو المهيمن على القلوب والفكر .. حين كان الإسلام هو المصدر الأول والأخير للتشريع والنظام ..

إن القائلين بأن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين هم أول الناس علماً بضخامة أكذوبتهم وإذا صدر هذا الكذب والافتراء من أمم تدين بالنصرانية فانما يعمدون بهذا الكذب لي ستر خيبتهم وأحقادهم .

لقد كانت اليونان ــ قبل النصرانية ــ أمة من أرقى أمم الأرض

وكان الاسكندر الأكبر ابناً لهذه الأمة التي تصدرت بثقافتها شعوب العالم في فترة من الزمن ، ولم تزل اليونان في هذه المكانة حتى دخلت في النصرانية فبدأت تتدلى وتنحدر حتى أصبحت ولاية تركية ...

وكانت روما دولة عظمى لا تذكر بجوارها دولة .. ولم تزل كذلك حتى دخلت في النصرانية على عهد قسطنطين ومنذ ذلك الوقت بدأت تنحدر وتنحط حتى تلاشى سلطانها شرقاً وغرباً .. وأصبحت أقطارها ولايات إسلامية ..

وفي نظر الكثير من المؤرخين الأوربيين أن الكنيسة هي العقبة الكؤود في طريق كل نهضة ، وانها سبب الانحطاط والتأخر ، وأنها الوحيدة التي عرقلت عجلة الحضارة في أوربا وأن عصر النهضة لم يبدأ إلا بالتخلص من الكنيسة ومفاهيمها البالية العتيقة .. وقد قال « فولتير » لرئيس وزراء النمسا البرنس «سيندروف» حين زاره وسأله عن حركة الإصلاح المسيحية التي قام بها «لوثر» و « كلفن » قال « فولتير » :

كلاهما لا يصلح حذاء لمحمد ... !!!

* * *

الجذور .. أو .. قصّة "الرّق" على مرّ العصور *

كان الرق نظاماً طبيعياً شائعاً عند اليونان ، وليس أدل على تغلغل الاسترقاق في نظامهم الاجتماعي والسياسي من اقرار فلاسفتهم له وفي مقدمتهم « أرسطو » و « أفلاطون » ، أما أفلاطون فقد اعتبره عملاً ضرورياً لا يمكن الاستغناء عنه ، وكان قاسياً في النظام الذي سنّه لعقاب الأرقاء في جمهوريته الفاضلة التي كان يحلم بها ، فالعبد الذي يتطاول على حر غير سيده جزاؤه أن يسلم لهذا الحر ليقتص منه بما يشاء وكيفما يشاء ، وفي رأيه : أن الرحمة إذا وجبت بالأرقاء فإنما تجب لا مراعاة لأنهم أناس يستحقون الرحمة بل لأنهم حقراء أخساء لا يليق بالأحرار أن يتنزلوا إلى عقابهم وإيذائهم ...

وأما « أرسطو » فقد ذهب إلى أن الله قد خلق فصيلتين من الناس . فصيلة مدها بالعقل والإرادة وهم اليونان ليكونوا خلفاء في أرضه وسادة على خلقه . وفصيلة أخرى لم يمدها إلا بقوة الجسم ــ وهم

الجذور . اسم لكتاب ظهر في الولايات المتحدة . ألفه الزنجي الأمريكي « أليكس هيلي » تناول فيه قصة المأساة التي تعرض لها الأفارقة الطيبون على أيدي الأوربيين . وقد أحدث ظهور هذا الكتاب هزة في ضمير الشعب الأمريكي ولاقى رواجاً في مختلف الأوساط العالمية .

الذين ليسوا من اليونان ـ وقد خلقهم الله ليكونوا عبيداً للسادة اليونان ، وقرر «أرسطو» : إن كل الحروب التي يشنها اليونان لاسترقاق غيرهم من الناس حروب مشروعة لأنه ليس من المستطاع أن تستقيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية إلا باسترقاق هؤلاء البرابرة إذ أنهم هم الذين يقومون بالأعمال الجسمية التي أعدوا لها . أما اليونان فيفرغون لما عداها من الأعمال الراقية التي تليق بهم .. وأن المصلحة العامة لتقضي بتنحية العبيد عن المشاركة في شؤون الحكم أو انتخاب الحاكمين لأنهم بطبعم كالحيوانات ومن الخير للعبيد أن يظلوا عبيداً كما خلقهم الله ليخدموا الوطن كما تخدمه الحيوانات ..

وقد اشتركت الحضارات القديمة كلها في هذه الجريمة على قدم المساواة فالقانون الروماني ـ الذي ساد أوربا بعد ذلك ـ كان يبيح الاسترقاق ، ويبيح للدائن أن يستولي على مدينه إذا عجز عن الوفاء ، بل كان الرومان يعدون الأسرى والسبايا وسكان البلد المفتوح ملكاً للفاتح يتصرف فيهم كيف يشاء فله أن يقتلهم وله أن يستعبدهم ، وله أن يبيعهم . كذلك كان الفرس يعاملون العبيد والأرقاء وكذلك كان المصريون القدماء مع فارق بسيط في معاملة الرقيق عند الخطأ والصواب ..

وكان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار النسب والحرف . وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة . وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير . وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه ..

ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها .. وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع .

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي . وكان الفرس ينظرون اليهم كآلهة ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً .. وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانتقاد ، وفوق البشر لا يجري اسمهم على لسانهم ولا يجلس أحد في مجلسهم ، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان وليس لإنسان حق عليهم وأن ما يقدمون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعمهم فإنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق ، وليس للناس قبلهم إلا السمع والطاعة . وخصوا بيتاً معيناً ـ وهو بيت الكياني ـ فكانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ويجبوا الخراج . وهذا الحق ينتقل فيهم كابراً عن كابر ، وأباً عن جد ، لا ينازعهم ذلك إلا ظالم ، ولا ينافسهم إلا دعي نذل . فكانوا يدينون بالملك وبالوراثة في البيت المالك لا يبغون به بدلا ، ولا يرون عنه محيصاً . فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيراً ملكوا عليهم طفلاً ، وإذا لم يجدوا رجلاً ملكوا عليهم امرأة .. فقد ملكوا بعد «شيرويك» ولده «أزدشير» وهو ابن سبع سنين .. وملك «فرخ خسرو بن كسرى ابرويز» وهو طفل . وملكوا «بوران» بنت كسرى . وملكت كذلك ابنة كسرى ثانية يقال لها : «ازرمي رخت» ولم يخطر ببالهم أن يملكوا عليهم قائداً كبيراً ، أو رئيساً من رؤسائهم ..

وكان نظام الطبقات في الهند أعنف وأبشع ما يصنع الإنسان بالإنسان ..

وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي وألف فيه قانون مدني سياسي اتفق عليه ، وأصبح قانوناً رسمياً ، ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها ، وهو المعروف الآن : « منوشاستر » ..

يقسم هذا القانون الأهالي إلى أربع طبقات متميزة وهي :

(١) البراهمة : طبقة الكهنة ورجال الدين .

(٢) شـتري : رجال الحرب .

(٣) ويـش : رجال الزراعة .

(٤) شـودر : رجال الخدمة ..

ويقول « منو » مؤلف هذا القانون :

« إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه ، وشترى من سواعده ، وويش من أفخاذه ، والشودر من أرجله . ووزع لهم فرائض واجبات لصلاح العالم . فعلى البراهمة تعليم « ويدا » أو تقديم النذور للآلهة..وتعاطي الصدقات . وعلى الشترى حراسة الناس والتصديق وتقديم النذور ودراسة « ويد » والتجارة والزراعة . وليس « شودر » إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث . وعلى « ويش » رعي السائمة والقيام بخدمتها ..

« وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة . فقد قال : إن البراهمة هم صفوة الله ، وهم ملوك الخلق ، وأن ما في العالم هو ملك لهم . فانهم أفضل الخلائق وسادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر ــ من غير جريرة ــ ما شاءوا

لأن العبد لا يملك شيئاً ، وكل ماله لسيده وأن البرهمي الذي يحفظ «روك ويد» (الكتاب المقدس) هو رجل مغفور له ، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله : ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطرار والفاقة أن يجبي من البراهمة جباية أو يأخذ منهم اتاوة ، ولا يصح لبرهمي في بلاده أن يموت جوعاً وان استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه ، أما غيره فيقتل» ..

أما الـ «شترى» فهم وإن كانوا فوق الطبقتين «ويش وشودر» ولكنهم دون البراهمة بكثير .. فيقول «منو» : إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشترى الذي ناهز مائة ، كما يفوق الوالد ولده ..

أما «شودر» المنبوذون فكانوا في المجتمع الهندي ـ بنص هذا القانون المدني الديني ـ أحط من البهائم ، وأذل من الكلاب .. فيصرح القانون بأن «من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر أو ثواب بغير ذلك .. وليس لهم أن يقتنوا مالاً ، أو يدخروا كنزاً فإن ذلك يؤذي البراهمة وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصاً ليبطش به قطعت يده ، وإذا رفسه في غضب قطعت رجله وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهمياً فعلى الملك أن يكوي إسته أو يحرمه وينفيه من البلاد ، وأما إذا مسه بيد ، أو سبه فيقتلع لسانه . وإذا ادعى أنه يعلمه سقي زيتاً فائراً .. وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والزغ والغراب والبومة ، ورجل من الطبقة المنبوذة ، سواء .. هذا هو ما كان عند الهنود .. أما عند اليهود فقد عرفوا نوعين من الاسترقاق :

أحدهما : استرقاق بعض اليهود عقاباً لهم على ارتكاب خطيئة من الخطايا المحرمة شرعاً ، أو وفاء لدين عليهم ..

وثانيهما : استرقاق غير اليهود من الشعوب التي كانوا يحاربونها وكانوا يبيعون أسراهم الأرقاء بيع السلع ، ويستخدمونهم في الخدمة بالمنازل ، وفي الزراعة ويعاملونهم معاملة الماشية ..

وكان الإسرائيليون يسترقون جميع النساء والأطفال في البلد الذي يغلبونه . أما الرجال فقد كانوا يضربون رقابهم بحد السيف ، ويفنونهم جميعاً كما أمرتهم كتبهم المقدسة وقد جاء في الاصحاح الحادي والعشرين من سفر الخروج : إذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم ، وفي السابعة يخرج حراً مجاناً . إن دخل وحده فوحده يخرج . وإن أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين وبنات فالمرأة وأولادها يكونون للسيد وهو يخرج وحده ، ولكن إذا قال العبد : أحب سيدي وامرأتي وأولادي لا أخرج حراً ، يقدمه سيده لله ، ويقربه إلى الباب أو إلى القائمة ، ويثقب سيده أذنه بالمثقب يخدمه إلى الأبد ، وإذا باع رجل ابنته أمة لا تخرج كما يخرج العبيد ان قبحت في عيني سيدها الذي خطبها لنفسه يدعها تفك وليس له سلطان أن يبيعها لقوم أجانب لغدره بها ..

وفي سفر التكوين : أن حام بن نوح ـ وهو ابن كنعان ـ كان قد اغضب أباه لأن نوحاً سكر يوماً ثم تعرى وهو نائم في خبائه . فأبصره حام كذلك ، فلما علم نوح بهذا بعد استيقاظه غضب ولعن نسله الذين هم كنعان وقال : «ملعون كنعان عبد العبيد يكون لاخوته وقال : مبارك الرب إلـه وليكن كنعان عبداً

لهم » وفي الاصحاح ٢٧ من سفر التكوين « ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام . وليكن كنعان عبداً لهم » وبذلك يكون الرق عند اليهود نظاماً معترفاً به في كتبهم المقدسة ..

وجاء الدين المسيحي فأقر الرق الذي أقره اليهود من قبل ونص القديسون على شرعية خدمة الرقيق لساداتهم وليس في الإنجيل نص يحرمه أو يستنكره .

بل كان بولس الرسول يوصي في رسائله بإخلاص العبيد في خدمة ساداتهم فقال في رسالته إلى أهل « أفسس » .

أيها العبيد : أطيعوا ساداتكم ـ بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ولا بخدمة العين كمن يرضي الناس ، بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس . عالمين أنه مهما فعل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حراً ؟ »

كما أوصى الرسول بطرس بهذه الوصية ، وأضاف القديس الفيلسوف « توما الأكويني » رأي الفلاسفة إلى رأي الرؤساء الدينيين فلم يعترض على الرق بل أيده وزكاه لأنه كما يقول أستاذه أرسطو حالة من الحالات التي خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ..

وفي المعجم الكبير للقرن التاسع عشر « لاروس » : لا يعجب الإنسان من بقاء الرق ـ واستمراره بين المسيحيين إلى اليوم فإن نواب الدين الرسميين يقرون صحته ويسلمون بمشروعيته وأن الدين المسيحي ارتضى الاسترقاق تماماً إلى يومنا هذا وتعذر على الإنسان أن يثبت أنه سعى في إبطاله » .

وفي قاموس الكتاب المقدس للدكتور « جورج يوسف » قال : إن المسيحية لم تعترض على العبودية من وجهها السياسي والاقتصادي ولم تقل شيئاً ضد حقوق أصحاب العبيد ولا حركتهم إلى طلب الاستقلال ولا بحثت عن مضار العبودية ولا عن قساوتها . ولم تأمر بإطلاق العبيد وبالإجمال لم تغير النسبة الشرعية بين العبد والسيد بل العكس هو الواقع فقد أكدت حقوق كل من الفريقين وواجباته ..

وقبل سنوات قامت ضجة عالمية حول ما أثير عن الكنيسة الكاثوليكية وقيامها بحملات منظمة لبيع وشراء الفتيات من ولاية (كيرالا) الهندية .

وفي التحقيق الذي قامت به السلطات المسؤولة في الحكومة الهندية المركزية وفي حكومة الولاية اعترف الكاردينال المسيحي أن هذه العملية وغيرها من عمليات الرقيق التي تمارسها الكنيسة كانت تتم تحت إشراف البابا وبعلمه .. وكان من الممكن أن تبقى هذه الجريمة سراً لولا وقوع بعض الفتيات في قبضة البوليس الإيطالي والألماني بتهمة ممارسة أعمال غير مشروعة . وبسؤال الفتيات عن كيفية مجيئهن إلى إيطاليا وألمانيا أجبن : أن الرهبان قاموا بشرائهن من الهند ووضعوهن في أديرة تمهيداً لسلوك طريق الرهبنة ولكنهن آثرن حياة المجون والفسق على الحياة داخل أديرة الكنيسة الكاثوليكية ..

* * *

وقد ظهر الإسلام في عصر كان نظام الرق فيه دعامة ترتكز عليها جميع نواحي الحياة الاقتصادية وتعتمد عليها جميع فروع

الإنتاج في مختلف أمم العالم .

فلم يكن من الإصلاح الإجتماعي في شيء أن يحاول المشرع تحريمه تحريماً باتاً لأول وهلة لأن محاولة كهذه كان من شأنها أن تعرض أوامر المشرع للامتهان والمخالفة . وإذا أتيح لهذا المشرع من وسائل القوة والقهر ما يكفل به إرغام العالم على تنفيذ ما أمر به ، فإنه بذلك يعرض الحياة الإجتماعية والإقتصادية لهوة عنيفة ويؤدي إلى أضرار بالغة لا تقل في سوء مغبتها عما تتعرض له حياتنا في العصر الحاضر إذا ألغي نظام البنوك أو الشركات المساهمة ، أو حرم استخدام العمال وقضي على كل مالك أن يعمل بيده ، أو بطل استخدام السكك الحديدية لأن الرقيق كان في هذه المرحلة من تاريخ البشرية هو القوة المحركة التي يقوم عليها نظام الاقتصاد في هذه الفترة ، ولذلك .. أقر الإسلام الرق ولكنه أقره على صورة جديدة تنتهي بالتدريج إلى إلغائه وإزالة ما بقي من مخلفاته ، ودون إحداث أي أثر سيئ يقوض نظام المجتمع من أساسه .

إن الوسيلة التي شرعها الإسلام لتخليص المجتمع من الرق في مختلف صوره وأشكاله تتلخص في العمل على تضييق الروافد التي كانت تساعد على قيام الرق وانتشاره وتكفل بقاءه ، وبالتالي في توسعة الأبواب والنوافذ التي تؤدي إلى تحرير الرقيق من قيده واساره . وبذلك أصبح الرق أشبه ما يكون بنهر كثرت مصباته وجفت منابعه وأمطاره ..

وخليق بنهر هذا شأنه أن يكون مصيره الجفاف في النهاية وبذلك كفل الإسلام القضاء على الرق في صورة سليمة هادئة ،

وأتاح للعالم فترة للانتقال يتخلص فيها شيئاً فشيئاً من هذا النظام وآثاره ..

لقد كان من أهم المصادر التي كان يستمد منها الرق وجوده وانتشاره سبعة مصادر :

أحدها : الحرب بجميع أنواعها : فكان الأسير في حرب أهلية أو خارجية لا يخرج مصيره عن القتل أو الاسترقاق .

وثانيها : القرصنة أو الخطف والسبي : فكان ضحايا هذه الاعتداءات يعاملون معاملة أسرى الحرب فيفرض عليهم الرق ..

وثالثها : ارتكاب بعض الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة والزنا : فكان يحكم على مرتكب واحدة منها بالرق لمصلحة الدولة أو لمصلحة المجني عليه أو أسرته .

ورابعها : عجز المدين عن دفع دينه : فكان يحكم عليه بالرق لمصلحة دائنه ..

وخامسها : سلطة الوالد على أولاده : فكان يباح له أن يبيعهم بيع الأرقاء ..

وسادسها : سلطة الشخص على نفسه : فكان يباح للمعوز أن يتنازل عن حريته ويبيع نفسه لقاء ثمن معين ..

وكان هذا النوع من الاسترقاق قائماً في الحبشة ــ مع المسلمين خاصة ــ حيث كان الدائن المسيحي يسترق المسلم إذا عجز عن سداد دينه ، ولم يبطل

هذا النوع من الاسترقاق إلا بعد الاحتلال الإيطالي لمملكة هيلا سلاسي المتحجرة ...

وسابعها : تناسل الأرقاء : فكان ولد الأمة يولد رقيقاً ولو كان أبوه حراً ، وكانت هذه الروافد تقذف كل يوم في تيار الرق بآلاف مؤلفة من الأنفس حتى أن عدد الأرقاء كان يزيد في كثير من الأمم على عدد الأحرار زيادة كبيرة ..

لقد جاء الإسلام وروافد الرق على هذه الكثرة والغزارة التي أشرنا إليها فحرمها جميعاً ما عدا رافدين اثنين وهما رق الوراثة ـ وهو الرق الذي يفرض على من تلده الأمة ـ ورق الحرب ـ وهو الرق الذي يفرض على أسرى الحرب . ثم عمد الإسلام بعد ذلك إلى هذين الرافدين فقيدهما بقيود تكفل نضوب معينهما بعد مدة قصيرة .

فمن أهم القيود التي قيد بها رق الوراثة أن استثنى منه أولاد الأماء من سادتهن فقرر أن من تأتي به الجارية من سيدها يولد حراً إذا اعترف به السيد ، وإذا لاحظنا أن الغالب في أولاد الجواري أن يكونوا من مواليهم أنفسهم ـ لأن الأغنياء ما كانوا يقتنون الجواري إلا لمتعهم الخاصة ـ تبين لنا أن هذا القيد الذي قيد به الإسلام رق الوراثة .. كفيل بالعمل على جفاف هذا الرافد نفسه ونضوب معينه بعد فترة وجيزة ..

والتفت الإسلام بعد ذلك إلى المصدر الثاني للرق وهو رق الحرب فاستثنى منه الذين يؤسرون في حرب بين طائفتين من المسلمين فهؤلاء لا يضرب عليهم الرق سواء أكانوا من الطائفة

المعتدية أو الطائفة الأخرى . أما الحروب الأخرى وهي التي تكون بين المسلمين وغيرهم فلا تؤدي إلى رق من يؤسرون فيها إلا بشروط كثيرة من أهمها أن تكون الحرب شرعية أي حرباً يجيزها الإسلام وفق قوانينه وتعاليمه ولا يكاد الإسلام يبيح الحرب إلا في ثلاث حالات : حالة الدفاع وحالة نكث العهد والمواثيق ، وحالة إثارة الفتن والاضطرابات ضد المسلمين ..

فإذا لم تكن الحرب مشروعة ـ بأن أعلنت في غير الحالات السابقة أو لم تنفذ وفق المناهج التي وضعها الإسلام ، فإن مثل هذه الحرب لا تؤدي إلى الاسترقاق ـ وحتى مع توافر هذه الشروط فإن الإسلام لا يجعل الرق نتيجة للأسر بل يبيح للإمام أن يمن على الأسرى بدون مقابل . أو يطلق سراحهم في نظير فدية أو على عمل يؤدونه ، أو في نظير أسرى من المسلمين عند العدو أو في نظير جزية تفرض على رؤوسهم . بل إن القرآن قد تحاشى أن يذكر الرق من بين الأمور التي يباح للإمام أن يعامل بها الأسرى ، واقتصر على ذكر المن أو الداء (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها)[1] .

ومن هذا يظهر أن الإسلام قد سلك حيال الرق عن طريق الأسر نفس المسلك الذي سلكه حيال الرق الوراثي . فقد قيده بقيود تكفل القضاء عليه فهو لم يجعله نتيجة لأزمة للحرب بل جعله مسلكاً من المسالك التي يصح أن يتخذها الإمام ، ولم

(١) سورة محمد الآية (٤) .

يرغب فيه بل رغب في غيره وفضله عليه على أنه لم يجز الالتجاء إليه إلا بشروط لا تكاد تتوافر إلا في الحروب التي اضطر إليها الإسلام في مبدأ ظهوره ، أما بعد استقراره وتنظيم العلاقات بين أممه والأمم الأخرى فيندر أن تتوافر هذه الشروط ومعنى هذا أن الإسلام لم يبح هذا النوع من الرق إلا لأجل معلوم ..

هذا ما فعله الإسلام حيال روافد الرق ومصادره : قضى عليها جميعاً ما عدا رافدين اثنين : وقيد هذين الرافدين بقيود تكفل نضوب معينهما بعد أمد غير طويل .. وشرع الوسائل والأسباب التي تؤدي إلى تحرير الرقيق وخلاصه من العيش الذليل ..

لقد فتح الإسلام أمامهم باب الحرية وأتاح لتحريرهم فرصاً شتى .. فجعل من أسباب العتق أن يجري على لسان السيد في أية صورة لفظ يدل صراحة على عتق عبده . سواء أكان قاصداً معنى اللفظ أم لم يكن قاصداً له . وسواء أكان جاداً في قوله أو هازلاً ، وسواء أكان في حالة عادية أم فاقداً لرشده بفعل الخمر وما إليها من المحرمات ومن هذا يظهر أن الإسلام يلتمس أوهى الأسباب لتحرير الأرقاء ..

ومن أسباب العتق في الإسلام أن يجري على لسان السيد في أي صورة لفظ « التدبير » أي الوصية بتحرير العبد بعد موت سيده ، وقد اتخذ الإسلام جميع وسائل الحيطة لضمان الحرية لهذا النوع من العبيد ، فحظر على السيد في أثناء حياته أن يبيع عبده المدبر أو يرهنه أو يهبه ، أو يتصرف فيه تصرفاً ينقل ملكيته إلى شخص آخر ..

ومن أسباب العتق في الإسلام أن يأتي السيد من جاريته بولد

يعترف ببنوته ففي هذه الحالة يعتبر الولد حراً من يوم ولادته وتصبح الأم نفسها مستحقة للحرية بعد وفاة سيدها ..

ومن أسباب العتق في الإسلام أن يكاتب السيد عبده أي يتفق معه على أن يعتقه إذا دفع له مبلغاً من المال . وقد هيأ الإسلام لهذا النوع من العبيد جميع وسائل الحصول على المال في صورة تدل أوضح دلالة على شدة حرصه على الحرية . فأباح لهم أن يتصرفوا تصرف الأحرار فيبيعوا ويشتروا ويتاجروا ويعقدوا العقود حتى يستطيعوا أن يجمعوا المال اللازم لتحريرهم . ولم يكتف الإسلام بذلك بل خصص جزءاً من ميزانية الدولة لمساعدتهم وتخليصهم من الرق ويدل ظاهر القرآن على أنه لا يصح للسيد أن يمتنع عن قبول المكاتبة متى أبدى العبد رغبته .

وقد سأل ابن جريج عطاء بن أبي رباح فقال :

أواجب علي إذا طلب مني مملوكي أن أكاتبه ؟ فأجابه بقوله : ما أراه إلا واجباً . ثم قرأ قول الله تعالى . « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم »[1] . وإذا كان الرقيق المكاتب جارية سرى حكمها على من تلده بعد مكاتبتها ، فيعتق معها بدون عوض بمجرد أدائها المبلغ الذي تعاقدت عليه مع سيدها سواء أرضي السيد بذلك أم لم يرض .. ؟

ثم عمد الإسلام إلى طائفة كبيرة من الجرائم والأخطاء التي يكثر حدوثها ، وجعل كفارتها تحرير الأرقاء . فجعله تكفيراً

---

(١) سورة النور الآية رقم (٣٣)

للقتل الناشئ من خطأ وما في حكمه . (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) وجعله كفارة للحنث في اليمين .

« لا يؤاخذكم الله باللغو في أيْمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون به أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » وجعله كفارة عن الظهار ــ أي إذا قال الرجل لزوجته أنت علي كظهر أمي ــ « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » ..

وجعل الإسلام عتق الرقيق من أعظم القربات عند الله حتى أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ليضرب به المثل في جلال العمل وعظم الأجر « من فعل كذا فكأنما اعتق رقبة » أو « يكون ثوابه عند الله ثواب من أعتق رقبة » ولم يكتف الإسلام بهذا كله بل خصص كذلك سهماً من أموال الزكاة ــ أي جزءاً من ميزانية الدولة ــ للإنفاق على تحرير الأرقاء ، أي في شرائهم وعتقهم ومديد المعونة إليهم ..

فقال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب » وبذلك أصبح الرق كما قلنا أشبه شيء بنهر كثرت مصباته وجفت منابعه . فكان ولا بد أن يتوقف مسيره وتمحى بمرور الزمن آثاره ..

إن الدولة الإسلامية تعتبر تحرير الرقيق من أهم أغراضها الإنسانية ، وهي لهذا ترصد ثمن ميزانيتها العامة لتحقيق هذه الغاية النبيلة . كما جعل العتق كفارة في كثير من الجرائم والمخالفات الدينية كالقتل الخطأ والظهار ، والإيمان ، وإفطار رمضان ..

وإلى أن تتحقق الحرية لجميع الأرقاء في النهاية سن لهم الإسلام

قوانين لم تعرفها ـ إلى الآن ـ معسكرات الأسرى في بلاد الحضارة الأوربية .

وإذا كان العالم لم ينس هذه المجازر التي قام بها فرسان الحرب العالمية الثانية ضد اخوانهم في الجنس والعقيدة وإذا كانت معسكرات الاعتقال ، وأفران الغاز ، وحرب الإبادة التي شنها الحلفاء والألمان ضد خصومهم في الرأي والسياسة ، وإذا كانت عمليات الحرق ، والتجويع ، والتعذيب وقطع الرقاب التي مارستها فرنسا ضد المجاهدين على أرض الجزائر العربية المسلمة . إذا كان هذا كله لا يزال حياً في أذهان الناس ، ولا تزال صورته البشعة ماثلة أمام أعين العالم حتى هذه اللحظة فإن الإسلام يسمو بتعاليمه فوق هذه الهمجية التي انحدرت إليها شعوب تزعم أنها فوق البشرية ، وتدعي أنها سيدة العالم في الاخاء والمساواة والحرية..

لقد منح الإسلام للأرقاء نفس الحقوق التي للسادة في مطالب الحياة العامة وكفل لهم الطمأنينة والسلامة والعافية ، وهيأ لهم الفرص المختلفة للخروج بهم إلى عالم السيادة والحرية وشملهم بعدله الذي لا يعرف المحاباة ولا التفرقة ..

لقد كفل الإسلام للأرقاء غذاء كغذاء سادتهم وكساء ككساء أوليائهم .

روى أبو داود عن المعرور بن سويد قال : دخلنا على أبي ذر « بالربذة » فإذا عليه بردة وعلى غلامه (عبده) مثله فقلنا يا أبا ذر : لو أخذت برد غلامك إلى بردك فكانت حُلَّة وكسوته ثوباً غيره ؟

فقال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم يقول : هم

إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليكسه مما يكتسي ، ولا يكلفه ما يغلبه (ما يتعبه) فإن كلفه ما يغلبه فيلعنه ..

وحفظ الإسلام كرامتهم فلا يجوز خدشها بكلمة نابية ..

يقول : النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ « من قذف مملوكة بريئاً مما قال أقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال » « ومن ضرب مملوكة ظلماً قيد منه يوم القيامة » .

وروى أبو داود أن ابن عمر اعتق مملوكاً له ثم أخذ من الأرض عوداً أو شيئاً فقال : ما لي فيه من الأجر ما يساوي هذا سمعت رسول الله يقول :

« من لطم مملوكاً أو ضربه فكفارته عتقه » .

وروى أحمد عن أم سلمة قالت :

كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في بيتي وكان بيده سواك فدعا وصيفة لها ــ فلم ترد ــ حتى استبان الغضب في وجهه . وخرجت أم سلمة إلى الحجرات فوجدت الوصيفة وهي تلعب ببهيمة (شاة صغيرة) فقالت : أراك تلعبين بهذه البهيمة ورسول الله يدعوك ؟

فقالت : لا . والذي بعثك بالحق ما سمعتك . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لولا خشية القود لأوجعتك بهذا السواك » .

والإسلام يقدم العبد الرقيق على الحر متى كان العبد أكفأ من الحر ، وأمر المسلمين بالسمع والطاعة إذا ملك عبد .. يقول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

عبد أطاع الله ، وأطاع مواليه أدخله الله الجنة قبل مواليه بسبعين خريفاً فيقول السيد ـ رب هذا كان عبدي في الدنيا ـ أي كيف يقدم علي في الجنة ـ قال الله : « جازيته بعمله وجازيتك بعملك .. » .

ويقول النبي أيضاً : لقد أوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » ولقد أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن ينادى الرقيق بكلمات لا تجرح ولا تؤذي « لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ولا يقل المملوك ربي وربتي وليقل المالك فتاي وفتاتي وليقل المملوك سيدتي وسيدي فإنكم المملوكون والرب عز وجل » .

ورأى النبي رجلاً على دابة وغلامه ـ عبده ـ يسعى خلفه فقال : « يا عبد الله : احمله خلفك فإنما هو أخوك روحه مثل روحك » .

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمنع التفريق في السبى بين الوالدة وولدها ويقول : من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين احبته يوم القيامة ؟

يقول « فاندبرغ » : « لقد وضع الإسلام قواعد كثيرة للرقيق تدل على ما كان ينطوي عليه محمد وأتباعه من شعور إنساني نبيل يناقض كل المناقضة تلك الأساليب التي كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعي أنها تمشي في طليعة الحضارة .. »

لقد ولى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلالاً على المدينة فترة من الزمن ، وأمر أسامه بن زيد على جيش فيه أبو بكر وعمر ،

ومرت بالمسلمين فترة كان كثير من أبناء فارس والروم ـ الذين أسروا في الحروب التي وقعت بينهم وبين العرب ـ متولين لأرقى المناصب .

وقد سأل هشام بن عبد الملك الزهري إمام الحديث النبوي فقال له : من يسود أهل مكة ؟ فقال الزهري : عطاء .. قال هشام : وبم سادهم ؟ قال : بالديانة والرواية . فقال هشام : نعم من كان ذا ديانة حقت له الرئاسة . ثم سأله عن اليمن ومصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة فأخذ الزهري يعد له سادات البلاد وكانوا من الموالي حتى أتى على ذكر النخعي فقال : إنه عربي فقال هشام : والله ليسودن الموالي العرب ويخطب لهم على المنابر ..

وقال عمر بن الخطاب حين اجتمع للتشاور بالمسلمين في آخر حياته لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته ..

ولم يكن الرق أو الجنس أو العنصر في ظل الإسلام مانعاً لأحد من الوصول إلى المراتب العليا ما دامت عنده مؤهلاتها .. لقد كان عبادة بن الصامت أسود اللون ، وكان رئيس الوفد الذي أرسله عمرو بن العاص لمفاوضة المقوقس حاكم القبط عند فتح العرب لمصر . فهابه المقوقس لسواد لونه وبسطة جسمه وطلب من الوفد أن يتكلم غيره فردوا عليه : إن هذا أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا وقد أمره الأمير علينا فلا تخالف أمره . فعجب المقوقس كيف يكون الأسود أفضلهم ؟ فردوا عليه بأن الألوان ليست مما تقاس به الرجال فهناك مقياس الخلق والمواهب الفاضلة ..

ولهذه المعاملة الطيبة التي كان يعامل بها الرقيق تمنى كثير من

أحرار غير المسلمين أن يسترقوا ليسعدوا سعادة الرقيق في ظل الإسلام . وهذا هو زيد بن حارثة مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجيء أهله ليطلبوه من النبي فترك رسول الله الأمر لزيد يقرر فيه ما يختار فقال زيد : ذل الرق مع صحبة رسول الله أحب إلي من عز الحرية مع مفارقته .. بل إن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ زوج زيداً هذا من شريفة قرشية هي زينب بنت جحش ..

* * *

هذا هو موقف الإسلام وموقف غيره من الأديان ..

فماذا فعلت أوربا باسم الاستعمار ؟

عندما اتصلت أوربا بإفريقيا كان هذا الاتصال مأساة إنسانية عرضت سكان هذه القارة لليل طويل ، خمسة قرون متوالية .

فإن الدول الأوربية نظمت اختطاف هؤلاء المساكين واجتلابهم إلى بلادها لتكلفهم بأشق الأعمال ..

فلما اكتشفت أمريكا آخر القرن الخامس عشر ازداد البلاء النازل بهؤلاء الإفريقيين التعساء وتقول دائرة المعارف البريطانية ج ٢ ص ٧٧٩ .

إن اصطياد الرقيق من قراهم المحاطة بالأدغال كان يتم بإيقاد النار في الهشيم الذي صنعت منه الحظائر المحيطة بالقرى حتى إذا نفر أهالي القرية إلى الخلاء تصيدهم الانجليز بما أعدوا لهم من وسائل وشراك[1] ..

---

(١) وقد عرض لهذه المأساة الكاتب الزنجي الأمريكي في كتابه الجذور Roots

وعددا من كانوا يموتون من هذا القنص الآدمي في الرحلة إلى الشاطئ الذي ترسو عليه مراكب الشركة الانجليزية وغيرها كان ثلث الباقين يموتون بسبب تغير الطقس ويموت في أثناء الشحن حوالى ٤,٥ ٪ منهم و ١٢ ٪ في أثناء الرحلة . أما من كانوا يموتون في المستعمرات فلا حصر لهم فإن مستعمرة جمايكا البريطانية وحدها قد دخلها سنة ١٨٢٠م ما لا يقل عن ثمانمائة ألف رقيق ، ولم يبق في تلك السنة منهم سوى ثلاثمائة وأربعين ألفاً ..

وكثر عدد الزنوج في أمريكا حتى بلغ حوالى عشرين مليوناً هاجر أكثرهم منذ أعلن تحريرهم وأسسوا لهم دولة في إفريقيا تعرف الآن باسم « ليبريا » .

وكان احتكار تجارة الرقيق على سواحل إفريقيا مقصوراً على الإسبانيين ثم انتقل إلى البرتغاليين من عام ١٥٨٠ إلى ١٦٤٠م ثم تسابقت الدول الأوربية إلى هذه التجارة بعد ذلك ..

وكان التجار البريطانيون يوردون الرقيق إلى المستعمرات الإسبانية ومكثت هذه التجارة مدة طويلة في أيدي شركات بريطانية بناء على تأييد حكومة بريطانيا لها ، ويقدر « برايان أوارد » مجموع ما استولى عليه البريطانيون من الرقيق بحوالى ٢ ١٣٠ ٠٠٠ شخص ..

لقد بلغت تجارة الرقيق أوجها قبل حرب الاستقلال الأمريكية وكانت قواعدها في ليفربول ولندن وبريستول ولانكشاير ..

وكانت الملكة إليزابيت الأولى تشارك فيها وأعارت التجار بعض أساطيلها وكانت شريكة « لجون هوكنز » أكبر تاجر رقيق في

تاريخ العالم ، وقد رفعته الملكة إلى مرتبة النبلاء وجعلت شعاره رقيقاً يرفل في السلاسل والقيود .. ومن المفارقات الطريفة أن السفينة التي أعارتها ـ الملكة ـ لجون هوكنز كانت تسمى « يسوع » وكان مخصصاً للإبحار بالرقيق من الموانئ المذكورة إلى مواطن الاستعباد ١٩٢ سفينة تتسع حمولتها في الرحلة الواحدة لحوالى ٤٧١٤ رقيقاً .. وقد طلبت انجلترا من رجال الدين المسيحي مبرراً لهذه التجارة فأسعفوها بنصوص التوراة التي تقدمت في الكلام على الرق عند اليهود ، وبمقتضى هذه الفتوى كان استعباد الزنوج واجباً عند الأوربيين لأنهم من سلالة يافث بن نوح الذي كتب على ذريته الاسترقاق كما تزعم ذلك أسفار العهد القديم ..

لم تكن هناك حقوق مقررة يلتزمها الملاك في معاملة هؤلاء الرقيق ..

لقد كان العكس هو الواقع تماماً . في ١٧ من مارس ١٦٨٥ م صدر قانون بتنظيم أحوال الأرقاء في المستعمرات ولكنه ـ بالرغم من قسوته ـ لقي معارضة شديدة من التجار وأصحاب الأراضي التي كان يعمل فيها هؤلاء المساكين التعساء ..

ومما جاء في هذا القانون :

« من اعتدى منهم ـ من الرقيق ـ على السادة بأقل اعتداء قتل ، وإذا سرق عوقب أشد العقاب ، وإذا أبق العبد قطعت اذناه ورجلاه[1] وكوي بالحديد المحمى وإذا هرب للمرة الثانية قتل » وكان الانجليز في مستعمرة جمايكا يعدمون من هرب أكثر

(١) انظر قصة جذور Roots

من ستة أشهر ، والسيد إذا قتل عبده أمكن أن يجد مبرراً للقتل ويبرأ ، وكانت الجمعيات الاستعمارية لا تهتم بعلاقة السيد بعبده ، وحرمت على الملونين وظائف البيض كما حرمت التزاوج بينهم ، ومنعت تمكين السود من التعليم وفي عهد لويس الرابع عشر كان القانون ينص على احتقار الجنس الأسود مهما كانت منزلته . وفي الولايات الجنوبية بأمريكا كان الرقيق مهاناً جداً ، وإذا تجمع سبعة منهم في الطريق عد ذلك جريمة ويجوز للرجل الأبيض إذا مر بهم أن يقبض عليهم ويجلدهم عشرين جلدة . وقد نص القانون على أن العبيد لا نفس لهم ولا روح .. وليست لهم فطانة ولا ذكاء ولا إرادة وأن الحياة لا تدب إلا في أذرعهم فقط وفي سنة ١٨٥٩ صوتت الجمعية التشريعية في « اركانزا » على طرد جميع الملونين من أراضيها وأنذرت من لم يفارق الوطن ببيعه في المزاد العلني ..

وعندما طالب إبراهيم لنكولن بتحرير الأرقاء كان مصيره القتل غيلة وغدراً .. ومشروع الحقوق المدنية الذي وافق عليه الكونجرس الأمريكي قوبل بمعارضة شديدة ولم ينفذ حتى بقوة السلاح وفي جنوب إفريقيا يمارس البيض جريمتهم البشعة ضد الأكثرية الافريقية واللوحات التي تحمل التحذير لزنوج أمريكا وجرائم جماعة « الكلوكس » تفيض بها الصحف الأمريكية .. وكل محاولة تبذل لتصفية ما بقي من آثار هذه المأساة الإنسانية تذهب هباء أمام دعاة التفرقة العنصرية ..

لقد كتب الأب « تاكر » يسجل : « على الرصيف البحري » في « لواندا » كانت العين لا تزال حتى سنة ١٨٧٠م تقع على

مقعد رخامي كان (الأسقف) يقعد عليه ويمضي في عملية « تعميد » جماعات من هؤلاء البائسين المساكين وهم يمرون به في زوارقهم وكانت الحكومة تجمع ضرائبها و « رجل الله » يقبض أجره ويلج العبيد لأول مرة باب « ديانة » الرجل الأبيض . وكانت الكنيسة على وجه العموم راضية بنصيبها في الأسلاب وقد أثبتت الأبحاث الجديدة التي قام بها الأب « جادان » أخيراً في سجلات « الكنيسة » في « لواندا » صحة الرأي بأن الكنيسة (كانت قانعة بأن تطالب بتعميد العبيد المرسلين إلى أمريكا أولاً حتى تيسر انقاذ أرواحهم على الأقل ، وفيما عدا هذا لم تكن الكنيسة ترى في المسألة أية « مخالفة » صحيح أن الأساقفة كانوا يصرون على أن تحمل كل سفينة ناقلة للعبيد « قساً » يصحبها في رحلتها بين القارتين وهي الرحلة البحرية القاتلة بين رحلتين على الأقدام :
الرحلة الأولى : من الغابة إلى ساحل المحيط الأطلنطي .
الرحلة الثانية : من السفينة إلى المزارع وإلى المناجم الأمريكية .

ولكن من سوء الحظ أن الرحلة لم تكن لتجذب سوى عدد قليل جداً من « القساوسة » وكان لا بد من الالتجاء إلى كهنة فقراء وغيرهم ممن لم يكونوا من النوع المطلوب وهكذا فشلت الكنيسة في معونتها على ضآلتها .

ولم تشعر الكنيسة بأنها قادرة على القيام بأكثر من هذا ، وإنما راح الأسقف يجلس على مقعده الرخامي فيعد العبيد ويقبض نصيبه من رسوم التصدير ..

وقد وجد الأب « جادان » أن ضريبة « التعميد » في القرن

السابع عشر « كانت تبلغ ثلاثمائة ريس[1] » يدفعها تجار الرقيق عن كل رأس وكانت تذهب بأكملها إلى « قس » أبرشية « ريمديوس » وأبرشية « بنجيلا » ، ولكن بعد انتهاء القرن السابع عشر حين صار تصدير العبيد تجارة معترفاً بها صار الأسقف يحجز من هذه الضريبة . (١٥٠) ريساً لحسابه .

لقد ذكر العالمان « جاك آلان . جورج . وهيرالد » في تقرير كتب في مائتي صفحة وقدم إلى لجنة حقوق الإنسان بهيئة الأمم المتحدة ــ بعد أن قاما برحلة بدآها من مراكش مارين بنيجريا والكونغو والسودان . وشاهدا حظائر الرقيق في تاو ، وطورا ، وطبوره ، وسواكن ورأيا وحشية القناصة وسوء معاملة المخطوفين المساكين ..

ذكر هذان العالمان أن ثلث الرقيق يموت في الطريق وخمسه يموت مريضاً في المعتقل والباقي يباع بعد ذلك وقد صادفا في بعض البلاد سودانيين مسلمين بعثهما شيخ من دارفور لشراء بعض الرقيق واعتاقهم ، ورأيا كثيراً من المسلمين يفعل مثل ذلك ، كما شاهدوا في سواكن رئيس عملية الشحن للخارج « والتر كرومهولتر » الألماني الذي احترف تجارة الرقيق بعد أن أطلق من أسر الانجليز عندما كان جاويشاً في الحملة الألمانية الإفريقية وله دراية وخبرة بهذه التجارة في جميع أنحاء إفريقيا ..

ويقولان : إن الرقيق كان يشحن في قاع السفن تحت البضائع خوف التفتيش في الميناء وفي عرض البحار تقابلهم نقالات يتم

---

(١) أي : عبد .

عليها البيع والتوزيع في الخارج وهذه الحظائر يعرفها ويحميها المستعمرون الفرنسيون والانجليز ..

كما أن أسواق الرقيق الذي لا يعترف به الإسلام والذي قرر إلغاءه نظراً لانعدام الأسباب الدينية الداعية إليه كان موجوداً في البلاد التي يحتلها الانجليز في جنوبي شبه الجزيرة العربية .

يقول « منتسكيو » : « إذا طلب مني أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيداً فإنني أقول إن شعوب أوربا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم تر بدأً من أن تستعبد شعوب إفريقيا لكي تستخدمها في استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة ، والشعوب المذكورة ما هي إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس ، وأنفها أفطس فطساً شنيعاً بحيث يكاد أن يكون من المستحيل أن ترثي لها ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى ــ وهو ذو الحكمة السامية ــ قد وضع روحاً ــ وعلى الأخص روحاً طيبة ــ في داخل جسم حالك السواد » .

وفي إفريقيا الآن يقولون :

عندما جاء الإستعمار كانت معنا الأرض وكان يحمل معه الإنجيل ...

فأعطانا الإنجيل وأخذ منا الأرض ..

ثم رحل بعد أن نهب الأرض وحرق الإنجيل ... !!!

حقيقة أتاتورك

أتاتورك .. أو الذئب الأغبر كما أطلق عليه بعض مؤرخي الغرب ..

لقد بعث من جديد هنا في مصر ، وظهر ممتطياً صهوة جواده على صفحات الجرائد والمجلات وفي دور النشر !

فكيف خرج فجأة من القبر ؟ وما الذي يذكرنا به بعد أن نسيه الترك ؟ كلها أسئلة لا تجد جواباً مقنعاً .. إنها شيء أشبه بالتهاويم والألغاز في عالم السحر أو عثرة لسان في سياق الأحاديث والذكريات التي تدور هذه الأيام في مصر ، وأياً كان الجواب عن أي من هذه الأسئلة .. فالذين يحسنون الظن « بالذئب » لم يقرأوا تاريخه جيداً .. والذين يكتبون عنه لم يعرفوه كثيراً .

لقد بدأ حياته مجاهداً ، وسماه الشعب التركي « غازياً » وفي دعوته إلى عقد اجتماع « الجمعية الوطنية » كتب بالحرف الواحد قائلاً :

بما أن افتتاح الجمعية الوطنية الكبرى يصادف يوم الجمعة فعلى جميع النواب والشخصيات الوطنية أن تحضر إلى المسجد الكبير في أنقره حيث ستتلى آيات القرآن الكريم ، وتتام الصلاة في هذا اليوم المقدس وبعد الصلاة يقوم النواب إلى مبنى الجمعية الوطنية الكبرى حيث يرفع العلم فوق ساريته ، وتذبح الخراف

وفقاً لتقاليد الأضحى الإسلامية ، وتأكيداً لعظمة هذا اليوم المقدس يتوجب على جميع حكام الألوية أن يدعوا الناس للصلاة في المساجد حيث تتلى السيرة النبوية وتتلى آيات الذكر الحكيم .. ! ! [1]

هكذا كان « أتاتورك » في مطلع حياته .. كانت والدته الصالحة ترغب في أن يكون « خوجة » أي عالماً يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .. فما الذي جرى له وعليه بعد ذلك ؟

هل كان أصلاً من طائفة « الدونمة » [2] ؟ أم ماسونياً وقع في حبائل « اليهودية » العالمية ؟ أم قومياً من غلاة الطورانية التركية ؟

كل هذا ممكن وجائز ... ولكن الحكم على هذا النوع من الرجال لا يجيء عفواً وعاطفة ، إنما يكون الحكم صادقاً وأميناً بالواقع الذي لا يعتريه شك والدليل الناطق بالحقيقة والحق ..

لقد رسخ في ذهني منذ سنوات دراستي الأولى في الأزهر في مطلع الأربعينات من هذا القرن . أن مصطفى كمال من زعماء الإسلام والجهاد في هذا العصر . كنت قد قرأت كتاباً من كتب تلك السلسلة التي كان يصدرها الأستاذ محمد صبيح عن القادة والزعماء في الشرق والغرب وأذكر أنه قال في كتابه عن أتاتورك :

« لو لم يكن عمل شيئاً يستحق عليه المثوبة والأجر لكفاه سبباً لدخول الجنة وتحرير وطنه من الاحتلال والقهر » .

---

(١) أنظر « حوار في أنقره » تأليف محمد جلال كشك ص ٥٤ ، ص ٥٥ طبعة المختار الإسلامي ..

(٢) طائفة من اليهود الذين تظاهروا باعتناق الإسلام وعاشوا في كنف الدولة العثمانية بمدينة « سالونيك » اليونانية .

ولقد نظر الكثيرون من الزعماء والقادة إلى مصطفى كمال نظرة إعجاب وحب وكان المرحوم مصطفى النحاس باشا من المعجبين به هنا في مصر .. وقد ذكر الرئيس محمد أنور السادات أنه تأثر به في مرحلة مبكرة من العمر ، وأن والده كان يعلق صورته في البيت . ويشيد بزعامته وجهاده في كل وقت ...

فهل كان « أتاتورك » يستحق كل هذا الإعجاب والحب ؟ إن ما فعله الرجل لتحرير بلاده عظيم من غير شك .

لكن .. قليل هم العظماء والزعماء الذين يثرون هذه العظمة وتلك الزعامة إلى نهاية الشوط ..

هتلر ... كان أكثر عظمة من أتاتورك .. وانتهى به الأمر إلى الانتحار في قبو مظلم تحت الأرض ! وموسوليني فعل لإيطاليا أكثر مما فعل أتاتورك .. وكان مصيره الصلب على جذع شجرة في جبال الألب ! وغيرهما كثير من المغرورين والزعماء الذين جلبوا لأوطانهم المذلة والعار والقحط والجدب ! ! !

* * *

لقد بدأت معرفتي تتسع حول هذه الشخصية منذ سنوات قليلة خلت كنت في رحلة دراسية لمدينة كمبردج (Cambridge City) فالتقيت هناك مصادفة ببعض الطلبة الأتراك الذين يدرسون في جامعتها الشهيرة . وبعد أن تعارفنا ، وتعمقت بيننا الالفة سألت هؤلاء الاخوة قائلاً :

« ترى إلى أي مدى نجح أتاتورك ، وفي أي صف من القادة العظام يضعه الناس والشعب ؟

وكانت مفاجأة لم أتوقعها من قبل .. لقد صاح هؤلاء الطلبة

في وجهي بعنف .. وقالوا : لا تقل « أتاتورك » بل قل « أخبث ترك » !!!

فعلمت من هذه اللحظة أن « أتاتورك » معناها (أبو الترك) وأن هؤلاء الاخوة الأشقاء يرفضون الاعتراف به كأب .. بل هو في نظرهم أخبث الخبثاء الذين نكب بهم الشعب !!!

وفي موسم الحج قبل أربع سنوات ، التقيت في فندق « جدة بالاس » ـ بوفد يمثل حزب السلامة الوطني . وسمعت من هؤلاء النواب والقادة ما لا يكتب ! وكشفوا النقاب عن كثير من حياة « الذئب » أو « الثعلب » !

لكن لماذا أكتب اليوم عن هذا الرجل ؟

لقد ذكر الأستاذ / عبد الحميد عبد الغني في مقال له نشر بأخبار اليوم[1] ،.

« في الواقع أن حركته ـ أي حركة أتاتورك ـ لم تكن حركة عداء للدين الإسلامي ! ولا حركة انفصال اجتماعي أو فكري عن العالم الإسلامي ! بل كانت حركته حركة قومية بحتة ترمي إلى النهوض بتركيا من القيود بتخليصها من القيود التي تكبل أيديها ، وتقيد خطاها باسم الخلافة الإسلامية ، وطقوسها ومراسمها » . وفي المقال نفسه .. وبعد أسطر قليلة . وفي الصفحة نفسها يقول الكاتب ما نصه :

« قرر أتاتورك أن يستبدل بالحروف العربية الحروف اللاتينية حتى في طبع المصحف الشريف ، وكذلك أسرف أتاتورك في

---

(١) أخبار اليوم ١٩٧٦/٩/٢٥ .

قوانين الأحوال الشخصية إلى دائرة الخروج على القواعد الإسلامية المقررة !!! فقد حرم القانون تعدد الزوجات تحريماً باتاً ؟! وجعل للقضاء وحده حق الفصل في طلب الطلاق ! وعدل قواعد الميراث فسوى بين الابن والبنت !!! ورفع عن المرأة الحجاب ..! واشتط وأسرف فدخل دائرة محرمة ؟! حيث أباح للمرأة المسلمة أن تتزوج من تشاء من أي دين كان ؟! وقرر إلغاء الأوقاف ووزارة الأوقاف ..؟! » .

هذا هو ما فعله « أتاتورك » كما ذكر الكاتب بخط يده . فكيف يستقيم ما كتبه أولاً ، مع ما ذكره ثانياً ؟ وكيف يقول الكاتب قبل ذلك بأن حركته لم تكن حركة عداء للدين الإسلامي ، ولا حركة انفصال اجتماعي أو فكري عن العالم الإسلامي ؟

وإذا لم يكن هذا هو الإلحاد والردة ، والانفصال والقطيعة فهل كان ينتظر الكاتب أن يقوم صاحبنا بهدم الكعبة وتخريب المسجد النبوي في المدينة ؟!

إن « أتاتورك » لم يكن ينطق بلسانه ، أو يفكر بعقله أو يعمل لحساب شعبه ووطنه . لقد كان آلة من آلات التدمير التي صنعها الغرب لحسابه ، وكان لعبة من تلك اللعب التي تجيد تشغيلها الجمعيات السرية لحساب الصليبية واليهودية وقد نشأ أتاتورك وعاش في أحضان جمعية « الاتحاد والترقي » التي لعبت أخطر الأدوار لتدمير دولة الخلافة .

وكانت هذه الجمعية وأعضائها من أكبر المخربين للدولة ..

غير أننا لا نلوم هذا المؤلف أو ذاك حين يكتب . فالكاتب والقارئ يكتب ويقرأ ما يملي عليه أو يفرض ، لأن أكثر كتابنا

ومفكرينا من تلامذة الغرب الذي يرى في الإسلام عدوه اللدود الأوحد ، ولم يكون مصطفى كمال إلا واحداً من هؤلاء التلاميذ في الروح والمشرب .

ولن نجد دليلاً أصدق مما كتبه « عرفان أوركا » وقد ألف كتابه عن « أتاتورك » إعجاباً بشخصه وحباً[1] .

« كان « أي أتاتورك » قليل الاختلاط ، غير محبب من الأصدقاء ، وكان شديد الغرام بالأناث يجذبه هذا الجنس كالمغناطيس ، وكان يشعر بفرح وسرور حين يعتدي على الآخر ويسطو عليه ! وكانت هذه طبيعته التي فطر عليها وقد تجلت هذه الطبيعة في تصرفاته ..

ولم يكن يعترف بعواطف غيره لأنه لا يرى أحداً يوازيه ، وكان مفطوراً على حب التغلب على الآخرين ، وإخضاعهم لإرادته وهواه ، وكان يحب أن يبقى على القمة دائماً ...!

وقد هضم في شبابه تعاليم « ضياء كوكب الب » هضماً جيداً ، وقد كافح « ضياء كوكب الب » للتنور والحرية الدينية ، وكان يقول في أكثر الأحيان ان الحكومة الدينية حليفة وفية للحكومات الفردية ، وكان يرى أن تحدد سلطة العلماء ، وأن ـ تحدد الجماعات الدينية ، ويخطر على الأحزاب المتحمسة للدين ويضيق الخناق عليها لأنها تقع فريسة الشيطان فتهتف بالجهاد !!!

---

(١) نقلاً عن كتاب العلامة الندوي ـ « الصراع بين الفكرة الإسلامية ـ والفكرة الغربية » صفحة ٥٩ وما بعدها ـ سنة ١٩٦٢ .

وقد دعا بقوة إلى إلغاء الشريعة ، وإقصاء قضاة المحاكم الدينية ..

وقد اقتنع بأن كفاحه يجب أن يوجهه إلى الدين فإنه منافسه الأكبر ! وكان يعتقد من صغره أنه لا حاجة إلى الله ! ! ! وكان في آخر عهده يرفع قبضته ويشير بها إلى السماء ساخراً مهدداً ! وكان يرى أن الإسلام إنما ظل عاملاً هداماً في الماضي ، وأنه جنى على تركيا جناية كبيرة ، وألحق بها خسائر فادحة ، وكان يقول في أكثر الأحيان إن قوة العقل وقوة الإرادة تتغلبان على « قوة » الإله .. ! ! وكان مصمماً على سن القانون لتحريم الدين في تركيا ولو احتاج ذلك إلى استخدام القوة ، وإلى الخدعة والتضليل .

كان يبغض الإسلام والعقيدة الراسخة بغضاً شديداً ! ولم يكن سراً أن « مصطفى كمال » لا يدين بدين ، وقد فزع الناس حين شاع أن « مصطفى كمال » رمى بالمصحف على رأس شيخ الإسلام ! ! !

وقد قرر منع الطربوش وغطاء الرأس وألزم لبس القبعة ، واستعمل القسوة النادرة والعنف في تحقيق هذا الغرض كأنه لا إصلاح أكبر وأهم من هذا .. وقد حدثت ثورات واضطرابات عظيمة هددت سلامة تركيا ، وأقيمت محاكم في كل ناحية ، وأعدم رجال الطبقة الدينية الذين نفخوا في قلوب الناس روح المقاومة والحماس الديني .. ولم يكن يعبأ بالوسائل والطرق التي يستخدمها في هذا الشأن .. يلقي القبض على الناس وكانوا يشنقون لمجرد أنهم وجدوا يسخرون من هذه الأحكام ، واستهدف لذلك

الأبرياء والمجرمين على السواء !!!

وكان يقول : في فخار وكبرياء .. أنا تركيا ، هزيمتي هزيمة تركيا !!! وكان يكره الأغنياء ويخشى العلماء والمفكرين لأنهم يفوقونه في القوة والكفاءة !!! وكان يكره كل أولئك الذين يختلفون معه وإن كان يستغلهم لأهدافه وغاياته .

إنه انتصر على الشعب حقاً .. فقد جعل الدولة علمانية ليس الإسلام دينها الرسمي ، وقرر أن الدين قضية شخصية لكل فرد أن يختار له ديناً يدين به .. وألغى الخلافة ، والمحاكم الشرعية ، وقوانين الشريعة الإسلامية ، وقرر العمل بالقانون المدني السويسري ، والقانون الجنائي الإيطالي ، والقانون التجاري الألماني ، وأدخل الأحوال الشخصية في القانون المدني الأوربي ، ومنع التعليم الديني ، ومنع الحجاب ، وقرر السفور والتعليم المختلط ، وألغى الحروف العربية ، وأبدلها بالحروف اللاتينية ، ومنع الأذان بالعربية وجعله بالتركية ، وبعبارة موجزة قد حطم الأساس الديني ، وغير وجهة الشعب التركي ، والحكومة التركية .. »[1]

لكن ماذا كان موقف الشعب التركي من هذه المردة السياسية والدينية ، لقد ذكرت في المقدمة قصة هذا اللقاء مع الطلبة الأتراك في مدينة كمبردج وكيف رفض هؤلاء الطلاب الاعتراف « بأتاتورك » كأب للشعب .

غير أن الصراع والجهاد ضد هذا التجديف والإغراق بدأ

---

(١) نقلاً عن كتاب العلامة الندوي ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ـ ص ٥٩ وما بعدها ـ سنة ١٩٦٢ .

في السنوات الأولى من حكم أتاتورك . كان هناك شيخ اسمه « بديع الزمان » وقد حضر بديع الزمان إلى « اسطنبول » من شرق تركيا في عهد السلطان عبد الحميد يطلب فتح المدارس ، وإنشاء جامعة في « دياربكو » غير أن الأحداث عاجلته ، وخلع السلطان ، ثم كانت الحرب العالمية الأولى فتطوع للقتال ، ثم أسره الروس ونفوه إلى « سيبيريا » وتمكن هناك من الفرار والعودة إلى تركيا التي كانت قد سقطت في أيدي الغزاة . فانضم إلى حركة مصطفى كمال التي كانت تستهدف في هذا الوقت تحرير الوطن وانقاذه من يد الأعداء ثم اختلف بعد ذلك مع « أتاتورك » حين ظهر الانحراف ، فنفته السلطة إلى غرب البلاد فظل ما بين نفي وسجن وتحديد إقامة من سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٥٠ ، وخلال تلك الفترة ألف مائة وثلاثين كتاباً سماها « رسائل النور » شرح فيها الدين بأسلوب جديد استهوى الشباب المثقف . فتناقل الناس رسائله نسخاً باليد ، وأصبح قراء الرسائل يسمون طلاب « رسائل النور » أو جماعة « نورجو » وهي جماعة تضم على الأقل ثلاثة ملايين شاب تركي ، وتعتبر هذه الجماعة القوة الحقيقية في الجامعات ، وهي القوة الانتخابية التي سحقت « حزب الشعب » « حزب أتاتورك » وعزلت عصمت « اينونو » خليفته من الحكم ، وجعلته يحصل على ٢٢ مقعداً من ٤٥٠ مقعداً في انتخابات عام ١٩٥٠ .

ولم يعد إلى المسرح السياسي إلا بقوة الجيش[٢] ...

---

(٢) حوار في أنقره ص ٣٣

وقصة هذه الانتخابات أي انتخابات سنة ١٩٥٠م تعتبر معلماً من مَعالم التحول في تاريخ تركيا الحديث . وبعبارة ـ أكثر تحديداً ودقة ـ بداية سقوط « أتاتورك » في أعين الشعب التركي الشقيق . في هذه الانتخابات نزل الحزب الديمقراطي ببرنامج عجيب يتلخص في عدة نقاط :

أولها : عودة الأذان باللغة العربية .

وثانيها : السماح للأتراك بالحج .

وثالثها : إعادة تدريس الدين بالمدارس .

ورابعها : إعادة « أيا صوفيا » مسجداً كما كان .

وكانت النتيجة مذهلة .. فقد حصل الحزب الديمقراطي على ثلاثمائة وثمانية عشر مقعداً ، وسقط حزب « أتاتورك » الذي لم يحصل على أكثر من اثنين وثلاثين مقعداً .. واستجاب « عدنان مندريس » زعيم الحزب الديمقراطي لمطالب الشعب على الفور . فعقد أول جلسة لمجلس الوزراء في غرة رمضان ! وأعاد « الأذان » باللغة العربية كما كان . وبدأ تعمير المساجد وأصدرت الحكومة قانوناً تستعيد به المساجد التي باعها أتاتورك ! وتقرر تدريس الدين في المدارس . وفتحت مدرستان للأئمة والخطباء ! كما تقرر فتح خمس وثلاثين ألف مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ! ! !

وقد ذكر المراسلون ووكالات الأنباء أنه في اليوم الذي تم فيه إعلان الأذان باللغة العربية خرج الرجال والنساء إلى الشوارع باكين من الفرحة قائلين :

أذان عربي شريف .. أذان عربي شريف ! ! !

* * *

من كتاب « كليلة ودمنة » قال الملك دبشليم لبيدبا الفيلسوف :

أخبرني عمن يدع عمله الذي يليق به ، ويطلب سواه فلا يقدر عليه . فيراجع الذي كان في يده من عمله فيفوته ويبقى حيران متلدداً ـ أي متردداً ـ .

فقال الفيلسوف : زعموا أن غراباً رأى حجلة فأعجبته مشيتها فطمع في تعلمها . فراض نفسه فلم يقدر على إحكامها . فانصرف (عاد) إلى مشيته التي كان عليها فلم يحسن . فبقي حيران متردداً لم يدرك ما طلب ، ولم يحسن لما كان في يده الحفظ .

ثم قال الفيلسوف للملك : فالولاة في قلة تعاهدهم للرعية في هذا وأشباهه ألوم وأسوأ تدبيراً ، لأن تنقل الناس من بعض المنازل إلى بعض فيه صعوبة ومشقة شديدة ، ثم إن الأشياء ، في ذلك تجري على منازل حتى تنتهي إلى الخطر الجسيم من مضادة الملك في ملكه[1] .

ولم يكن « أتاتورك » إلا « غراباً » في دنيا الزعامة ! ولم تكن « أوربا » أو « الحجلة » التي تعلق بها إلا نكبة عليه إلى يوم القيامة ؟!

إن المأساة هنا لا تكمن فقط في محاربته للدين والعقيدة ، لقد ترك الرجل تركيا من ورائه عالة تعيش في كنف غيرها فكراً وسياسة ولا تزال تركيا ـ حتى يومنا هذا ـ دولة متخلفة بمقاييس التقدم والحضارة ولم يعترف بها الغرب كدولة أوربية ، وكل علاقاتها مع أوربا لا تزيد عن علاقاتها بأية دويلة في البحر الكاريبي ، أو المحيط الهندي ، باستثناء تلك الأحلاف التي

---

(١) كليلة ودمنة ـ ط دار الشروق ـ بيروت ـ ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٧٣ م .

جعلت من تركيا سنداً للغرب في وقت الشدة ، وغمة على الشعب في أوقات السلام والهدنة .. وكما يقول المرحوم العلامة اقبال :

« إنكم أيها الأتراك أخذتم جوار أوربا وصحبتها ، مع أنكم كنتم بفضل الإسلام على مقربة من النجوم والكواكب ... »

لقد ذهب « أتاتورك » إلى غير رجعة ، وعندما مات خليفته « اينونو » رفض الشعب التركي الاشتراك في الجنازة .. وعندما حملوه إلى أحد المساجد للصلاة رفض الإمام أن يصلي على جثته وترك المسجد ! وظلوا ينتقلون به من مسجد إلى آخر حتى عثروا على شيخ يقوم بهذه المهمة .. وما كاد الشعب يعرف ذلك حتى حاصر المسجد ، وهم بخطف الجثة ... ولم تتم الصلاة على جثمانه إلا في حماية القوات المسلحة .. !

إن الإيمان لا يموت بالقتل ! وأن قطرة واحدة من دم شهيد كافية لإشعال النار في الجليد والثلج . وفي تركيا اليوم نداء جديد يتردد صداه مع كل فجر . إنه نداء الإيمان الذي انكمش داخل الصدور فترة من الوقت فمدارس القرآن تنتشر وتزداد . ومجالس العلم تعود إلى سابق عهدها في المساجد ، وقد تساءلت جريدة « لوموند » الفرنسية عن هذه الظاهرة الجديدة في تركيا فقالت :

ترى هل استيقظ الرجل الميت ؟!

نعم قد استيقظ !!! فالشعب الذي حمل لواء الجهاد ستة قرون دفاعاً عن الإسلام لا يمكن أن يموت والأمة التي من رجالها رجال كمحمد الفاتح وسليمان القانوني . لا يمكن أن تقهر ..

وفي تركيا اليوم حزب يشترك في الحكم ... إنه حزب السلامة أو الانقاذ الذي يتزعمه الدكتور نجم الدين اربكان .. وهذا الحزب

لا يقبل لغير الإسلام أساساً للحكم . وقانون في المجتمع . ومحبة وأخاء بين جميع المسلمين في الشرق والغرب ..

ولو عاد « أتاتورك » إلى الحياة مرة ثانية لرجمه الشعب .. ولن يفلت من القصاص الذي ينتظر أمثاله من القتلة والطغاة الذين يعتبرون شعوبهم « قطيعاً » في « مرعى » السياسة و « أرقاماً » في حسابات الغرور والزعامة .. و « قرباناً » في مذبح السلطان والحكم ..

إذا هَبَّتْ ريحُ الإيمَانْ ...

كنت في زيارة لإحدى الجامعات في المملكة العربية السعودية .
وقال محدثي ـ وهو أمين عام لهذه الجامعة : هل تصدق ؟ لقد استدعينا خبيراً في التعليم من بلد عربي لمراجعة المناهج التي وضعت لهذه الجامعة .. وأردنا تكريم هذا الخبير بتنظيم زيارته للأماكن المقدسة .. وبعد أن أدى عمرة . وانتهى من طوافه حول الكعبة قلنا له : ستسافر غداً لزيارة المسجد النبوي في المدينة ، فقال الخبير الذي استدعي لإصلاح مناهج التعليم في الجامعة .. ولماذا الذهاب إلى المدينة ؟ أليس الرسول مدفوناً هنا في الكعبة ...

قال محدثي : وصعقنا من هول المفاجأة هل يعقل أن يكون هذا الخبير التعليمي والدكتور الكبير ذو الشهرة الواسعة جاهلاً إلى هذه الدرجة .. ؟

فإذا كان الأمر على هذه الصورة بالنسبة لأقدس المعالم الإسلامية وبالنسبة لشخصية الرسول الكريمة فكيف يكون الأمر بالنسبة لرجال ليسوا في هذه الدرجة ... ؟ وفي قضايا إسلامية مختلفة .. ؟

لقد حفزني إلى هذه المقدمة ما قرأته أخيراً عن شخصية . أعتقد من غير شك . إنها من أعظم الشخصيات الإسلامية ، بطل من أبطال الإسلام في شبه القارة الهندية . رجل من خيرة الرجال الذين عبروا هذه الحياة في موكب من الجلال والإيمان والعظمة

إنه الإمام السيد أحمد الشهيد المولود في « رائي بربلي » عام ١٢٠١ هـ ، والذي نظم جماعة إسلامية كبيرة أحسن تربيتها الدينية والحربية ، وهاجر معها من طريق « بلوخستان » و « أفغانستان » إلى حدود الهند الشمالية واتخذها مركزاً لدعوته ليتقدم منها إلى الهند لإجلاء الانجليز وتأسيس دولة إسلامية على الكتاب والسنة . وقد انتصر هؤلاء المجاهدون على المسيخ الذين احتلوا البنجاب ، واستولوا على « بشاور » وما حولها من القرى والمدن ، وطبقوا النظام الإسلامي في كل شبر حرروه من يد الاستعمار الانجليز والوثني واستطاعوا في فترة وجيزة السيطرة على معظم الولايات في الحدود الشمالية الغربية .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي :

لقد شرح الله صدري لأن أختار روايات من هذا التاريخ العجيب فأصوغها في اللغة العربية بأسلوب أدبي تدل على مكانة قائد هذه الحركة العبقري ، وعلى مدى نجاحه في تربية النفوس وتزكيتها ، وعلى إخلاصه وتجرده للغاية التي يسعى لها وتدل على نفسية هذا الجيل المؤمن المجاهد ، وخلقه ، ومبلغ تأثير الدعوة الإسلامية في بنائه وتقويمه ويستطيع القارئ الذكي أن يكون من هذه الشذرات الملتقطة من هنا وهناك فكرة جامعة متناسقة عن هذا الجهاد الطويل لهذه الجماعة المؤمنة وعن شخصية قائدها الإمام البطل وعن هذه المدرسة المنتجة المنجبة فيكون في ذلك سد لهذا الفراغ الواقع في المكتبة الإسلامية المعاصرة وري لكثير من النفوس المتعطشة إلى معرفة هذا الفصل الرائع من الجهاد الإسلامي وتاريخ التجديد الديني في الهند .

إن هذه القصة أشبه بفيلم أخرج بالألوان الطبيعية لحياة هذا الإمام المجاهد وجماعته المؤمنة أو هي صورة حية لمبادئ الإسلام في الدين والعقيدة . لقد قام السيد الإمام أحمد الشهيد بجولة إصلاحية فيما بين « دهلي وسهارنفور » عام ١٢٣٣ هـ وزار المدن والقرى ومكث بها أياماً وأسابيع يدعو الناس إلى الله وقد هدى الله في هذه الجولة الموفقة خلقاً يبلغ عددهم الألوف وتاب على يده من عصاة المسلمين خلق لا يعلم عددهم إلا الله . نزل السيد وأصحابه في « لكنؤ » وكان جالساً في مسجد المدينة كالمعتاد .. دخل المسجد جماعة في مقدمتهم أمان الله خان ، وسبحان خان ، ومرزا همايون بك وحانت التفاته من أصحاب السيد الجالسين حوله فتقطبت جباههم وظهرت الكراهية في وجوههم لرؤية هؤلاء الثلاثة وشعر بذلك السيد . وسأل عن السبب فقال أصحابه : إنهم رجال سوء وشر ، لم يتركوا نوعاً من أنواع اللصوصية والشطارة إلا وقد فاقوا فيه ، واشتهروا به . قال السيد / إياكم أن تفشوا السر وإني لأرجو الله أن يكره إليهم الفسوق والعصيان ويحبب إليهم الإيمان . ويوفقهم إلى التوبة ويختم لهم بالحسنى وما أتم السيد كلامه حتى وصل هؤلاء النفر إلى مجلسه وصافحوه وعانقوه فأجلسهم السيد بجواره وأسبغ عليهم من عطفه ، وحين أرادوا الانصراف سألهم السيد عن مهنتهم وصناعتهم . فقالوا في حياء وخجل : لا تسألنا عن ذلك واعفنا من هذا السؤال .. فقال بعض أصدقائهم الذين جاءوا معهم : لا تتحرجوا من الصراحة وأخبروا السيد بالحقيقة . فاعترفوا أمام السيد بكل شيء .

لقد عاشوا على القتل والسرقة والنهب وكل أنواع الجريمة

والفسق . ثم قالوا موجهين كلامهم إلى السيد : حين قصدنا مكانك جئنا فقط للتفرج والمتعة ، وحين جلسنا إليك وسمعنا منك أنكرنا نفوسنا وقلوبنا ، فإذا هي غير ما كنا نعرفه وإذا بها تحدثنا أن نهجر بيوتنا وأهلنا ونلزمك فلا نفارقك . فاسمح لنا أن نبايعك ونتوب إلى الله على يدك . ولما هاجر السيد للجهاد رافقه هؤلاء فمنهم من استشهد في سبيل الله ، ومنهم من عاش على الصلاح والعفاف وخدمة الإسلام والسعي لإعلاء كلمة الله .

وحين أراد الانجليز إلغاء رحلات الحج من الهند إلى مكة ، واستعملوا لهذه الغاية علماء سوء يفتون لحساب الهوى والشيطان بحجة فقدان الأمن والطاقة اللازمين لكل من يريد الحج ، قرر السيد أحمد الشهيد أن يتصدى لهذه الحملة المزيفة المزورة فنادى في الناس بالحج ، وأرسل الكتب والبعوث إلى جميع الأطراف الهندية وتكفل بنفقات كل من ليس عنده زاد ولا راحلة ، فالتهبت جمرات الشوق الخامدة ، وقويت الهمم الفاترة ودبت في المسلمين حياة إيمانية جديدة وجاء اليوم الموعود ، وتوكل السيد على الله وخرج مع الناس فعبر النهر الصغير الذي يجري أمام قرينه ، وتوجه إلى « دلمو » ليركب منها السفن المسافرة إلى « كلكتا » ومنها يركب البحر إلى جدة ..

وحين وصل السيد ورفاقه إلى بلد على شاطئ النهر اسمه « مرزابور » فإذا بسفينة لنقل البضائع تعترض طريق النهر فتوقفت القافلة حيرى من هذه المفاجأة . وحين سأل السيد عن السبب قالوا : هذه سفينة حمولة تعترض الطريق ، وهي تنتظر التفريغ ، والحمالون غائبون . فقال السيد : ومن يمنعنا من أن نباشر هذا

العمل بدل الحمالين ؟ أم أن أيدينا مكتوفة أم مغلولة .. ؟ ولم يتم الإمام كلمته حتى وثب الناس ـ وفيهم العلماء والأغنياء وأبناء الأشراف . إلى السفينة وأفرغوا حمولتها في مدة قصيرة .

ووقف الناس على الشاطئ يشاهدون هذه الحركة العجيبة ويقولون :

عجباً لهؤلاء الحجاج . يقومون بهذا العمل الشاق تطوعاً واحتساباً وليس بينهم وبين هذا التاجر سابق معرفة أنهم نوع آخر من الرجال أو الملائكة . تقول إحدى الروايات ...

عندما رؤي المسيح خارجاً من بيت « مريم المجدلية » تصايح الحواريون في وجهه قائلين : كيف تزور مومساً بغياً يا روح الله ..

وحين أقيم الحد على الغامدية التي اعترفت بجنايتها أمام النبي صاح أحد الصحابة يا فاجرة . فغضب النبي (ص) قائلاً ألقها من فمك .. لقد تابت توبة لو وزعت على أهل المدينة لوسعتهم .

وفي قافلة الإمام الشهيد كان الشيخ « عبد الحي البرهانوي » قائماً بالدعوة والوعظ فساق الله إليه امرأة مومساً فتابت وندمت على حياتها السابقة ثم بايعت الإمام أحمد .. على الإيمان والطاعة .. ولما تابت هذه المرأة السعيدة .. أمر السيد ابن أخته بأن يركبها في سفينة من سفن النساء .. فذهب بها إلى سفينة من سفن الجماعة فرفض النسوة ركوب التائبة معهن وكلما ذهب بها إلى سفينة من سفن النساء قلن : مومس .. لا نسمح لها بالمرافقة .

ولما سمع السيد بذلك ذهب إلى السفينة وهتف قائلاً : لماذا لا تسمحن بركوب هذه المرأة السعيدة .. إنها تابت عن جميع ذنوبها فهي اليوم أقرب منكن جميعاً إلى الله ..

ثم وقف الشيخ عبد الحي البرهانوي ونادى على زوجته ثم قال لها والناس يسمعون : ألم آخذ عليك عهداً أن تعملي بأحكام الشريعة في هذا السفر .. ؟ فكيف ترفضين أختاً تائبة هي أقرب إلى الله مني ومنك ؟ افسحي لهذه المرأة السعيدة المكان .. وأجلسيها في جوارك وعلميها الدين والآداب الإسلامية . وتفضلي يا أختنا العزيزة . وأهلاً وسهلاً ومرحباً ..

* * *

ورجع السيد من الحج ليبدأ مسيرة الجهاد الكبرى . وسارت جيوش المجاهدين معقوداً لها لواء النصر من « بنجتار » و« بهلزة » و« مردان » و« بشاور » حتى كانت الوقعة الفاصلة في بالاكوت .. واستشهاد الإمام المجاهد ..

إن هذه الحقبة من التاريخ الإسلامي في الهند لا مثيل لها في تاريخنا المعاصر .. إن المعارك التي خاضها هؤلاء الأبطال أجل وأسمى من أن توصف في إطار محدود من الكتابة ... إنها شيء فوق تصورنا البشري المحدود المعرفة والإدراك ..

إن « الياذة » هوميروس اليوناني لا ترتفع إلى أعتاب هؤلاء الرجال الذين صيغوا من معدن الإسلام الإلهي الصافي .. ؟

يقول الأستاذ أبو الحسن علي الندوي :

أسفر صباح اليوم الرابع والعشرين من ذي العقدة ١٢٤٦ هـ أذّن للفجر وتوضأ الناس ولبسوا السلاح . وصلى الإمام المجاهد بالناس فكانت صلاة أخيرة ولما ارتفعت الشمس صلى صلاة الضحى ثم توضأ وابتهل إلى الله أن يرزقه الشهادة .

وتمثلت الجنة للمجاهدين الذين طالما تغنوا بذكرها طويلاً

وأعدوا لها العدة وقوي إيمانهم ورفع الغطاء عن عيونهم فإذا بهم يبصرون ما لا يبصره غيرهم . لقد بدأت ريح الجنة تهب من قمم روابي جبل بالاكوت .

يقول أحد شهود هذه الواقعة .. كان السيد « جراغ علي البنيالوي » قد نصب قدراً من الطعام على النار .. كان يحمل بيد سلاحاً وبيد أخرى مغرفة يقلب بها الطعام فكان ينظر إلى جنود المسيخ المرابطين على الجبل مرة .. ويعيد تقليب الطعام بمغرفته مرة ثانية وحانت منه التفاته إلى السماء فصاح قائلاً : أنظروا إلى هذه العروس القادمة من السماء تناديني وهي في أجمل ثيابها ثم رمى المغرفة على القدر وقال : سآكل اليوم من طبقك أيتها الحورية في الجنة .. ثم انطلق إلى جنود المسيخ يقاتلهم والناس يقولون له : انتظر حتى نرافقك فلم يبال وقاتل حتى قتل شهيداً ..

ودخل السيد الإمام المجاهد أحمد الشهيد إلى المسجد وقد غلقت الأبواب والنوافذ واستغرق في صلاة عميقة يدعو الله أن ينصره أو يتقبله شهيداً في يومه .. وكأنما سمع صوتاً يناديه يا أحمد .. ففتح النافذة ليرد على السائل فلم يجد أحداً .. وتكرر ذلك مرات عديدة وهو لا يرى إنساناً . لقد كان الصوت قادماً من وراء الغمام يبشره بالجنة .. !

وكان آخر أمر السيد أن رآه الناس جالساً على هضبة مستقبلاً القبلة . يطلق البنادق وجثث الشهداء من حوله .. وبينما هم كذلك إذ توارى السيد عن عيونهم في غمرة الغبار والدخان ونيران المدافع .. لقد زف الإمام أحمد الشهيد إلى الجنة في موكب من

الحور ـ والملائكة .. وسيق من بقي من المجاهدين إلى المحاكمات والسجون وفي إحدى هذه المحاكمات التعسفية وجه القاضي إلى أحد الشبان كلمات غاضبة تفيض حقداً على هذه العصبة المؤمنة . كان الشاب الواقف أمام القاضي اسمه « جعفر » وارتفع صوتِ القاضي موجهاً كلامه إلى هذا الشاب المؤمن : إنك يا جعفر رجل عاقل ومتعلم وتعرف القانون الذي يعاقب بشدة كل من تسول له نفسه شق عصا الطاعة ولكنك أوغلت في المؤامرة والثورة على الحكومة . وهاأنذا أحكم عليك بالإعدام ومصادرة أملاكك . ولن يسلم جسدك بعد الشنق إلى ورثتك . وسأكون سعيداً ومسروراً حين أراك معلقاً من رقبتك ..

استمع الشاب في سكينة إلى كلام القاضي .. الجلاد الذي وضع على منصة القضاء ليجعل من القانون حبالاً وخناجر ، ولما انتهى من كلامه قال محمد جعفر :

إن النفوس والأرواح بيد الله وحده يحيي ويميت . وإنك أيها القاضي لا تملك حياة ولا مماتاً ولا تدري من السابق منا إلى الموت .

وجن جنون القاضي من هذه الروح العجيبة فتقدم من « محمد جعفر » ضابط انجليزي اسمه « يارسن » وقال له : لم أر في حياتي إنساناً يحكم عليه بالموت وهو في هذا البشر والمسرة ؟ فأجابه محمد جعفر : لماذا لا أفرح وقد رزقني الله الشهادة في سبيله وأنت يا مسكين لا تعرف حلاوتها ..

وشاع الخبر بين الناس من انجليز وهنادك فكانوا يزورون محمد جعفر وزملاءه المحكوم عليهم بالإعدام ليروا هذه الآية

الرائعة من الفداء والتضحية والشجاعة . ولما علم الحاكم الانجليزي بهذا الأمر استبدل حكم الإعدام بالنفي والأشغال الشاقة المؤبدة وقال في حيثيات حكمه : إنكم أيها الثوار تحبون الشنق وتعتبرونه شهادة في سبيل الله ولن نبلغكم مرادكم لذلك نحكم عليكم بالنفي المؤبد إلى جزائر سيلان ..

وتشاء الأقدار أن يموت القاضي الإنجليزي الذي أصدر حكمه على المجاهدين بالإعدام عقب صدور الحكم .. وكذلك جن الضابط « يارسن » ومات في جنونه شر ميتة . وعرف الناس معنى الإيمان وهم يسترجعون كلمات محمد جعفر للقاضي الإنجليزي عقب صدور الحكم عليه بالموت .

* * *

لقد وقف مولانا « محمد علي » يومين في قفص الاتهام يترافع عن نفسه وعن شقيقه في محاكمة « كراتشي » الشهيرة عام ١٩٢١ م. أمام هيئة محلفين من خمسة أشخاص اثنان منهم هندوكيان والآخرون مسيحيون منهم واحد بريطاني .

كانت جريمتهم أنهم اشتركوا في مؤتمر رأسه محمد علي زعيم مسلمي الهند قبل التقسيم وأصدروا قراراً مدعماً بالقرآن والسنة يدعو المسلمين إلى مقاطعة وظائف الحكومة البريطانية في الهند وبخاصة العمل في القوات المسلحة ، وقد استجاب المسلمون للقرار فاعتقل الألوف منهم ..

لم ينكر محمد علي التهمة التي وجهوها إليه بل اعترف بها وجهر بحكم الله فيها وما أتم مرافعته حتى استحالت القاعة محراباً خاشعاً واقشعر كل من فيها رهبة لهذا الرابض في القفص .

وبالرغم من جهامة الموقف وصرامته فقد بدأ مولانا محمد علي مرافعته بإثارة جو من المرح والسخرية .. فقبل أن يوجه محمد علي كلامه إلى هيئة المحلفين التفت إلى ناحية هيئة المحكمة فقال :

« ألا يمكن أن يجلس المحلفون ليكونوا مني في هذا الجانب ؟ إنني حتى الآن لم أر وجوههم .. إنني أريد اغراءهم كما أغريت القوات المسلحة ..

واستمر محمد علي في مرافعته متهكماً . لقد قلت إنني أريد إغراء المحلفين لقد كان في الحقيقة من وراء ذلك أمر آخر .

لقد كان مرادي أن تكونوا بمثابة ستر بيني وبين السيدات اللواتي يجلسن الآن خلفكم وإلا فقد يزيد عليّ المدعي العام تهمة إغراء أخرى ..

ثم يرتفع صوت محمد مجلجلاً في قاعة المحكمة ..

أيها المحلفون .. إنه ليس بيننا وبينكم قضية .. إن القضية ليست بين محمد علي وستة آخرين من جهة .. وبين الحكومة من جهة أخرى .. إنها قضية الله مع البشر والمشكل كله .. هل سيكون السلطان لله على الإنسان أم للإنسان على الله .. ؟

إنكم عند تسجيل أسماء الجنود تأخذون عليهم تعهداً كتابياً وتلزمونهم بقسم مخصوص ثم توجهون إليهم هذا السؤال :

هل تتعهد بالذهاب حيثما تؤمر في البر والبحر ؟

فلنفرض أن هذا الجندي هندوكي .. وأن الضابط أمره بذبح بقرة ليجهز له لحمها .. سوف يرفض هذا الجندي أوامر الضابط ويقرأ على هذا الضابط كلمات من كتابه المقدس ينهي عن ذبح البقرة .

فهل يحاكم هذا الجندي لاحترامه شعائر دينه .. ؟

وإذا ذهب جندي مسلم إلى عالم وسأل عن حكم الله في قتال المسلم ضد أخيه المسلم ، وقال للعالم : إنني مطلوب للسفر إلى « ميسوبوتاميا » للقتال ضد دولة الخلافة فأجابه العالم : إن ذلك غير جائز شرعاً فهل يعتبر هذا الجندي المسلم مجرماً ؟

لقد أصدر كاتب انجليزي مسيحي غير مسلم يدعى (هـ. ج. ولز » كتاباً رمزياً عن الشعب البريطاني ولا أدري إن كان قد اتفق لأحدكم أن قرأه واسم هذا الكتاب (مستر برتلنج يبصرها) فماذا يقول ؟ ماذا يرى مستر برتلنج المفروض فيه أن يكون الإنجليزي الهادئ ؟

إنه يقول : إن رأس الأمر الدين ، وإن غاية الأمر الدين ، والمرء الذي لم يبدأ حياته به لا يتمتع بحياة حقيقية ولا يجد المعنى الحقيقي للحياة .. إن ولاءه الأول وواجبه الأول لله قد يتمتع ببعض التكريم وقد ينال شيئاً من الولاء غير أن هذا الولاء وهذا التكريم بمقابلته بالولاء والإخلاص لله يذوي كالورقة التي يلفحها اللهب المشبوب فتذروها الرياح الأربع .

ثم يمضي محمد علي متحدياً الحكومة ومتحدياً المحكمة ، ومتحدياً قوانين القتل التي تفرض على المسلم قتال أخيه المسلم .. يمضي في كل ذلك مؤمناً أن حياته التي يحملها قليلة في سبيل هذه الحقيقة التي غابت عن كثير من مسلمي هذا العصر حين يتحولون إلى أدوات صماء في أيدي أعداء دينهم فيقتلون باسمه إخوانهم في العقيدة وإخوانهم في الدين والملة ..

إن المسلم الذي يرتضي الإسلام ديناً ويهتدي بسنة رسول الله

صلى الله عليه وسلم موافق ضمناً على عدم شرعية انضمامه إلى جيش يحارب المسلمين ويقتلهم بغير وجه حق ..

وعلى ذلك فالقرار الذي تتهموننا باتخاذه في مؤتمر جماعة العلماء لم يكن سوى حكم معلوم من الدين بالضرورة .

وعلى هذا فجريمتنا أننا أعلنا حكماً في الإسلام .. فإذا كان في إعلان حكم الإسلام ذنب فقولوا في هذه الحالة ان إعلانكم لأحكام المسيحية جريمة أيضاً .. وكذلك الهندوك الذين يعلنون أحكام دينهم اتباعاً لتعاليمه مجرمون . فإذا طلبوا من هندوكي ألا يقتل بقرة يكونون مذنبين لاتفاقهم على ارتكاب جناية أو مؤامرة إجرامية ..

ثم يمضي محمد علي في مرافعته متهكماً بالمحكمة وقوانينها والتهم الموجهة إليه منها قائلاً ...

اسمحوا لي أن أنشد قصيدة من نظمي .. إنه نظم هزيل لي .. وكما قال : ـ أتشسون ـ عندما قتل يوليوس قيصر ، وجن جنون الشعب بسحر خطبة انطونيوس تجمع الناس على « سنا » الشاعر يريدون قتله يحسبونه « سنا » المشترك في مؤامرة لقتل القيصر فصاح كلا .. كلا أنا لست « سنا » المتآمر . إنما أنا « سنا » الشاعر ...

فقالوا : اقتلوه .. اقتلوه لشعره الرديء ... !

إنني أخاطب بني وطني وإخواني في العقيدة وأقول لهم إنني أذكركم بواجبكم أذكركم بإخلاصكم ، أذكركم بالشرف وأطلب إليكم أن تكونوا أمناء على العهد الذي قطعتموه على أنفسكم أمام الله والأمة ..

أو ليس لي الحق أن أقول للمحلفين إذ لم يصدق هؤلاء القوم مع ربهم فاستباحوا مخالفة أمره ، أينتظر منهم بعد ذلك صدق في ولائهم لملكهم في جيشه ؟

ربهم الذي وهبهم الحياة ... الشرف .. العقيدة .. الإخلاص نفسه .. حتى الملك .. لا .. الله فوق كل شيء ... الله فوق الإخلاص .. الله فوق الملك ... الله فوق الوطن ... الله فوق بلادي ووالدي .. ووالدتي وطفلي ..

تلك هي عقيدتي فاشنقوني إن شئتم . ولكن اعلموا أنكم بذلك تنتحرون إذ تقتلون أرواحكم . ستكونون أجساداً تتحرك بلا روح .. وجيفا تلقى طعاماً للغربان .

وينفعل محمد على حين تقاطعه المحكمة وهو يتحدث عن رسول الله في حجة الوداع يعلن إلى البشرية كلمة الله التي تقوم عليها موازين العدل والحق في هذه الأرض ..

لا تقاطعني أيها القاضي حين أتكلم عن رسول الله .. اسحب كلمتك ... ويقول أخوه « شوكت علي » هذا بهتان وسفاهة .. ويزيد محمد علي : عليك أيها القاضي أن تسحب قولك .. لا بد أن تستدرك أن واجبي الاهتمام بشأن رسول الله . وعلي أن أقطع عنق من يسيء في حقه عليه الصلاة والسلام ..

إن دفاعي أيها السادة إنما هو في سبيل الله . ومن أجل وطني . إننا الآن في قاعة المحكمة كسجناء ولكن عندما يجمعنا موقف الحشر أمام الله أحكم الحاكمين فالقاضي والمحلفون والمتهمون والمدعي العام ومساعده .. الملك نفسه . وكل إنسان ــ يحشر ويسأل أمام الله . لمن الملك اليوم ؟ ماذا يكون جوابكم ؟ إن الملك

لك .. إنه ملكوتك إنكم تقولون إذ تصلون لله . « ليأت ملكوتك » وقد أتى ملكوت الله . إن ملكوت الله هنا اليوم وفي هذه الساحة . إنه ليس ملك الملك جورج ولكنه ملكوت الله . وعليكم أن تتخذوا قراركم على هذا الأساس ..

ثم ختم مولانا محمد علي مرافعته قائلاً :

إنني لن أقف موقف القاتل ..

ولا موقف الجبان ..

إن المسلم يقابل الموت مبتسماً .. لأن الموت في عقيدة الإسلام مرحلة إلى عالم آخر جديد عالم منزه عن الأحقاد وعن الظلم ، عالم يقف فيه الإنسان بوجود جديد يختلف عن وجودنا الأرضي .. فإذا كنت أرفض القتل فلأن الله يأمرني ألا أفعل . وديني يوصي بالرحمة والعدل مع العدو قبل الصديق ، ولكني في سبيل الله مستعد أن أقتل كل من يأمر الله بقتله ولو كان ذلك أخي الشقيق أو أمي العزيزة ، أو زوجي وأطفالي ..

* * *

وصدر الحكم .. فكان مفاجأة ... كان الكل ينتظر من هيئة ليس فيها مسلم أن ــ تحكم بالموت . أو النفي المؤبد . فإذا هو الحكم بالبراءة .

وهنا خان مولانا محمد علي صوته . وتحدرت قطرات الدمع من عينيه وجلس متشحاً بالجلال والروعة وبهاء الإيمان .

الله .. أو .. الدّمار

الله ... أو ... الدمار ...

لقد لفت نظري هذا العنوان في رحلة عابرة إلى بيروت منذ سنوات .. كنت أسير متثاقلاً في شارع « سوريا » قريباً من ساحة الشهداء ، ولم يكد يقع نظري على هذا الكتاب حتى دلفت مسرعاً إلى داخل المكتبة .. ودفعت ما طلبه البائع دون تردد أو مراجعة .

العنوان مثير .. ومعبر .. والمؤلف الذي كتب اسمه على الغلاف كان أكثر إثارة ومفاجأة .. هل من المعقول أن يؤلف مثل هذا الكتاب رئيس وزراء في دولة ؟ فالوزراء عادة مشغولون بقضايا سياسية بحتة ، مشاكل داخلية وخارجية مجردة أما أن يكتب رئيس وزراء في قضايا الفكر والعقيدة ، فتلك ظاهرة جديدة تستحق النظر وقضية فريدة توجب الاهتمام والبحث ..

ولا أدري من قال هذه الكلمة من قدامى الساسة حين سئل عن معنى كلمة « السياسة » والثقافة .. والعقيدة فقال :

السياسة هي فن ممارسة الكذب بأسلوب مقبول ، والثقافة هي « فن » الحياة في حدود المعقول . أما الدين والعقيدة فهما جوهر الحياة الذي تطمئن إليه القلوب والعقول ..

فإذا كانت السياسة بمفهومها . المكيافلي هي ممارسة الكذب

على هذا النحو . وكان تطبيقها في الحياة مقترناً بهذا التفسير والشرح فبأي أسلوب يتصرف الإنسان حين يملك أو يحكم ؟ وبأي منطق ومنهاج يتصرف رئيس الوزراء أو الحاكم المسلم ؟

هذه الكلمات لا بد منها قبل أن نتعرض لهذا الكتاب الذي ألفه الأستاذ سعد جمعه فقد كان رئيساً للوزراء في دولة الأردن الشقيقة . وعاش وهو في قمة الحكم مرحلة من أخطر المراحل التاريخية الحديثة . لقد كان رئيساً للحكومة إبان حرب الأيام الستة وكتب عن هذه الحرب كتاباً أحدث بعد صدوره ضجة .. ثم ترك السياسة إلى التأليف والكتابة وكان من ثمرة هذه « الهجرة » أو « التوبة » إذا أخذنا بالاعتبار مفهوم السياسة على نحو ما يقول السياسي المخضرم في المقدمة ـ هذا الكتاب الذي يشع إيماناً ونوراً وحرارة .

يقول الأستاذ سعد جمعه في مقدمة هذا الكتاب :

إن المعاناة التي تصلاها الأمة العربية اليوم هي أكبر وأخطر مأساة واجهتها في تاريخها الطويل . أوتار لا تشفي . وأحقاد تستشري وتمتد . شعوب مضللة وطواغيت تخلفها طواغيت ـ ربع قرن من التبدد والانسلاخ ، ربع قرن من التهتك والتفكك . والفساد والإلحاد . والشائعات والمذهبيات . رفعنا كل شعار عرفته الدنيا منذ كانت الدنيا . كل أيديولوجيات التاريخ في الشرق والغرب استوردناها وزورناها وجرعناها للناس بالقمع والإرهاب ليستبدلوها بعقيدتهم وحضارتهم وإيمانهم فغرقنا في مفازات الضياع ومتاهات الفراغ وخلت الساحة من الاشراف .

ذلك لأن معظم الجيل الجديد من الكتاب هم جيل البدع

والفوضى والرفض والانبهار بكل ما يأتي من وراء الحدود . هم ممن نشأوا في أحضان الإرساليات التبشيرية .. ثم في أقسام الدراسات الشرقية في جامعات الغرب التي يشرف عليها يهود .. لذلك يعيبون علينا أن ندعو إلى الدين . يقولون إننا نعزف على نغمة الدين المتروك قال ذلك كاتب تقدمي ثوري .

الدين متروك ، لماذا ؟ ومن تركه ؟ وهل يكون من يتخلى عن إيمانه بربه إلا شر الدواب على الأرض .. ؟ إن قصتي مع هؤلاء الناقمين على الدين أشبه بقصة الفيلسوف الألماني « شوبنهور » حين أصدر كتاباً لم يعجب البعض فقال « شوبنهور » إن كتابي كالمرآة ، إذا نظر فيها حمار فمن غير المعقول أن يرى فيها صورة ملك .. فإن شر الدواب الصم البكم الذين لا يعقلون .

إن المؤلف ينفث من صدره حمماً على هؤلاء المخدوعين بالوهم الهابطين إلى الحضيض في بلادة وتفاهة وعجز الناعقين بالخراب والدمار في كل شعب وأرض .

إن هذا الكتاب تقع أبوابه الرئيسية تحت ثلاثة عناوين هي :

القومية والدين ، والدولة في الإسلام ، ومجتمع الكراهية وطريق التغيير ، ـ وتندرج تحت كل باب من أبواب هذا الكتاب عدة فصول عن النزاع بين العلم والدين والتبشير والاستعمار ، والدول العربية والعالم الإسلامي ، والعلمانية والإسلام . وعن النظامين السياسي والاجتماعي في الإسلام . وعن موقف المسلمين من الإسلام وعن طريق النجاة من هذه الأخطار التي تحدق من كل جانب بالعرب والمسلمين .

ففي الفصل الأول الذي عقده المؤلف عن « القومية والدين »

يكشف لنا جوانب المؤامرة التي تشعبت جوانبها وأطرافها في إيجاد صيغة من العداء والتنافر بين العروبة والإسلام . لقد بدأت قرون هذه المؤامرة تظهر في السنوات الأخيرة من عهود الخلافة العثمانية حين حمل أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الدعوة إلى القومية التركية بتخطيط من اليهود والماسون والدونمة الذين تظاهروا باعتناق الإسلام لطعنه في القلب . كانت الأدوار موزعة بتخطيط رهيب بين هؤلاء اليهود المتظاهرين بالإسلام في دولة الخلافة وبين رؤساء التبشير وتلامذتهم في دنيا العرب . كانت الخطة تقوم على تحريك كل الأطراف بدعوات متناقضة لتوسيع هوة الخلاف والشقاق بين العرب والترك ومن ثم ... تتمزق الدولة العثمانية . ودولة الخلافة . وقد نشأت في العالم العربي دعوات وأحزاب تنادي للعرب بقومية مستقلة عن الترك . وبمعنى أدق عن دولة الخلافة وما ترمز إليه من وحدة إسلامية تجمع شتات العالم الإسلامي وتصون أوطانه من السقوط فريسة في يد الطامعين في الشرق والغرب .

ولقد كان يمكن قبول هذا الوضع لو انتهى عند هذا الحد .. ولكن الذين حملوا لواء هذه القومية من العرب ، وبعد الانفصال عن دولة الخلافة مضوا في الطريق المرسوم لهم بدون وعي ..

إن العروبة هي وعاء الإسلام ... وإذا عز العرب عز الإسلام كما يقول النبي ... فلو أن الذين حملوا لواء الدعوة إلى القومية وضعوها في إطارها الصحيح لما أمكن أن يكون هناك خلاف في الرأي ولكن الأمور أخذت شكلاً جديداً يهدف إلى إهمال الإسلام في التاريخ والسياسة والحكم فالعرب قبل الإسلام لم

يكونوا ذوي شأن .. كانوا رعاة غنم وجماعات مشردة هنا وهناك في مضارب البدو . فاستطاع الإسلام أن يجعل من رعاة الغنم رعاة أمم ، ومن جماعات مشردة إلى صناع حضارة هي أرقى وأسمى ما عرفته الشعوب والأمم .

ويضرب لنا المؤلف مثلاً من فلاسفة هذه القومية فينقل عن المرحوم الدكتور عبد الرحمن البزار من كتابه « هذه قوميتنا » قوله :

« إن احتكاك الفكر العربي بالفكر الغربي عن طريق المبشرين والإرساليات الدينية كان المظهر الأول لبروز القومية العربية في بلاد الشام ونستطيع أن نؤكد أن نصارى الشام قد ساهموا اسهاماً جدياً في تمكين عرب المشرق في بلاد الشام والعراق خاصة من التمييز الواضح بين القومية والدين والفصل بينهما » .

فكر أيها القارئ وتأمل .. المبشرون هم أول من دعا إلى القومية وأول من مكنوا لها .. لحساب من ؟ لحساب العرب . العرب بدون إسلام ولا عقيدة طبعاً . لأن هذه هي الغاية التي يعملون لها في كل قطر إسلامي وعربي تمهيداً للقضاء على الإسلام والمسلمين قضاء كاملاً ...

أما (الحصري) الذي أطلق على نفسه (أبو خلدون) فيقول في كتابه .. « ما هي القومية » ؟ :

« التعاليم المسيحية الأصلية تتضمن فصل الدين عن الدولة عملاً بالكلمة المشهورة : أعطوا ما لقيصر لقيصر . وما لله لله .. لقد أصبح من الأمور المسلمة لجميع الدول أن السياسة شيء والدين شيء آخر وأن من الخطأ أن يظن أن العرب كانوا أمة بدائية محرومة من الحضارة قبل الإسلام .. » .

الله أكبر .. المرحوم الدكتور البزاز يعترف أن أول من دعا إلى القومية كانوا هم المبشرين . وساطع الحصري يطالب المسلمين أن يكونوا مسيحيين فيعطوا ما لقيصر لقيصر ـ وما لله لله . كما يقول الإنجيل . ويقرر (المفكر الكبير) أن العرب كانت لهم حضارة قبل الإسلام فليس للإسلام إذن فضل عليهم قليل أو كثير ... فاذا كان الأوائل من دعاة القومية « العلمانية » من العرب « معمدين » في معاهد التبشير وكان الأوائل من دعاة القومية التركية « مكرسين » في محافل اليهود والماسون ، أيبقى بعد ذلك شك في حقيقة الدعوة للفصل بين العروبة والدين ... ؟ .

وحتى تكتمل الصورة الرهيبة أمام كل عربي وكل مسلم ، فإننا نقدم هذه الوثيقة التي بعث بها السلطان عبد الحميد بعد خلعه ونفيه إلى « سالونيك » وقد عثر على هذه الوثيقة عند ورثة أحد شيوخ الطرق الصوفية في دمشق وكان هذا الشيخ على صلة بالسلطان عبد الحميد . يقول السلطان في رسالته إلى الشيخ محمود أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية اليشرطية في دمشق :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين إلى يوم الدين .

سيدي : إنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد ليلاً ونهاراً ، وإنني لا زلت محتاجاً لدعواتكم الطيبة بصورة دائمة » .

بعد هذه المقدمة :

« أعرض على أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية ـ كأمانة في ذمة التاريخ ـ إنني لم أتخل عن

الخلافة الإسلامية لسبب ما . سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقي المعروفة باسم ـ « جون ترك » وتهديدهم ، اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة .

إن هؤلاء الإتحاديين قد أصروا عليّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأراضي المقدسة . ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكلف ، ـ وأخيراً وعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة ذهبية انجليزية فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً وأجبتهم بالجواب القطعي التالي :

إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً فلن أقبل بتكليفكم . لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمديه ما يزيد عن ثلاثين سنة فكيف أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين .. لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي فقبلت بهذا التكليف وحمدت المولى أنني لم ألطخ وجه الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي . وقد كان بعد ذلك ما كان ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال وبه أختم رسالتي ... » .

وإذا كان من أهم القضايا التي شغلت بال المفكرين ورجال الإصلاح هي قصة التوفيق بين الدين والعلم ، وكانت هذه القضية ـ ولا تزال . حتى يومنا هذا مثار جدل ونقاش بين علماء الدين والفكر .

فإن المؤلف لم يدع هذه الفرصة في « كتابه » تمر .. ويعرض بأمانة أصول هذه المشكلة . من لدن ظهورها حتى هذا العصر ويقول مع الكاتب الأمريكي « درابير » في كتابه « النزاع بين

الدين والعلم » :

« لقد دخلت الوثنية والشرك في النصرانية عن طريق من تظاهروا بالنصرانية رياء وكذباً ليتقلدوا المناصب العالية في الدولة الرومانية ، دون أن يؤمنوا بها . وقد فعل ذلك قبلهم الأمبراطور « قسطنطين » الذي اعتنق النصرانية ، ولم يتخل عما اعتاد من ظلم وفجور . لقد اعتنق النصرانية مرغماً بعد أن رفعته إلى العرش آملة أن يتقيد بأوامرها ويساعد على انتشارها غير أنها لم تستطع أن تقضي على جرثومة الوثنية الرومانية وكانت نتيجة ذلك الصراع أن امتزجت مبادئ المسيحية وقيمها ببقايا تلك الوثنية ونشأ عن ذلك الامتزاج دين جديد هو خليط من المسيحية الأصلية والوثنيات اليونانية والرومانية . وهذا هو وجه الخلاف بين نشأة الإسلام والنصرانية ، إذ بينما اضطرت النصرانية إلى النمو في حضانة الوثنيات التي سادت المجتمع الروماني ، قضى الإسلام على الوثنية منذ البداية قضاء مبرماً ونشر تعاليمه التي تقوم على الوحدانية الإلهية دون غموض .

« ولقد عمل الامبراطور قسطنطين جاهداً ، بغية توطيد ملكه للتأليف بين الفريقين المتصارعين ... بين النصرانية والوثنية ، دون أن يحتفل احتفالاً صادقاً بحقيقة الدين وحسب المسيحيون أن قبولهم بذلك الوضع إنما هو قبول مرحلي لا محيد عنه ، وأن المسيحية ستستطيع أن تنجو آخر الأمر من رجس الوثنية » .

« إن المسيحية دين سماوي كاليهودية والإسلام ، غير أنها نزلت عقيدة مكملة لليهودية ومصححة لها كثورة اجتماعية أخلاقية في مجتمع يهودي فاسد ، ولذا جعلت شريعتها الأساسية ، التوراة ،

مع تعديلات طفيفة نزلت في الإنجيل الكريم ، ولذا كان المفهوم الطبيعي للمسيحية أن تحكم بشريعة الله المنزلة في التوراة الأصلية مع مراعاة التعديلات الواردة في الإنجيل » .

« غير أن الذي حدث بالفعل لم يكن كذلك ، فقد انتقلت المسيحية من المجتمع اليهودي إلى المجتمع الروماني وعلى الرغم من النفوذ الضخم الذي مارسته الكنيسة في أوربا في العصور الوسطى ، لم تكن الشريعة الإلهية مطبقة في غير قانون الأحوال الشخصية وما عدا ذلك ، يحكمه القانون الروماني بجاهليته ووثنياته .. »

ومنذ إذ بدأ الصراع بين الدين والحياة ، مضت الكنيسة تمارس سلطاتها على القلوب والمشاعر بينما يمارس القانون الروماني سلطاته في واقع الحياة .

واستشرى نفوذ الكنيسة وتجاوز كل معقول ، فقد احتجز الكهنة لأنهم ملكوت السماء واحتكروه ، فأدخلوا فيه من رضوا عنه وحرموا الآخرين ، وراحت الكنيسة تفرض على الناس الأتاوات الفادحة ، وتفرض الأفكار العلمية الزائفة على العقول ، وبلغ الخضوع المذل لرجال الدين حد السجود في الأرض الموحلة عند مرور أحد رجال الكهنوت .

وحينما أثبت العلم النظري التجريبي الذي اكتسبه الغرب عن المسلمين بطلان نظريات الكنيسة العلمية على يد كبار العلماء ك « جاليليو وكوبرنيكوس وبرونو » وغيرهم ، اتهمتهم الكنيسة بالهرطقة وأمعنت في تعذيبهم حتى الموت ، وبرزت مهزلة صكوك الغفران ، ومحاكم التفتيش والمحاكمات الكنسية

لضرب كل حركة علمية تناهض مفاهيم الكنيسة .

وللتمثيل على ذلك نسوق فيما يلي نص صك من صكوك الغفران ، وقرار إدانة « جاليليو » :

« ربنا يسوع يرحمك » يا فلان « ويحلك باستحقاقك آلامه الكلية القداسة . وأنا بالسلطان الرسولي المعطى له أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التي استوجبتها وأيضاً من جميع الافراط والخطايا والذنوب التي ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ومن كل علة ، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا والكرسي الرسولي . وأمحو جميع أقذار الذنب ، وكل علامات الملامة التي ربما جلبتها على نفسك في هذه الفرصة وأرفع القصاصات التي كانت تلتزم بمكابدتها في المطهر وأردك ثانية إلى الطهارة التي كانت لك عند معموديتك ، باسم الأب والابن والروح القدس » .

ولقد حكم ديوان التفتيش على جاليليو وهو في السبعين من عمره لأنه رفض أن يتراجع عن نظريته العلمية بدوران الأرض ـ وهذا هو نص الحكم الذي صدر ضده منذ حوالى أربعمائة سنة :

« يا جاليليو ، ابن المرحوم فنسان جاليو ، من بلدة فلورنسه البالغ من العمر سبعين عاماً . بناء على ما بلغ المجمع المقدس سنة ١٦١٥ من أنك تؤمن بصحة المذهب الذي يدعو إليه الكثيرون ، وهو أن الشمس هي مركز العالم ، وإنها ثابتة ، وأن الأرض تتحرك حركة يومية ، فإن المحكمة رغبة منها في منع الفوضى والأضرار الناجمة عن ذلك ، والتي تمنع التصدي للإيمان المقدس . وبناء على أوامر سيدنا بولس الخامس وأصحاب النيافة الكرادلة

في هذه المحكمة العالمية العليا ، يرى اللاهوتيون أصحاب الرأي في التعريف أن القضيتين المتعلقتين بسكون الشمس وحركة الأرض مناقضتان للعقل ، ومغلوطتان في اللوهوت .

فالأولى : هرطقة صريحة ، . والثانية : خطأ في الإيمان ، فنحن نقول ونرفض ونحكم ونعلن أنك أنت « جاليليو » المذكور أصبحت في نظر المجمع المقدس محل شبهة قوية بالهرطقة ، - باعتقادك وتمسكك بنظرية خاطئة ، مناقضة للكتب الإلهية المقدسة - ونحن نأمر بمصادرة كتاب « محاورات جاليليو » بموجب مرسوم علني ، ونحكم عليك بالسجن الصريح بالمدة التي سنرى تحديدها » .

صادر عنا نحن الكرادلة الموقعين أدناه .

ويصف المؤرخ « لكي Lecky » في كتابه « تاريخ أوربا الأخلاقي » ما كان عليه حال الكنيسة والمجتمع في تلك البرهة فيقول : « لقد عجزت الرهبانية عن الحد من جموح المادية ، فقد بلغ التبذل والاسفاف غايتهما في أخلاق الناس ، وسادت الدعارة والفجور وانقسم المجتمع إلى فئتين متناقضتين متباعدتين ، رهبانية متطرفة .. وفجور متطرف .. وكان الناس يرون في الرهبانية السلبية مصادمة للفطرة الإنسانية التي بقيت مقهورة زمناً ، ثم تسربت إليها هي الأخرى عوامل الفساد الأخلاقي فأصبحت مرتعاً للكبائر والنكرات .

وكانت النكبة التي حاقت بالفكر الديني ، جناية رجال الدين بدس المعلومات البشرية التي كانت سائدة حينذاك ، وفرضوها حقائق ثابتة على عقول الناس واعتبروها من صلب الدين ،

وكذبوا بل كفروا كل من يقول بخلافهم وساموهم سوء العذاب وحينما جاءت النهضة الحديثة وتغيرت المفاهيم العلمية بالتدرج والترقي والتطور وقع الصراع بين العلم والكنيسة ، وانهزم الدين هزيمة منكرة ، وسقط الدين سقوطاً لم ينهضوا بعده وتزعزع الفكر الديني في أوربا وفقد تأثيره في الضمائر والنفوس ، وأصبحت أوربا النهضة لا دينية تقف بصرامة في مواجهة النصرانية والأديان السماوية كلها ، وساد الاعتقاد ، بأن الفكر الديني والفكر العلمي قضيتان متناقضتان متعاديتان . الإيمان بأحدهما يستلزم حتمية الكفر بالآخر . وهكذا وقع المحذور الذي ساق أوربا إلى المادية بكل معانيها ، وإلى فصل الدين عن الحياة ، وأن الدين إذا كان لا بد منه ، فهو قضية فردية تتعلق بذاتية الإنسان ولا تتجاوزه إلى السياسة والمجتمع والدولة ، وأورث ذلك كله أن الديانة المادية هي التي تسود أوربا وأمريكا اليوم ، لا النصرانية وأصبحت الفضائل كلها في الفائدة العلمية . وأن القيم العليا والمبادئ السياسية هي النجاح المادي لا غير . مما دعا الكاتب الأمريكي الشهير John Gunther أن يقول في كتابه

« داخل أوربا » (Inside Europe)

« إن الإنجليز يعبدون بنك انجلترا ستة أيام في الأسبوع ، ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة » .

يقول « سيد أمير علي » في كتابه روح الإسلام وهو ينقل عن كتاب غربيين مسيحيين : « في عهد قسطنطين وخلفائه كانت العلوم تعتبر نوعاً من السحر أو الخيانة وكانت النزعة الدينية نحو كراهية العلوم العقلية ، هي التي عبرت عن نفسها خير تعبير

بالمثل القائل : « الجهل أبو الاخلاص لله » وها هو البابا « غريغوري » الكبير ، يؤيد هذه القاعدة بما لا يمكن دحضه ، فينفي من روما جميع المشتغلين بالدراسات العلمية ويحرق مكتبة « بلاتين » التي أسسها القيصر « أوكتافيوس » ويحرم دراسة آثار الكتاب والفلاسفة الكلاسيكيين ، ويستعيض عن ذلك بتشجيع الميثولوجيا الكنسية التي ظلت هي المذهب السائد في أوربا لقرون عديدة » .

نحن حين نستعرض تاريخ هذا الصراع ، نستطيع أن نرده إلى التفكير الديني لدى الكنيسة في القرون الوسطى ، الذي استمدته من فكرة ثبوت الخالق سبحانه ، وثبوت قصده في خلقه ، إلى ثبات كل شيء بالضرورة .. ولذا كانت فكرة التطور التي أثبتها العلم صدمة مذهلة للجماهير شككتهم في الدين وفي الإله .

بينما كان علماء المسلمين قبل ذلك بعشرة قرون قد فرقوا تفريقاً واضحاً بين ثبات ـ الخالق سبحانه وبين تطور خلقه ـ وفي هذا يقول « دريبر » في كتابه الآنف الذكر : ـ « إننا لندهش حين نرى في مؤلفات المسلمين من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر . »

ويقول « بريفولت » في كتابه « بناء الإنسانية » :

« لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة الإسلامية ، وليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، وكانت أظهر ما تكون في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي » .

ولقد كان احتكاك الغرب بالشرق عن طريق الحروب الصليبية وإسبانيا من أهم العوامل في النهضة الأوربية ومولد الحضارة

الغربية . وهذا الاحتكاك وذاك هما الأب الشرعي لتلك النهضة غير أن النهضة الأوربية بدلاً من اهتدائها بالمنهج الرباني الذي أنشأ الحضارة الإسلامية ، راحت تخاصم الإسلام بضراوة واستمرار إلى اليوم والغد بدل أن تتعاون معه للوقوف في وجه طغيان المادية والإلحاد .

وإذا نحن أخرجنا الإنجازات العلمية من الحضارة الأوربية ، ماذا يبقى لها وماذا يبقى منها غير الشر والفساد ، والظلم والطغيان والجنس والحشيش ؟ .. إن منهج الحضارة الأوربية ماض دون هوادة في تدمير خصائص الإنسان بتحويله إلى آلة أو حيوان ..

وحذار أن يظن بنا التنكر للعلم في الحضارة الأوربية ، لكننا نؤمن أن العلم التجريبي هو ملك الإنسانية كلها ، وأن الطريق إليه ميسور ، وأن تملك المعارف العقلية والتكنية هو واجب حتم على كل أمة تريد أن تدفع عن نفسها غوائل التخلف ، وتلحق بركب الإنسانية وتأخذ مكانها في التاريخ ، خاصة كأمتنا العربية التي تواجه اليوم معركة بقائها .. لكن هل يعني هذا التفسير والتبرير من جهة أخرى أن تتخلى الأمة عن قيمها وعقائدها وأخلاقياتها وتراثها ، ليسمح لها بالدخول إلى حرم « التكنولوجيا » ؟

هل فعلت اليابان ذلك ؟ .. بل هل فعلته إسرائيل ؟

* * *

ولقد صار معروفاً عند أبسط المثقفين والدارسين أن الاستعمار زحف على بلاد الإسلام متكئاً على عصوين هما : التبشير ، والاستشراق .

أما أولهما : وهو التبشير فقد تزيا للناس بلباس الإنسانية والرحمة ..

وأما الثاني : وهو الاستشراق فقد أوهم الغافلين والجهلاء أنه موئل العلم والمعرفة وكلاهما في واقع الأمر والحقيقة كان نكبة على الإنسانية ، وسبة في جبين العلم والثقافة .

وفي « غانا » أو ساحل الذهب كما كانت تسمى قبل الاستغلال يقول الناس حتى هذا اليوم :

عندما جاء الاستعمار كانت لنا الأرض ومعه الإنجيل .. فأعطانا الإنجيل وأخذ منا الأرض .. ثم رحل بعد أن نهب الأرض وحرق الإنجيل فالتبشير في الحقيقة لم يكن إلا خرقاً وتخريفاً والاستشراق لم يكن إلا تضليلاً وتزييفاً من أجل ذلك كتب المؤلف يقول تحت عنوان « التبشير والاستعمار » .

يتفق معظم المؤرخين على أن الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على القتل والتدمير بل تعداه إلى التجهيل والتضليل ، فقد نقل المهزومون إلى أوربا صورة مشوهة عن الإسلام وحقيقته ، وقيمه الأخلاقية ، وعقيدته السمحة وشرعته الإلهية فاستقر في عقلها الباطني أن الإسلام دين شهوانية وحيوانية وعنف ، وقد تسللت هذه الصورة المشوهة إلى ضمائر رجال الكهنوت والمستشرقين والمثقفين كحقيقة لا تقبل الحوار . وحين يقف الأوربي اليوم موقف اللامبالاة أو الإهمال أمام الأديان ، فإنه يقف موقف العداء السافر والكراهية المطلقة للإسلام ، فقد لا تقبل أوربا تعاليم « البوذية » أو « الهندوكية » أو حتى « اليهودية » ولكنها تقف منها موقفاً موضوعياً عقلياً متزناً . أما حين تتجه إلى الإسلام

فيختل التوازن العقلي والتفكير الجدي ، ويعالجون الإسلام لا على أنه موضوع بحث علمي ، بل كمتهم يقف أمام قضاته ، وبعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة ، وتذكرنا أساليبهم المغرضة بأساليب محاكم التفتيش التي كانت تقوم على فكرة ثابتة مسبقة لا سبيل لمناقشتها ، وهي قداسة آراء الكنيسة ، وتكفير كل من يخالفها ولا مكان بعد ذلك للقرائن والأدلة الحسية المنطقية والعقلية ..

وهم يرون أن الطريق العلمي لبحث الإسلام هو إنكار قيمه مقدماً فمحمد ليس إلا مصلحاً دينياً ، وقرآنه صنعة بشرية ، ولذا فليس للقرآن من الحجية أكثر مما لرأي أي مسلم أو تفكيره فتفكير الزنادقة والباطنية والصوفية مساو في القيمة الدينية للقرآن والسنة ، لأنها جميعاً تصورات بشرية ، وأن المسلم في كل عصر هو حجة على الإسلام في سلوكه وأعماله والتزامه الأخلاقي .

وخلاصة دعواتهم تهدف إلى أمرين :

الأول : إبعاد الدين عن الحياة والسياسة ، وترك الحرية لضمير كل فرد ، يأخذ من الدين ما يشاء على هواه ، وهو ما جرت عليه أوربا منذ عهد النهضة ، والثاني : أن أحكام القرآن هي انعكاس للبيئة التي عاشها محمد في برهة من الزمن بأبعادها الإجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ولذا فإنما هي كانت لمكان وزمان معينين محددين ومن المحقق أنها لا توافق كل الأماكن والأزمان . ولو ولد النبي في غير جو مكة بمتناقضاته الإجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية لما قام بثورته ... التي صادفت كل ذلك النجاح .. وبهذا تكون دعوة محمد دعوة بشرية مقصورة على

أناس معينين في ظروف خاصة لا دعوة إلهية للناس أجمعين . وأن تلك الدعوة قد استنفدت أغراضها وتطور الحياة ، يوجب تطوير الإسلام بما يتلاءم مع مقتضيات العصر .

ولقد ساعد على استشراء هذا التزوير والتحريف ، تأخر المسلمين ، وتدهور مجتمعاتهم في عصور الجهل والغفلة والظلام ، وضياع ألق الدين وأصالته بين الخرافات والأساطير بين جهل أهله وعجز علمائه ـ كما كان يقول الشهيد عبد القادر عودة ـ وغياب المفكرين المبدعين الذين تعمقوا دراسة تراثهم ، واطلعوا على تطور الحياة الفكرية في أوربا خلال القرنين الماضيين ، وبروز الايديولوجيات المختلفة المتناقضة مع القيم الخلقية والروحية الثابتة الخالدة .. ليتملكوا القدرة على مواجهة ذلك الغزو ومناقشته وتفنيده وتقديم صور صحيحة واضحة لحقيقة الإسلام ومبادئه وتعاليمه بالحجة والدليل ، وفي أسلوب علمي عصري سهل التناول لإقناع الجماهير الغربية بخطل تلك الأضاليل والأباطيل ، التي انبعثت من الهوس الديني والشبهات الصهيونية والدوافع السياسية ونخشى لو نحن أردنا أن نقتبس كل مقولات المستشرقين والمبشرين ، أن يتسع أمامنا مجال القول إلى غير نهاية لكننا نجتزئ منها اجتزاء الدلالة لا الحصر ..

يقول المستشرق الفرنسي « كيمون » في كتابه « باثولوجيا الإسلام » :

« إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً ، بل هو مرض مريع وشلل عام ، وجنون ذهولي ، يبعث على الخمول والكسل ، ولا يصحو منهما إلا لسفك الدماء

والإدمان على معاقرة الخمر .

وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين » . ويقول المستشرق المعاصر « ولفرد كانتول سمث » في كتابه : (Islam in Modern History)

إن الغرب يوجه كل أسلحته الحربية والعلمية والفكرية والإجتماعية والاقتصادية لحرب الإسلام . وأنه خلق إسرائيل في قلب العالم الإسلامي كجزء من هذا المخطط المرسوم ويقول ؛ (إن العلمانية التركية التي قام بها « أتاتورك » هي حركة إصلاحية إسلامية ، وهكذا يجب أن يفهم الإسلام ...) .

ويقول لورانس براون :

« إذا اتحد المسلمون في أمبراطورية واحدة أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً وأمكن أن يصبحوا نعمة أيضاً ، أما إذا بقوا متفرقين ، فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير » .

ونحن لا نستطيع أن نفصل بين الاستشراق والتبشير ، فمهمة الاستشراق تسميم وإفساد عقول المثقفين بإبعادهم عن الإسلام ، ومهمة المبشرين تسميم وإفساد عقول العامة بكافة وسائل الجذب والإغراء ، وكلاهما يمشي في ركاب الاستعمار ، يمهد لاستيراده ويمكن لبقائه وقد نشأ أساتذة الاستشراق والتبشير في محاضن أقسام الدراسات الشرقية في الجامعات الغربية والأمريكية .

إن نشر الدين المسيحي لدى معظم الهيئات التبشيرية التي غزت وتغزو بلادنا هو أمر ثانوي ووسيلة إلى غاية أشد خطراً وأعمق أثراً ، هي إثارة النعرات الطائفية بين أبناء الوطن الواحد والحضارة الواحدة ، وتمزيق الجبهات الوطنية في الكيانات العربية .

وللتمثيل على ذلك نضرب مثلاً واحداً هو ما ذكره الدكتور حسين مؤنس في مقال له بمجلة المصور المصرية الصادر بتاريخ ١٩٧٣/٥/٣٠ .

قال : « في يوم من أيام الحركة الوطنية في مصر سنة ١٩١٩ شارك المسلمون والأقباط في جبهة وطنية متماسكة كشأنهم في مصر على الدوام تسلل المبشر الأمريكي « زويمر » إلى الأزهر في زي طلبة العلم واندس في حلقات الدروس .

« وكان زويمر هذا صعلوكاً ينسب نفسه إلى الدين والعلم ، وهو في الحقيقة جاسوس خبيث تنفق عليه جماعة دينية في ولاية (كونيكتكات) وكان يحتمي بالسفارة الأمريكية ويكتب مقالات في مجلة تدعى « العالم الإسلامي » ما زالت تصدر إلى الآن في مدينة « هارتفورد » بالولاية المذكورة ، يطعن في الإسلام دون حياء أو خجل » .

« ومثله في هذا صاحبه الأب اليسوعي « هنري لامانس » الذي كان يقوم بعمل مماثل في بلاد الشام » .

« اندس زويمر بين الطلاب ، ثم دخل في حديث مع طالب ، وتناول كتبه ينظر فيها ثم أعادها إليه بعد أن دس بينها رسائل من تأليفه في الطعن على الإسلام طبعها في مطبعة إحدى الجمعيات القبطية . وكان غرضه من ذلك أن تقوم الفتنة بين الأقباط والمسلمين. ولكن هذه الدسيسة الخبيثة لم يلبث أمرها أن انكشف ، ونشرت الصحف مقالات لنفر من علماء الأزهر يستنكرون فيها عمل هذا المبشر الخسيس . ونشرت « البلاغ » مقالاً عنيفاً لكاتب قبطي هو : « كليم أبو سيف » بعنوان « المبشرون » قال في بعض

فقراته : « عجيب أمر هؤلاء المبشرين ، فهم ـ رغم أنني أستطيع أن أقسم بأنهم لا دين لهم ما يزالون يرتكبون باسم الدين كل المنكرات والمحرمات التي نهاهم عنها الدين . وهم ما يزالون يتمادون في صفاقتهم وتحديهم لشعور المصريين بتلك الأعمال تمادياً ، وما أظن أناساً رزقوا شيئاً من الحياء أو الأدب يستطيعون اتيانه وتحمل مسؤوليته » .

« أنتم أيها المبشرون لا أكثر من جواسيس للاستعمار أتيتم إلى هذه البلاد لا لنشر فضيلة دين معين ، بل لإتباع سياسة شريرة موحى بها من جهات معينة ، ومن نتائج هذه السياسة وقوع الخلاف بين المصريين أبناء الأسرة الواحدة » .

« إذن أنتم لستم مبشرين تستحثون الناس على التحلي بالفضيلة ، وإنما أنتم مجرمون تتخذون الدين ذريعة لارتكاب المنكرات وأنتم تعلمون » .

إنهم مجرمون حقاً ، ولو كانوا شرفاء لبشروا بالفضائل الأخلاقية في مجتمعاتهم الغربية التي لا تؤمن بدين .

ومن ذكرياتي الشخصية حول هذا الموضوع ، أن الرئيس المارشال أيوب خان قال لي : « في سنة ١٩٦٠ قام الرئيس جمال عبد الناصر بزيارته الأولى إلى كراتشي في طريق عودته من الهند ، وكان لتلك الزيارة أهمية خاصة عندنا رجاء أن نضع حداً للجفوة المفتعلة بين البلدين الشقيقين اللذين يفرض عليهما الإسلام أن يتعاونا على البر والتقوى بدل التشاحن والبغضاء ..

« وقضيت ساعات طوالاً في حديث منفرد مع ناصر وأذكر أنني قلت له فيما قلت : « اسمع يا أخي إن إفريقيا هي القارة

المسلمة بحق إذ أن نحو ثلثي سكانها يدينون بالإسلام وقد أخذت الدول الإفريقية تنفض عنها غبار الجهل والتخلف ، وتطارد فلول الاستعمار ، وها هي تحتل اليوم مكانها المرموق في الهيئة الدولية .. غير أن الإرساليات التبشيرية التي غزت تلك القارة قرنين من الزمان ، قد خلفت وراءها تركة ضخمة من تضليل الجماهير المسلمة وتجهيلها بحقيقة الإسلام ، وتشويهه في نفوس معتقديه بالشكوك والشبهات حتى أن إسلام الأكثرية الساحقة هو في الحقيقة انتماء سطحي عند العلماء وإن كان عند القلة من الخاصة عميق الجذور .

« ورجوت أن نتعاون لمواجهة التيارات المتضاربة في القارة المسلمة ، بغرض انقاذ المسلمين من حالة الضياع تلك ، عن طريق إيفاد بعوث العلماء الأكفاء الجامعين بين تعمق الإسلام ودراسة الأيديولوجيات الغربية ، إلى مختلف الدول الإفريقية لتوعية إخواننا وتعريفهم بحقيقة دينهم » .

« وقلت لناصر : ألا ترى معي أن تجنيد الدول الإفريقية لتشارك معنا في معاركنا المصيرية وفي مقدمتها قضية فلسطين مشاركة انفتاح وفهم وإيمان ، أفضل من تحييدها ، بل أفضل من فلسفتكم في تصدير الثورة إلى تلك الدول كما تصدرونها إلى الدول العربية .. فابتسم عبد الناصر ولم يجب ، فعلمت عندئذ أننا مختلفان حتى في الوسائل والغايات .. »

* * *

يأتي بعد ذلك دور العلمانية .. أو الفصل بين الدين والدولة والانسلاخ الكامل عن المفاهيم التي ارسلتها العقائد السماوية ..

وبعبارة أكثر تحديداً ودقة .. رفض ما جاء به الله في كتبه ، والتمرد الواضح على انبيائه ورسله .

إن هذه وتلك حلقة من سلسلة الصراع ضد الإسلام وحده .. لأنه الدين الذي يقدم منهجاً كاملاً للحياة في مجال السياسة والحكم ، وفي التشريع والاقتصاد وفي الأخلاق والمعاملات . وحتى في أبسط الجزئيات التي يتعرض لها الإنسان في صراعه من أجل البقاء تجد الإسلام يعالج كل جزئية من هذه الجزئيات محدداً مكانها من العقيدة وأثرها في المجتمع والأمة .

وقد تناول المؤلف في كتابه هذه القضية فقال تحت عنوان « العلمانية والإسلام » :

عندما بزغت النهضة الوطنية في بعض بلاد الشرق الأوسط ، في إطار الدعوة الإسلامية على أيدي الرواد من المصلحين الإسلاميين كجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، والزوايا الدينية في الشمال الإفريقي والحركة الوهابية في الجزيرة العربية ، أجفل المبشرون والاستعمار وأصدرت المطابع الغربية ألوف الكتب التي تحض الدول الاستعمارية على محاربة هذا الاتجاه ، وبذلوا كل مساعيهم ليلفقوا لأهل كل قطر مسلم قومية وهمية .. كبعث الفرعونية في مصر ، والفينيقية في لبنان ، والأشورية والكردية في العراق ، والظهير البربري في المغرب .

ولما لم تنتصر هذه الدعوات الإقليمية ، لجأ الاستعمار إلى فكرة القومية العربية لتكون مناقضة ومعارضة للإسلام . ومما يؤسف له أن نفراً من الشباب العربي الذين درسوا في الإرساليات التبشيرية والدراسات الشرقية في الجامعات الغربية ، تجاوبوا مع

هذه الفكرة وأخذوا يناهضون الإسلام سراً أم علانية تحت ستار العروبة ، وجميع الأحزاب القومية التي نشأت في بلادنا جعلت همها الأول الدعوة إلى العلمانية ومحاربة الإسلام فجعلوا العلاقات بين الدول العربية تقوم على رابطة العرق وحده المجردة من كل صلة بالدين . وجعلوا علاقة الدول العربية بالدول الإسلامية في نطاق هذا المفهوم لا تختلف عن علاقتها بالكونغو والمكسيك والأرجنتين .

وهكذا نشأت فكرة القومية المغلقة على أساس تصورات خيالية وتجريدات ذهنية يجري فرضها على الواقع بالعنف والإرهاب . وساقت هذه التصورات بعض دعاة القومية إلى صياغة تعريفات غريبة لا مدلول لها ولا مضمون ولا مفهوم ، في وصف الأمة العربية .. وبذا جعلوا فكرة القومية موازية لفكرة الألوهية ، للتخلص من الإسلام ، ولذا نشأت معظم الأحزاب العربية قومية ثم انتهت ماركسية لعدم وضوح الرؤية ، وفوضى الشارات .

وفي الجهة المقابلة ، نجد اليهود يقدمون لنا في كل صباح دليلاً جديداً على محافظتهم على تعاليم التوراة والتلمود ، وأن ذلك هو سر تجمعهم وانتصاراتهم وليست قصة مشروع الزواج المدني التي فشلت في إسرائيل فشلاً ذريعاً بالرغم من الأقلية الدينية المتطرفة في « الكنيست » إلا مظهراً لذلك الترمت المريب .

ولقد سمعت عضو « الكنيست » « مناحم باروس » يقول في حوار بالراديو الإسرائيلي « إن سر بقاء اليهود متمثل في محافظتهم على تقاليدهم وطقوسهم الدينية المستقاة من التوراة » ، وقرأت للكاتب الإسرائيلي « ماتي غولان » قوله : « لقد قامت الدولة

لتحقيق وجود واستمرار الدين اليهودي والعنصر اليهودي .

لقد عاش الدين اليهودي والشعب اليهودي قروناً طويلة دون دولة يهودية ويمكن استمرارها بدون دولة .. لكن الدولة اليهودية لا يمكن أن تعيش بدون التمسك المطلق بالديانة اليهودية » .

وسمعنا أخيراً أن مجموعة من المتدينين الإسرائيليين قد اعتدوا في وضح النهار وبمرأى من رجال الأمن على متجر لبيع المنشورات الداعرة ، وتحطيمه وحرق محتوياته .. كما سمعنا باعتداءاتهم المتكررة على الإرساليات التبشيرية المسيحية لحماية المجتمع اليهودي من الانحراف الديني .

ونجد أن « شمويل يوسف عجنون » وهو من كبار المفكرين اليهود الحائز على جائزة « نوبل » في الآداب ، لا يخجل أن يقول : إنه يكتب بالعبرية وحدها لأنها لغة الله .. وأن كبار القادة والساسة والمثقفين وفي مقدمتهم « شازار وأشكول » وبن غوريون ، وديان وإيبان وبيرس وغيرهم وغيرهم ممن يزعم بعض مفكرينا أنهم ملحدون هرعوا عند احتلال القدس العربية في حرب سنة ١٩٦٧ إلى حائط المبكى ، يجأرون بالنحيب والبكاء ، ووقفوا حاسري الرؤوس بخشوع يتلون صلواتهم ، وبلغت العصبية الدينية ببعضهم أن يدس في شقوق الجدار أوراقاً صغيرة كتبوا فيها أمنياتهم .

وذكرت وكالة (الأسوشيتد برس) غداة الاحتفال بتشييع جنازة « تشرشل » في لندن أن « شازار وبن غوريون » اللذين مثلا الحكومة الإسرائيلية في ذلك الاحتفال ، سارا مسافة ميل ونصف ، وهما الشيخان اللذان تجاوزا السبعين ورفضا ركوب العربة

لأن يوم الاحتفال كان يوم سبت ، والدين اليهودي يحرم استخدام وسائل النقل في ذلك اليوم .

وبن غوريون وغيره من القادة اليهود ـ جميعهم دون استثناء لا يأكلون الطعام إلا إذا أعد وفقاً للعقيدة اليهودية وتحريماتها الواردة في التوراة .. واليهود إلى هذه الساعة ، يرجمون السيارات في قلب تل أبيب إذا سارت أيام السبت في الطرقات .. و .. « يوسف تيكواه » مندوب إسرائيل في الهيئة الدولية ، يعطل اجتماع مجلس الأمن ليقوم بالطقوس الدينية ..

والجماهير اليهودية حين وصلت إلى حائط المبكى في السابع من حزيران المشؤوم صلى بهم حاخامهم الأكبر صلاة النصر والظفر ، فعلا (النواح) وجلجلت الأصوات الهادرة : ليسقط محمد . اليوم انتهى محمد « محمد مات وخلف بنات » بالثارات خيبر ...

لم يهتفوا ضد ناصر أو الأتاسي أو عارف أو الحسين أو غيرهم من قادة العرب وزعمائهم .. لأن هدف المؤامرة ، هو محمد والإسلام .

ومع ذلك لم نسمع صوتاً واحداً يرتفع في الساحة العربية للدفاع عن محمد ودين محمد ولم نجد مفكراً واحداً يكتب حرفاً في تعبير اليهود بالأرضية الدينية .. ولم نجد عربياً يسأل نفسه : لماذا يهتف القوم ضد محمد ؟ .. ذلك لأن معظم من واجهوا إسرائيل في معركة الذل من التقدميين .. لا يعرفون محمداً بل لا يعرفون الله .. ؟

ثم ألم تسمع بالمتدينين ، اليهود يهرعون إلى ساحات المسجد

الأقصى ليقرعوا البوق وقت الأذان ، في مسجد عمر ، ويقيموا حلقات الرقص في ساحات الكنائس والمساجد احتقاراً واستهزاء بالديانتين السماويتين العظيمتين .

وحين يعلن اليهود في كل مناسبة . أن هدفهم البعيد ، هدم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وبناء هيكل سليمان الجديد فوق انقاض الإسلام . ماذا تريدون منا أن نسمي ذلك .. أليس هو الأرضية الدينية للعدوان الإسرائيلي التي تنكرونها علينا . وحين يقول بن غوريون : « بدون التفوق الروحي لم يكن شعبنا ليستطيع البقاء ألفي سنة في الشتات .. وأن لا معنى لإسرائيل بدون القدس ، ولا معنى للقدس من غير الهيكل » . ماذا تريدوننا أن نسمي هذا ؟ وهل نلام إذا استصرخنا المسلمين والمسيحيين لينقذوا مقدساتهم من الدمار ؟

ألا تكفي كل هذه الأدلة والبراهين لإبراز الطابع الديني للغزوة الصهيونية ..

إن مفكري العرب الثوريين يعرفون هذه الحقائق ، ويتعمدون إنكارها ، فهم ما زالوا يقولون لنا إن المجتمع الإسرائيلي هو مجتمع لا ديني وأن الدولة الإسرائيلية دولة علمانية . وأن كبار القادة الإسرائيليين ملحدون ، ليبرروا دعوتهم إلى العلمانية والإلحاد وأول دعواهم التي يبشرون بها عدم زج الدين في معركتنا مع إسرائيل والدعوة إلى حرية الفكر ، وأن طرح القضية على أرضية دينية خطأ سواء أكان الطرح تكتيكياً أو استراتيجياً ..

مع أن فيما سقناه ، وهو قليل من كثير ، من أقوال زعمائهم وقادتهم ، ألف دليل حسي على كذب دعواهم ، ويكفي أن

نشير إلى أن اليهود الذين تجمعوا في إسرائيل من تسعين دولة وجنسية ، ليقيموا مجتمعاً متلاحماً متضامناً متكافلاً ، إنما تجمعوا على أساس الدين وحده وأن ما عرفناه من انعزال الأقليات اليهودية في المجتمعات الغربية ، قبل قيام إسرائيل ، مرده إلى شعورهم بالتفوق العرقي والديني وفق تعاليم أنبيائهم . وقد حافظوا مدة ألفي سنة في الشتات على ما يسمونه بقاء الدم اليهودي ومبادئهم الدينية .. ذلك لاعتقادهم بأن الحرص على هويتهم الدينية المتميزة هو سر بقاء الصهيونية ... وأن نهضة إسرائيل القومية وإحياء الدين اليهودي ـ كما يقول الحاخام « شختر » أمران لا ينفصلان ...

* * *

وفي الفصل الذي عقده المؤلف تحت عنوان « الأمة العربية بين أرجل العمالقة » .

يتحدث عن دور أمريكا في تخريب هذه الأمة بأساليبها المعروفة في إثارة الفتن والقلاقل ، وفي دعمها لنوع معين من الرجال الذين يحققون أغراضها التخريبية في إطار مزيف من الشعارات واللافتات الجميلة ، ويقدم بالوثائق الدليل تلو الدليل على فحش هذه الخطة وأغراضها الدينية الخبيثة وفي الوقت نفسه يكشف حقيقة الدور الذي تلعبه روسيا الصديقة وموقفها ـ الحقيقي ـ من القضايا المصيرية للإسلام والعروبة ..

لقد سلكت الشيوعية الدولية والمحلية منذ بدء المشكلة الفلسطينية مسلكاً مستغرباً عجيباً فدعت منذ البداية إلى قيام إسرائيل بين العرب واليهود ، والقضاء على فكرة القومية السخيفة والقضاء على الدين أفيون الشعوب .

يقول خالد بكداش زعيم الحزب الشيوعي السوري : إن إزالة دولة إسرائيل شعار ليس له أساس طبقي كما أنه غير واقعي . وحين وقع الخلاف بين أعضاء الحزب الشيوعي السوري وذهبوا إلى موسكو للتحاكم في الوطن الأم قال لهم المسؤولون السوفيت : إن السياسة السوفيتية في القضية الفلسطينية تنطلق دائماً من أن إسرائيل واقع موجود . وإذا كان ثمة كفاح عربي من أجل فلسطين فيجب أن يكون هدفه الوحيد هو إقامة أنظمة شيوعية في إسرائيل والدول العربية . !

وحين سئل مسؤول سوفيتي عن هجرة اليهود إلى إسرائيل قال : لا تهولوا .. وماذا في هذا كونوا واقعيين أيها العرب . وتلبية لما يقوله الرفيق فإننا سنكون واقعيين جداً حين نتساءل : الأمريكان يقدمون السلاح .. وأنتم يا رفاق تقدمون الرجال فأجيبوا يا أصدقاء العرب : من العدو والصديق في ساحة الحرب والقتال ؟

إن هذا الكتاب أشبه بـ « ملحمة » فكرية مع جيوش الظلام الزاحفة على عقول المسلمين وقلوبهم . إن الكاتب هنا لا يحمل قلماً .. إنه فارس يخوض معركته بسيف يشتعل ناراً وغيرة وغضباً ... وليس مهماً أن ينتصر في معركته اليوم أو غداً .. فالقيم والمثل لا تؤتي ثمارها سريعاً .. إنما تجيء في نهاية المطاف بعد جهاد تتمحص فيه حقائق الرجال الذين يحملون أمانة « الكلمة » . وبعد معاناة طويلة مع الشياطين والمرجفين الذين يفزعهم ظهور الحقيقة ..

وقد رد الكاتب على الذين يعارضون تطبيق الشريعة الإسلامية ، والذين اتخذوا من « الغرب » ، مثلاً في الحياة وقدوة .. فقال :

إننا نعرف أن المفتونين بالحضارة الغربية لا يصدقون إلا ما يأتيهم من وراء البحار ولذا سنفجأهم بأقوال عدد من خيرة المفكرين والفلاسفة والمشرعين الغربيين الذين تعمقوا في دراسة الشريعة الإسلامية أو أتيح لهم التعرف على حقيقتها في مظانها الأصلية : فأذهلتهم الكنوز الهائلة التي تنطوي عليها ، واعترفوا لها بالتقدم والتميز على أفضل القوانين الوضعية الغربية القائمة على العلمانية التي يتباهى بها مفكرونا الثوريون .

يقول عميد كلية الحقوق في جامعة فينا الأستاذ « شيريل » : « إن البشرية تفخر بانتساب محمد إليها ، ذلك الأمي الذي استطاع أن يأتي بشريعة سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمتها بعد ألفي عام .. »

ويقول الفيلسوف والشاعر الألماني « جوته » : « أية شريعة في الدنيا لا تستطيع أن تعلو على شريعة محمد ، وسوف لا يتقدم عليه أحد . وإذا كان هذا هو الإسلام فكلنا مسلمون » .

ويقرر المؤتمر الدولي للقانون الذي ضم كبار فقهاء الدنيا عام ١٩٥١ : « إن الشريعة الإسلامية تنطوي على ثروة هائلة من الأصول الفقهية تجعلها صالحة لكل مطالب الحياة الحديثة » .

ويقول المستشرق الفرنسي « جان برك » وهو من أكبر الفلاسفة المعاصرين .. يقول عن الواقع العربي اليوم : « إن حركة التحرر العربي الحالية ستعيد بشكل أو بآخر التاريخ الثوري الإسلامي في عهده الأول . لقد كان الإسلام مرادفاً للحضارة العربية وتعبيراً عن الذات العربية ومما لا شك فيه أن تلك القوة الحضارية هي التي أعطت الشعوب العربية الكثير من إمكانات المقاومة ضد

المستعمرين ، وفي تعبير آخر لقد كان الإسلام نائباً عن القومية ولا أجد تناقضاً بين القيم الإسلامية والتكنولوجيا الحديثة » .

لكن لماذا هذا العداء للإسلام من الذين ينتسبون إليه زوراً ويحاربونه باطناً وظاهراً ؟ ولماذا هذا اللدد في الخصومة ، والإسراف في الكراهية لهذا الدين وحده ؟

إن الدين وإن اختفى ظاهراً من مجتمعات أوربا الحديثة إلا أنه يشكل في حياة هذه المجتمعات أخطر الأسلحة حين ترتفع للإسلام كلمة ، أو تنصب له راية . والحروب الصليبية لم تزل قائمة ، وإن اختلفت الجيوش والأسلحة ، وتنوعت أسباب الحرب والعداوة . فلماذا يعاب علينا التمسك بالعقيدة والدعوة إلى الإسلام في بلادنا المسلمة ؟

ولماذا لا يقال ذلك عن إسرائيل وهي دولة عنصرية متعصبة .. ؟

* * *

إن قطبي القوى المتحكمة في عالم اليوم : الرأسمالية والشيوعية قد فشلتا فشلاً ذريعاً وعجزتا عجزاً مهيناً ، في بناء المجتمع البشري .

إن هذا العالم الفاجر ، الظالم الغادر ، الملتوي على نفسه ، المنحرف عن مساره لا ينقذه إلا الإسلام .

لقد شهدت الدنيا تغيرات كثيرة في الأنظمة السياسية والمعتقدات الفكرية ، وكانت النتيجة عبئاً جديداً مضافاً إلى الأعباء المتراكمة .. تتغير الصور وتبقى المحتويات أقلية متخمة وأكثرية محرومة .. أقلية ظالمة وأكثرية مسحوقة .. ثوريون يصبحون إذا وصلوا رجعيين ، ورجعيون ينقلبون إذا وصلوا ثوريين .

وكيف يتغير العالم إذا لم يتغير الناس ؟ كيف يتغير المجتمع إذا لم يتغير الأفراد وكل تغير لا ينبثق من خلال عقيدة وإيمان ومنهج وتصور جديد للحياة والأحياء ، مصيره إلى زوال أو إلى مزيد من الآلام .

لقد كان « خروتشوف » يقول :

« إن التناقضات في المجتمع الإشتراكي مردها إلى العجز أمام أنانية الأفراد » .

ويقول (سولز ينتشن) الكاتب الروسي المضطهد المطارد لأفكاره المتحررة من ربقة القمع المستعلية على بشاعة الإرهاب :

« لقد حسبنا أن تغيير أشكال الإنتاج سيغير أخلاقيات الناس ، لكنا لم نقطف إلا الخيبة المريرة » .

والرأسمالية عجزت هي الأخرى ، حين أطلقت الحريات دون ضابط ليلهو الأفراد بخدر الجنس والأفيون عن استئثار السلطة الحاكمة والرأسماليين الجشعين ـ بالملذات والشهوات على حساب آلام الأكثرية المخدرة ، وتحولت الحرية المطلقة إلى فوضى عارمة مدمرة ..

وكيف يكون ضابط ، إذا كان هدف النظاميين سلخ المواطن عن إيمانه بالله ... عن صوت الحقيقة المنطلقة من ذاته . وبغير إيمان لا يبقى وازع ولا يبقى كابح وتسود شريعة الغاب ؟

إن التغيير المنشود لا يتم إلا عن طريق تغيير بنية المجتمع كلها من الأساس إلى القمة فإذا تغير الفرد وانصاع لصوت الله في ضميره ، تغير المجتمع بكامله .. وعندما يتغير المجتمع يعود التوازن وتسود الانضباطية والالتزام بين الأفراد والمجتمعات ،

تلك سنة الله في الأحياء ، كسنته في الكون ، لا محيد عنها ولا بديل لها .

لقد استدار الزمان كهيئة يوم مولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فالدنيا كلها تقف اليوم على مفترق طريقين لا ثالث لهما ، وعلى اختيارها يتوقف .. مصيرها .. فأما الله ، وأما الدمار ..

القرآن يتحدى

دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة

يقول « رينيه جينو » العالم والفيلسوف الفرنسي الذي عمت شهرته أنحاء العالم شرقاً وغرباً عن سبب إسلامه :

« إنه أراد أن يعتصم بنص مقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم يجد ـ بعد دراسة عميقة ـ سوى القرآن ـ فهو الكتاب الوحيد الذي لم ينله التحريف والتزييف لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة ..

ومن آيات هذا الحفظ وعلاماته البارزة في هذا العصر .. أن ألد أعداء الإسلام في هذا العالم يذيعونه مرتلاً صباح كل يوم من إذاعاتهم .. وأعجب من ذلك . أن إسرائيل التي تعلم يقيناً مدى ما في القرآن من أدلة دامغة لكيانها المزور تحرص على إذاعة هذه التلاوة ، وتقدمها إلى المستمعين بكثير من التوقير والإجلال .. والأعجب من هذا كله أن الاتحاد السوفيتي الذي تقوم فلسفته على إنكار الخالق جل شأنه ، وتحارب أي دين من الديانات التي تذكر اسمه .. الاتحاد السوفيتي هذا يأمر بطبع المصحف الشريف في بلاده ويقوم بتوزيعه خارج وطنه .. وإن كان الغرض من ذلك كله إيهام السذّج بحياده تجاه الدين .. أو الدعاية لنفسه في شعوب المسلمين .

إنني أحتفظ في مكتبتي بنسخة من هذا المصحف الذي طبع في طشقند سنة ١٣٧٩ هـ — ١٩٦٠ م ، وقد تسلمتها بحيلة من الملحق الثقافي السوفيتي حين حضر إلى مكتب شيخ الأزهر المرحوم الشيخ محمود شلتوت ليقدم له طالبين أرسلهما المفتي بابا خانوف للالتحاق بالأزهر ومعهما نسختان من هذا المصحف وكأنما أحضرهما الرجل معه استعداداً للحلف بأغلظ الايمان إذا اقتضى الأمر ذلك في حالة الشك والريبة .. لقد رفع الشيخ شلتوت المصحف بيده ثم قال منفعلاً : اكتُبْ يا بُنيَّ وأشْهِد العالم على ما تكتب أن القرآن يقدم كل يوم دليل إعجازه وصدقه ــ وإلا .. هل يتصور أحد أن الاتحاد السوفيتي الذي يعلن أن « الله خرافة » وأن « الدين أفيون الشعب » هو الذي يقوم بطبع هذا المصحف ..

* * *

وفي كل يوم .. يأتي القرآن بجديد ... وهذا الجديد ليس وحياً من السماء يضاف إلى ما استقر عليه الأمر في حياة النبي أو بعد مماته . لقد انقطع الوحي منذ غادر الرسول (ص) دنيانا إلى الرفيق الأعلى .. وإنما الجديد الذي أعنيه هو ما يتكشف للباحثين والدارسين من أولي البصائر .. إنه الكشف عن حقائق هذا الكتاب المعجز وآياته في الحياة والناس والكون ، وكان آخر « جديد » في هذا المجال ما كتبه العالم الفرنسي المحقق الدكتور « موريس بوكاي » ــ Maurice Bucaille عن القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم .

لقد بدأ المؤلف كتابه بالاعتذار عن هذا الجهل الذي غطى على عقول أوربا تجاه الإسلام .. ولكن الرجل يلتمس العذر

لهؤلاء الذين حيل بينهم وبين الحقيقة ، إذا تذكرنا الطريقة التي اتبعت في تثقيف الأجيال الكثيرة فيما يتعلق بالقضايا الدينية لدى الإنسان. وكيف فرض عليهم الجهل في كل ما يمس الإسلام . وهكذا .. فإن مثل « الدين المحمدي » و « المحمديون » ليدل على الرغبة في أن تظل النفوس مقتنعة بهذا الرأي الخاطئ القائل : بأن تلك معتقدات انتشرت بفضل الاستعمال السائد حتى اليوم في التسميات جهاد رجل وأنه ليس له « بالمعنى الذي يدركه المسيحيون » مكان في تلك المعتقدات . ولنضف أن كثيراً من معاصرينا المثقفين يهتمون بالجوانب الفلسفية والاجتماعية والسياسية في الإسلام دون أن يتساءلوا عن التنزيل الإسلامي بصورة خاصة .. كما كان يجب عليهم أن يفعلوه ، ويرون من البديهيات أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد اعتمد على ما سبقه ، وذلك بقصد استبعاد قضية الوحي منذ البدء » ص ٦ .

وإننا لنأسف حقاً لذلك الموقف الذي يهدف إلى تبرير الاحتفاظ في نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافاً لكل منطق .. إن ذلك يسيء كثيراً إلى الإيمان بالله لدى بعض العقول المثقفة .. ومع ذلك فقد أثبتت التجربة أنه إذا كان بعضهم قادراً على فضح بعض مواطن الضعف من هذا النوع فإن الغالبية من المسيحيين لم تدرك حتى الآن وجود هذا الضعف ، وظلت في جهالة تامة من أمر هذا التناقض مع المعارف الدنيوية المشهورة التي تعتبر غالباً من المعارف السياسية جداً .. ص ١٠ .

وهناك فرق جوهري بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة ، ونعني بذلك فقدان نصوص الوحي الثابت لدى المسيحية ،

في حين أن الإسلام لديه القرآن الذي هو وحي منزل وثابت معاً .

فالقرآن هو الوحي الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل ، وقد كتب فور نزوله ، ويحفظه ويستظهره المؤمنون عند الصلاة وبخاصة في شهر رمضان ، وقد رتب في سور بأمر من محمد صلى الله عليه وسلم ، وجمعت هذه السور فور موت النبي (ص) وفي خلافة عثمان (من السنة الثانية عشرة إلى السنة الرابعة والعشرين التالية لوفاة محمد صلى الله عليه وسلم) ، لتصبح ذلك النص الذي نعرفه اليوم .

أما الكتاب المسيحي المقدس فإنه يختلف بشكل بيّن عما حدث بالنسبة للإسلام . فالإنجيل يعتمد على شهادات بشرية متعددة وغير مباشرة ، وإننا لا نملك مثلاً أية شهادة لشاهد عيان لحياة عيسى ـ خلافاً ـ لما يتصوره الكثير من المسيحيين ولقد كانت مقابلة نصوص الكتب المقدسة بحقائق العلوم ـ موضوع تفكير الإنسان في كل العصور ـ ولكن تطور العلم كشف للمفكرين عن وجود نقاط خلاف بين الاثنين ، وبهذه الطريقة خلق ذلك الوضع الخطير الذي جعل اليوم مفسري التوراة والأناجيل يناصبون العلماء العداء .. إذ لا يمكن في الحقيقة أن نقبل بأن رسالة إلهية تنص على واقع غير صحيح بالمرة .. وبناء على ذلك فليس هناك سوى إمكانية واحدة للتوفيق المعقول بين الأمرين . وهي عدم قبول صحة المقطع الذي يقول في التوراة بأمر غير مقبول علمياً ص ١١ .

« ... وإن دراسة نص القرآن في العصر الحديث لم تكشف عن الحاجة إلى إعادة النظر في هذا ، وسوف نرى فيما بعد أن

القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية ، وهي وقائع كثيرة جداً ـ ..
وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة
أدركت بعد الانتهاء منها ، أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة
قابلة للنقد من وجهة نظر العلم » .

لقد أجرت مجلة « المعرفة » التونسية حواراً مع المؤلف لبيان
السبب الذي من أجله ألف هذا الكتاب ، وعن الظروف التي
دفعته لإخراجه وكتابته على هذا النحو . وقد رأيت في هذا الحديث
إضافة مهمة ينبغي ألا تهمل ونحن بصدد عرض هذا الكتاب
لأن قيمة المكتوب والكاتب ترتفع قيمة وثقة حين تدرك نبل
الغاية الدافعة إلى البحث ، وصدق النية الحافزة إلى التوضيح
والشرح .

سؤال : كيف بدأت فكرة تأليف الكتاب ؟

ـ إن الناس لا يتصورون أن عاملاً يدوياً (لأني عامل يدوي
باعتبار أني جراح) ينكب على تعلم العربية ثم على دراسة القرآن
والإنجيل دون مناسبة . والحق أني صادفت في فرنسا بعض
المسلمين المستنيرين والمثقفين ، الذين بينوا لي أن معلوماتي حول
الإسلام خاطئة نظراً للتربية المسيحية التي تلقيتها في طفولتي ،
ونظراً لمطالعاتي المشتبهة لبعض الصحف والمجلات ولقد أدركت
أثناء محادثاتي مع هؤلاء الأشخاص مدى الحاجز الكبير الذي
يفصلني عن المعرفة الحقيقية للإسلام ..

لذا بدأت وأنا في الخمسين بتعلم العربية ولما أحسست بقدرتي
على فهم القرآن فتحته وبدأت في دراسته دون أي فكرة مسبقة

ودون أن تخامرني أبداً فكرة تأليف كتاب .

وصادفت أثناء قراءاتي بعض النظريات العلمية الحديثة التي تتنافى تماماً مع الأقوال التي تصرح بأن محمداً هو الذي ألف القرآن بإرشاد من بعض الأحبار أو الرهبان . ولقد دهشت لما ورد في القرآن من نظريات فبدأت بجمعها دون أي معتقد ديني بل كان موقفي أولاً علمياً بحتاً .

ولما أنهيت قراءة القرآن ، توصلت إلى نتيجة وهي : أنه من المستحيل أن يكتب إنسان في القرن السابع ميلادياً كل هذه الحقائق المجهولة آنذاك .

هكذا بدأت فكرة الكتاب . وهو حسب رأيي أول كتاب يؤلفه غربي حول هذا الموضوع .

و بما أني أردت أن يكون البحث عميقاً رأيت أن أقوم بدراسة مقارنة مع التوراة والإنجيل ، وهكذا ولد الكتاب .

سؤال : توصلت في آخر كتابك إلى نتيجة وهي : ضرورة التسليم بصحة الإسلام ، فما معنى هذا ؟

– إن إعلان الإسلام يعني التصريح بأن القرآن كتاب موحى به (ولم يؤلفه بشر) وان محمداً رسول الله ولا أرى هنالك موقفاً آخر . لكن موقفي كان أولاً موقفاً فكرياً . ولقد كنت أتجنب في كل اتصالاتي وتصريحاتي طرح الموضوع من وجهة النظر الدينية العقائدية . وهذا ما فعلته أمام الأكاديمية الطبية بفرنسا منذ سنة حين طرحت مشكلة المعطيات الفيزيولوجية والجنينية في القرآن وقلت وقتها إنه لا يوجد شرح لوجود مثل هذه المعطيات

الصحيحة في القرآن إلا إذا اعتبرنا أنه كتاب منزل ، ولقد توصلت إلى هذه النتيجة كنهاية لبحثي ولم توجهني هي وهذا ما أقصده عندما أقول إن موقفي كان فكرياً بالدرجة الأولى .

سؤال : هنالك صعوبة كبيرة تحول دون التفاهم مع الأوروبيين حول موضوع الدين . ذلك أن الدين والألوهية والمفاهيم المتصلة بها تتسم في عقل الغربي بسمة الغموض فهل ما زالت هذه الصعوبات قائمة ؟ وما العمل لإزالتها ؟

– أعتقد أولاً : أن هنالك تغيراً جذرياً في موقف المسيحيين وهذا التغير نتيجة مباشرة مجمع الفاتيكان الثاني(Council II Vatican) فهذا المجمع دشن الانفتاح على الديانات الأخرى . وهنالك نشرة أصدرها الفاتيكان وأشرت إليها في كتابي وعنوانها «توجيهات حول الحواريين المسيحيين والمسلمين» ، وما مؤتمرات التقارب بين الإسلام والمسيحية إلا نتيجة لمجمع الفاتيكان الثاني . إذن وللعودة للسؤال : هنالك تحول جذري بطيء ولكنه أكيد . ولقد جاء من القمة ولم يمس القاعدة إلا جزئياً . هذا التحول يتمثل أساساً في الاعتراف بالإسلام كدين من طرف الفاتيكان .

ولا بد من دعم هذا التحول وتشجيعه من طرف المسلمين ، الذين يتحملون مسؤولية التعريف بدينهم تعريفاً صحيحاً وذلك من خلال الكتب والدراسات والمحاضرات حتى يدرك الغربيون أن ما يعرفونه عن الإسلام خطأ تماماً . هذا هو دور المسلمين فإذا وقع تزييف مقصود أو غير مقصود ، عليكم أنتم المسلمون توضيح الحقيقة .

هنالك مثلاً مشكلة الله ففي ترجمات القرآن بالفرنسية نجد كلمة (Allah) بينما يجب أن نجد كلمة (Dieu) أو كلمة (God) إذا كانت الترجمة إنجليزية ، فالإنسان الفرنسي العادي يتصور أن المسلمين يعبدون إلاهاً خاصاً بهم يسمى (Allah) .

وهناك مثال آخر : لي كثير من الأصدقاء الذين يتصورون أن الإسلام يرفض السيد المسيح ولقد أفهمتهم الحقيقة وهي أن الإسلام يعتبر عيسى نبياً مثله مثل باقي الأنبياء ولقد أطلعتهم على بعض الترجمات واقتنعوا .

بعض الحقائق البديهية بالنسبة لكم مجهولة تماماً عند بعض المثقفين . ولو اطلعتم على الشبهات التي تجول في أذهان المثقفين لاستغربتم .

سؤال : هل يمكن اعتبار كتاب القرآن والإنجيل والعلم آخر أبحاثكم ؟

– بعد إتمام الكتاب كان من الضروري أن يترجم إلى العربية ولقد قام بذلك أحد المصريين المقيمين بفرنسا وسيصدر قريباً عن دار المعارف[1] ولقد ترجم بعد ذلك للإنجليزية . كل هذا يمثل عملاً كبيراً حال دون التفكير في عمل جديد ، ثم أنت تعلم أن الأعمال الجدية تحتاج إلى وقت طويل .

سؤال : يرى بعض المفكرين المسلمين أن شرح القرآن على

(١) وقد صدر الكتاب فعلاً عن دار المعارف

ضوء العلوم أمر خطير على العقيدة ، ذلك أن الحقائق العلمية عرضة للتحوير أو ربما للتغيير . فما رأيكم ؟

– اسمح لي بالعودة إلى عنوان الكتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم وهنالك عنوان تحتي وهو : دراسة على ضوء المعلومات ـ أو المعارف الحديثة ـ ولا بد أن أشير إلى أن كلمة علم (Science) تعني الظاهرة العلمية وهي ما لا يتغير أو النظرية العلمية وهي شرح الظاهرة العلمية وهي ما يتغير .

وهاك المثال التالي : دوران الأرض حول الشمس أو دوران القمر حول الأرض ـ هذه ظواهر ثابتة لن تتغير (إلا إذا أراد الله ذلك) أما شرحنا لها فهو المتطور . وهذا مثال آخر : التناسل البشري الظاهرة الموجودة علمياً ولا تتغير أما معلوماتنا حولها فهي المتطورة وفي كتابي أشير إلى أن القرآن يؤكد الظاهرة العلمية لا النظرية . فالقرآن ليس كتاباً في العلوم وإن كان يشير إلى ظواهر علمية ثبت وجودها فيما بعد : إذن فليس هدفي أن تثبت العلوم صحة القرآن . فالدراسة العلمية دراسة موازية للقرآن فقط . وكل من ظن أن هدفي هو إثبات صحة القرآن على ضوء الاكتشاف العلمي يكون مخطئاً ، لأن هذا العمل يكون عملاً دينياً عقائدياً وسبق وأن صرحت لك أن موقفي كان من منطلق فكري علمي بحت يثبت أن العلم يوازي القرآن لا أن العلم يثبت صحة القرآن ..

سؤال : وقضية الأحاديث النبوية ؟

– كنت انتظر هذا السؤال . إن هذا الموضوع موضوع شائك وأود أن أؤكد قبل كل شيء أنه ليس لي تصور خاص للحديث

ولا أدعي أني سأضيف شيئاً للعلم الحديث .

ولقد حورت مع الأستاذ معروف الدواليبي (من سوريا) الفصل المخصص للأحاديث في الترجمة العربية ، وكل ذلك لتوضيح موقفي للمسلمين وسيصدر هذا التحوير في الطبعة الفرنسية الخامسة .

هنالك حقيقة تعرفونها وهي أن الأحاديث متفاوتة من حيث الصحة . فمنها الصحيح والضعيف والموضوع . ومن ناحية أخرى يمكنني أن أقسم الأحاديث إلى أحاديث ذات صبغة مقدسة وأحاديث تتعلق بأمور دنيوية . وفي حادثة تلقيح النخل أكد الرسول ما معناه أنه على المسلمين أخذ عقائدهم عنه ، أما فيما يتعلق بأمور دنياهم فقد يكونون هم أدرى . قلت كل هذا لأثبت أنه من الأحاديث ما ليس بصحيح (بينما لا توجد آيات ضعيفة أو موضوعة) وأن الخلاف يدور حول الأحاديث المتعلقة بالأمور الدنيوية والتي قد لا تكون صحيحة . هذا هو رأيي ورأي الأستاذ معروف الدواليبي .

سؤال : سؤال ذو صبغة عامة : هل تتوقع أن تساعد هذه العقلية الموضوعية التي تسود كتابك على نهضة إسلامية ؟

– إني لا أعتبر نفسي نموذجاً أو قدوة وعلى المسلمين الإجابة على هذا السؤال .

سؤال : فكيف تشرحون إذن أن كتابك لم يكتبه مسلم ؟ بل صدر عن إنسان تلقى ثقافة أوروبية .

ـ لكي يدرس الإنسان موضوعاً مثل موضوعي الذي درسته لا بد من التأكيد على نقطة الانطلاق ، فالزاوية التي ينظر من خلالها الدارس للموضوع يجب أن تكون متحررة من كل الأفكار المسبقة . أعطيك مثالاً على ذلك ، فالطبيب يستفيد في كثير من الأحيان من آراء بعض الناس الذين ينظرون للمشكل بطريقة تكون ربما أشمل من طريقة الطبيب . فالذي ينظر للمشكل من الخارج يشاهد ربما أكثر ممن يشاهده من الداخل .

* * *

ونعود بعد ذلك إلى الكتاب ..

لقد بدأ المؤلف كتابه بسؤال عن العهد القديم فقال :

من هو مؤلف العهد القديم ؟ كم من قراء العهد القديم الذين قد يطرح عليهم السؤال ولن يجيبوا إلا بترديد ما قرءوا في مقدمة كتابهم العهد القديم ؟ كم من القراء سيردد أن مؤلف هذه الكتب هو الرب برغم أنها كتبت بأقلام بشر ألهمهم الروح القدس ؟ ص ١٧ .

ولكن .. إذا حدث ورجع القارئ إلى المؤلفات التي كتبها بعض رجال الدين ـ للخاصة ـ وليس لعامة الجمهور ـ فسيكتشف أن مسألة أسفار الكتاب المقدس مسألة أكثر تعقيداً مما كان يظن بداءة ، وإذا استوضح « طبعة الكتاب المقدس الحديثة » التي ترجمت إلى اللغة الفرنسية ـ فإنه سيكتشف أن نبرة الحديث مختلفة جداً ، وسيدرك أن العهد القديم كالعهد الجديد ـ يثير مشاكل لا يخفي المفسرون عناصرها التي تسبب النزاع . ص ١٨ .

ويشير إدموند جاكوب (Edmond Jacob) إلى أنه في البدء لم يكن هناك نص واحد فقط ، بل كان هناك تعدد في النصوص ، وبعد أن يتناول المؤلف حقيقة هذه النصوص بالتحقيق والشرح والسند والتاريخ ينتهي إلى القول بـ « ضخامة ما أضافه الإنسان إلى العهد القديم ـ وبهذا أيضاً يتبين للقارئ التحولات التي أصابت نص العهد القديم من نقل إلى نقل آخر ، ومن ترجمة إلى أخرى بكل ما ينجم حتماً عن ذلك من تصحيحات جاءت على أكثر من ألفي عام . ص ١٩ .

يقول المؤلف :

في سفر التكوين توجد أكثر المتناقضات وضوحاً مع العلم الحديث وتمس هذه التناقضات ثلاث نقاط جوهرية :

أولاً : خلق العالم ومراحله .

ثانياً : تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض .

ثالثاً : رواية الطوفان .

وقد لاحظ الأب ديفو (R.P.Duvaux) مدير مدرسة الكتاب المقدس أن سفر التكوين يبدأ بروايتين عن الخلق كل منهما موضوعة إلى جانب الأخرى ، وتحتل الرواية الأولى ـ الإصحاح الأول والآيات الأولى ـ من الإصحاح الثاني ـ أنها بناء يتكون من أخطاء من وجهة النظر العلمية ، ولا بد من القيام بنقدها فقرة فقرة . ص ٤١ .

ثم يتابع المؤلف شرحه للتناقض والتخبط الغريب . في قصة الخلق ـ كما تنص عليه هذه الرواية ، ثم ما تشتمل عليه هذه الرواية من تناقضات مع الرواية الثانية .

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى قصة (تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض) فيفند علمياً ـ كل أقوال هده الأسفار التي تحدد بدء تاريخ خلق العالم منذ ٥٧٣٦ سنة ولكي تكون أكثر قرباً من الحقيقة : لنقل : إن خلق العالم بحسب هذا التقدير العبري يحدده تقريباً بسبعة وثلاثين قرناً قبل الميلاد .

ثم يتساءل المؤلف قائلاً :

ماذا يعلمنا العلم الحديث ؟ .. عسيرة هنا الإجابة عما يتعلق بتكون الكون ، وكل ما يمكن ترقيمه هو « عصر تكون النظام الشمسي » الذي يمكن تحديده زمنياً بتقريب مرض . ويقدر الزمن الذي يفصلنا عن تكون النظام الشمسي بأربع مليارات ونصف من السنوات .. ص ٤٧ .

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى قصة الطوفان لكشف تناقضات هذه القصة بوجود مصدرين متميزين بشكل جلي : أي كما وقعت في « نصوص التوراة » فالإصحاحات ٦ ، ٧ ، ٨ من سفر التكوين مكرسة لرواية الطوفان ، وبشكل أدق هناك روايتان غير موضوعتين جنباً إلى جنب .. إنما تنفصلان في مقاطع متداخلة كل في الآخر ، وبمنطق ظاهر في تعاقب مختلف الأحداث .. والحقيقة أن في هذه الإصلاحات الثلاثة تناقضات صارخة ..

هنا أيضاً تتعلل هذه المتناقضات بوجود مصدرين متميزين بشكل جلي : أي المصدر اليهوي (نسبة إلى يهوه) والمصدر الكهنوني . وقد رأينا أن هذين المصدرين يشكلان تجميعاً متنافراً . فقد قطع كل نص أصلي إلى فقرات أو عبارات وهذا مع تعاقب عناصر كل مصدر مع عناصر المصدر الآخر ، بحيث ننتقل

من مصدر لآخر في الرواية سبع عشرة مرة وذلك خلال مائة سطر تقريباً من النص .

ولنضف أيضاً أن للطوفان حسب هذه النصوص مدتين مختلفتين إذ تقول الرواية « اليهوية » أربعون يوماً فيضاناً ـ على حين يقول النص الكهنوتي ـ مائة وخمسون يوماً فيضاناً .

ثم ينتقل المؤلف إلى تاريخ هذا الحادث كما تقول التوراة والتي تقول إن نوحاً قد ولد بعد ١٠٥٦ عاماً من آدم ، ٢٩٢ عاماً من ميلاد إبراهيم ولما كان الطوفان قد شمل كل الأرض وكل الأحياء فمعنى هذا أن البشرية ولدت من جديد بعد هذا الحادث ـ بحيث إنه عندما يولد إبراهيم بعد ذلك بحوالى ثلاثة قرون فإنه يجد الإنسانية قد أعادت تكوين نفسها في مجتمعات فكيف يمكن لإعادة البناء هذه أن تتم في زمن قليل إلى هذا الحد ؟ إن هذه الملاحظة البسيطة تنتزع عن النص أية معقولية .

أكثر من ذلك ـ فإن الوقائع التاريخية تثبت استحالة اتفاق الرواية مع المعارف الحديثة ـ والواقع أن عصر إبراهيم يحدد بالسنوات ١٨٠٠ ـ ١٨٥٠ ـ ق. م. تقريباً . فإذا كان الطوفان قد حدث قبل ثلاثة قرون من إبراهيم ـ كما يوحي بذلك سفر التكوين فإن الطوفان يقع في القرن ٢١ أو٢٢ ق. م. وهذا العصر كانت قد ظهرت من قبله في نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التي تلتها ، وعلى سبيل المثال فهذه الفترة بالنسبة لمصر هي التي تسبق الدولة الوسطى (٢١٠٠ ق.م) وهذا بالتقريب هو تاريخ الفترة الوسطى قبل الأسرة الحادية عشرة ، وفي (بابل) أسرة أور الثالثة ومن المعروف جيداً أنه لم يحدث

انقطاع في هذه الحضارات ، وبالتالي لم يحدث إعدام يخص البشرية برمتها كما تقول التوراة ، وبالتالي فلا يمكن اعتبار روايات التوراة روايات حقيقية كما أنه من غير الممكن تصور (إله) يعلّم الناس بأوهام متناقضة ، وطبيعي أن يثير ذلك وجود تحريف بواسطة البشر . ص (٥٢–٥٣–٥٤) .

ثم انتقل المؤلف بعد ذلك إلى « العهد الجديد » أو ما يعرف بالأناجيل الموجودة بين أيدي المسيحيين ، وقد استهل المؤلف كلامه في هذا الموضوع قائلاً :

« كثيرون من قراء الأناجيل يشعرون بالحرج بل بالحيرة عندما يتأملون في معنى بعض الروايات أو عندما يقارنون روايات مختلفة لحدث واحد مروي في كثير من الأناجيل . وتلك هي الملاحظة التي يقدمها الأب روجي (R. Roguct) في كتابه « مقدمة إلى الإنجيل » Initiation l'Evangile

« إن التجربة الثرية التي اكتسبها هذا الكاتب ـ حيث إنه كان لسنوات طويلة مكلّفاً بالرد في جريدة أسبوعية كاثوليكية على قراء الأناجيل الذين تحيرهم النصوص .. هذه التجربة قد سمحت له أن يدرك مدى أهمية الاضطرابات التي يشعر بها قراء الأناجيل ، ويلاحظ أن طلبات الشرح التي يبعث بها محدثوه الذين ينتمون إلى أوساط اجتماعية وثقافية شديدة التنوع ، وتنصب على نصوص يراها القراء مبهمة غير مفهومة بل ، حتى متناقضة وعبثية أو فاضحة .. » ص ٦٥ .

لقد تعرض المؤلف لتاريخ (كتابة الأناجيل) وتأليفها في حوالى أربعين صفحة من كتابه هذا (٦٥–١٠٤) ، وانتهى من

هذه الدراسة التاريخية بما يشبه الرفض لأكثر ما جاء في هذه الأناجيل بعد أن تناول بالتحليل كل إنجيل من هذه الأناجيل المعروفة على حدة : من حيث الكاتب ومن حيث الموضوع ومن حيث الشكل الذي كتب به هذا الإنجيل أو ذاك . ونتيجة لذلك ـ كما يقول المؤلف ـ فإننا لم نعد متأكدين مطلقاً من أننا نتلقى كلمة المسيح بقراءة الإنجيل . (ص ٩٨) .

ثم يضرب المؤلف لذلك مثلاً بنسب المسيح عليه السلام :

إن البديهية الأولى في هذه القضية أن يكون نسب المسيح من جهة أمه ـ إن كان يجب أن يكون له نسب ـ لأنه (أي المسيح) جاء من غير أب وولدته أمه من غير زوج ، ولكن الأناجيل تتعرض لنسب المسيح من جهة الأب وتذكر لهذا النسب سلسلة تبدأ أحياناً من إبراهيم عليه السلام وأحياناً من آدم أبي البشر وهي في هذا وذاك تذكر أسماء تختلف من هذا الإنجيل إلى هذا الإنجيل .

ويزيدنا المؤلف إيضاحاً فيقول :

يحتوي كل من الأناجيل الأربعة على عدد هام من الروايات التي تسرد أحداثاً قد تكون مذكورة في إنجيل واحد فقط ، أو تذكر في عدة أناجيل ، أو فيها كلها ، فإذا كانت مذكورة في إنجيل واحد فقط ، فإنها تطرح مشاكل هامة . وعلى هذا .. ففي حالة ما يكون (الحدث) بعيد المرمى ، فإن القارئ يدهش أن مبشراً واحداً فقط قد ذكره ، وعلى سبيل المثال : « صعود المسيح إلى السماء » يضاف إلى ذلك أن كثيراً من الأحداث مسرود بشكل مختلف ، وأحياناً بشكل مختلف جداً لدى اثنين أو أكثر من المبشرين ، وكثيراً ما يدهش المسيحيون عندما يكتشفون وجود

هذه المتناقضات بين الأناجيل . (ص ١١٧) .

ثم يتعرض المؤلف بعد ذلك لروايات الأناجيل حول قيامة المسيح من القبر ، وما صاحب ذلك من روايات غير طبيعية ، ويعطينا الأب « روجي » في كتابه « مقدمة إلى الإنجيل » أمثلة على الاختلاط والفوضى والتناقض الذي يسود هذه الروايات فيقول :

« لا تتطابق تماماً في الأناجيل الثلاثة المتوافقة قائمة النساء الآتيات إلى القبر إلا امرأة واحدة في إنجيل يوحنا وهي « مريم المجدلية » ولكنها تتحدث بضمير الجماعة كما لو كانت لها رفيقات ، فهي تقول « لا نعرف أين وضعوه » أما في إنجيل « متّى » فملاك هو الذي يعلن للنساء أنهن سيرين المسيح بالجليل . ولكن المسيح بعد لحظة يقابلهن على مقربة من القبر .. والواقع أن لوقا لا يشير إلا إلى ظهور المسيح ثلاث مرات بعد قيامته .. أما يوحنا فيقول .. إنه ظهر مرتين على ثمانية أيام بمجمع بيت المقدس . ثم في المرة الثالثة يظهر بالقرب من البحيرة . وأما متّى فإنه يتحدث عن مرة واحدة لظهور المسيح بالجليل .. وكل هذه الأمور تتناقض مع إشارات ظهور المسيح الموجودة في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس .. إذ يقول : إنه ظهر لأكثر من خمسمائة شخص في وقت واحد يضاف إلى ذلك أن هناك تناقضاً بين رواية « أعمال الرسل » وهي من تأليف لوقا المبشر .. عن ظهور المسيح لبولس ، وبين ما يقوله لنا بولس عن ذلك بشكل موجز .. » (ص ١٢١- ١٢٢) .

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى « أحاديث المسيح الأخيرة » أو الفارقليط (paracllet) في إنجيل يوحنا ويقول متسائلاً :

« كيف يمكن أن نشرح الغياب التام في أناجيل متى ومرقص ولوقا لرواية الوداع المؤثر الذي يحتوي على الوصية الروحية للمسيح ؟

هل كان النص موجوداً أولاً عند المبشرين الثلاثة الأولين .. ؟

ألم يحذف فيما بعد ؟ ولماذا ؟ ولنقل فوراً إنه لا يمكن الإتيان بأية إجابة . »

وها هي ذي الفقرات الجوهرية في هذه الخطبة حسب الترجمة المسكونية للعهد الجديد :

« إذا كنتم تحبونني فستعملون على اتباع أوامري وسأصلي للأب الذي، سيعطيكم (paracllet) آخر .

ما معنى هذه الكلمة ؟ إن النص الذي نملك حالياً لإنجيل يوحنا يشرح معناها بالألفاظ التالية : الـ (paracllet) الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي سيبلغكم كل شيء ، وسيجعلكم تتذكرون كل ما قلته لكم « هو نفسه سيشهد لي » .

« رحيلي فائدة لكم ، لأنني إذا لم أرحل (فالفارقليط) لن يأتي إليكم وعلى العكس فإذا رحلت فسأبعث به إليكم » .

وعندما يقول المسيح حسب إنجيل يوحنا « سأصلي لله وسيرسل لكم (فارقليط) آخر » فهو يريد بالفعل أن يقول : إنه سيرسل إلى البشر « وسيطاً آخر » كما كان هو وسيطاً لدى الله وفي صالح البشر في أثناء حياته على الأرض .

إذن فالمسيح يصرح بأن الله سيرسل فيما بعد كائناً بشرياً على هذه الأرض ، ليؤدي الدور الذي عرفه يوحنا ، ولنقل باختصار : إنه دور نبي يسمع صوت الله ، ويكرر على مسامع البشر رسالته ..

ذلك هو التفسير المنطقي لنص يوحنا إذا أعطينا الكلمات معناها الفعلي » . (ص ١٢٧ – ١٢٩) .

فمن يكون هذا النبي أو الكائن البشري الذي يحمل رسالة الله بعد المسيح ؟ إنه النبي العربي محمد طبعاً .

وبعد أن ينتهي المؤلف من عرضه لنصوص العهدين « القديم والجديد » على ضوء المعارف العلمية الحديثة ينتقل إلى القرآن الكريم ثم يقارن .

فيعرض في حوالى مائة صفحة (١٣٥–٢٣٧) قصة خلق السموات والأرض ، والنظام الشمسي ، والمجرات والنجوم ، وعلم الفلك ، وتعاقب الليل والنهار ، وتطور العالم السماوي ، وغزو الفضاء ، وطبيعة الأرض ، والبحار ، وعالمي النبات والحيوان والتوازن الذي يتحكم في عالم النبات ، والتناسل في عالم الحيوان ، وتأملات خاصة بالنحل والعناكب والطيور ، وأصول مكونات لبن الحيوان والتناسل الإنساني ، وتطور الجنين في الرحم ، ثم ينتهي المؤلف من ذلك كله إلى تصديق كل ما جاء به القرآن تجاه هذه الظواهر العلمية ، وإلى مطابقة ذلك للحقيقة وإلى رفض كل محاولة للتشكيك في قدسية القرآن وصدقه وقبوله .

لقد مررت سريعاً تجاه هذه الظواهر العلمية ولم أشأ التعليق عليها بإفاضة فالظواهر العلمية لم تكن – بالدرجة الأولى – هي الغاية من عرض هذا الكتاب وتقديمه وإنما الغاية الأسمى في نظري – كمسلم – هي تأكيد ما جاء به القرآن نصاً وحقيقة ، وأنه وحي الله المنزل على صفيه وحبيبه ، لأن ما يهم المسلم بالدرجة الأولى هو إيمانه ويقينه ، ولا يطمع مسلم اليوم في شيء أكثر من هذه

الشهادة التي يقدمها إليه رجل على غير ملته ودينه ، غير أني أستأذن القارئ في عرض نموذج واحد لهذا التفسير العلمي الذي ذكره المؤلف في كتابه ، واستأذنه كذلك في اختيار قصة تطور الجنين كمثال لكل ما اشتمل عليه الكتاب في كل أبوابه .

يقول المؤلف :

« إن تطور الجنين في الرحم كما يصفه القرآن يستجيب تماماً لما نعرف اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين ، ولا يحتوي هذا الوصف على أية مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينقدها ، إذ يقول القرآن إن الجنين بعد مرحلة التشبث ، وهو التعبير الذي رأينا إلى أي حد هو مؤسس على الحقيقة ، يمر بمرحلة « المضغة » (أي اللحم الممضوغ ــ ثم يظهر بعد ذلك النسيج العظمي الذي يغلف باللحم) .

« ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً » (المؤمنون ١٤) .

المضغة تشير إلى ما يشبه اللحم الممضوغ ، أما اللحم فيعني اللحم النضر ، ويستحق هذا التمييز الالتفات ، إذ أن الجنين في مرحلة أولى من تطوره كتلة صغيرة تبدو فعلاً للعين المجردة كلحم ممضوغ ، ويتطور الهيكل العظمي في هذه الكتلة وبعد أن تتشكل العظام تتغطى بالعضلات ، والمعروف أن بعض الأجزاء في أثناء مدة تطور الجنين تبدو غير متناسبة مع ما سيكون عليه الفرد في المستقبل ، على حين تظل أجزاء أخرى متناسبة ، وذلك هو معنى « مخلق » وهي تعني « مشكل » بنسب ، وقد جاءت الآية الخامسة من سورة الحج تشير إلى هذه الظاهرة « ثم من علقة ثم

من مضغة مخلقة » ، ثم يذكر القرآن بعد ذلك ظهور الحواس والأحشاء « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » (السجدة ٩)
وتشير أيضاً إلى تشكل الجنس ..
« وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى » (النجم ٤٥-٤٦) .

وكما قلنا فلا بد من مقارنة كل هذه المقولات القرآنية بالمعلومات التي تثبت في العصر الحديث ، ولكن من المهم أيضاً مقابلتها بالمعتقدات العامة في هذا الموضوع والتي كانت سائدة في عصر التنزيل حتى ندرك إلى أي حد كان معاصرو هذه الفترة بعيدين عن حيازة معلومات تشبه تلك التي يعرضها القرآن في هذه المسائل ، وليس هناك أدنى شك من أن هؤلاء المعاصرين للتنزيل لم يعرفوا في ذلك العصر تفسير هذا الوحي مثلما ندركه نحن اليوم ، والواقع أن المتخصصين لم يكتسبوا معرفة واضحة إلى حد مّا عن هذه المسائل إلا خلال القرن التاسع عشر ، فطيلة كل القرون الوسطى كانت الخرافات والأفكار النظرية هي قاعدة مختلف المعتقدات في هذا الموضوع .. إن المرحلة الحاسمة في تاريخ علم الأجنة بدأت بدعوى « هارفي » الذي قال سنة ١٦٥١ بأن كل شيء حي يأتي أولاً من بويضة ، وأن الجنين يتخلق تدرجاً .. لقد ساعد اختراع المجهر على هذه المعرفة .. وبرغم ذلك فقد كان النقاش دائراً حول دَوْرَيْ كل من البويضة والحيوان المنوي . ولكن القرآن حسم هذا الأمر بحقائق علمية ثابتة ، وبألفاظ بسيطة . حسم هذه القضية التي أنفق الناس مئات من السنين لمعرفتها ... (ص ٢٣٢-٢٣٣) .

لقد عقد المؤلف مقارنة بين رواية التوراة لقصة الطوفان وبين رواية القرآن لهذه القصة فالتوراة تقول : « إن الطوفان كان عاماً لبني البشر جميعاً » الأمر الذي نفته الدراسات العلمية الحديثة والواقع .

بينما يقول القرآن بأن « الطوفان » كان عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح ، وهذا يشكل الفرق الأساسي الأول بين الروايتين .

أما الفرق الجوهري الثاني فهو : أن القرآن ـ على عكس التوراة ـ لا يحدد زمن الطوفان ولا يعطي إشارة عن مدى الكارثة نفسها .

والقرآن يحدد بشكل صريح محتوى سفينة نوح ـ فقد أعطى الله أمراً لنوح بأن يضع في السفينة كل ما سيعيش بعد الطوفان .

« ... احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول .. ومن آمن وما آمن معه إلا قليل » .

ولا تشير التوراة إلى هؤلاء من بين ركاب السفينة ، فالتوراة ـ في الواقع ـ تقدم ثلاث روايات عن محتوى السفينة .

– على حسب الرواية الكهنوتية نوح وأسرته دون استثناء وزوج من كل نوع .

– على حسب الرواية اليهوية هناك تمييز من ناحية بين الحيوانات الطاهرة والطيور ـ وبين الحيوانات النجسة من ناحية أخرى .

– على حسب روايات « يهويه » معدلة ـ زوج من كل نوع طاهر أو نجس ، وتقول التوراة بأن المكان الذي جنحت إليه السفينة نحو جبل « أرارات » أما القرآن فيقول إنه « الجودي » ، وهذا الجبل هو قمة جبال أرارات بأرمينيا .. في نهاية الأمر فالاختلافات بين رواية القرآن ورواية التوراة موجودة .. ولكن إذا

كان بالإمكان التحقق من معطيات الكتب المقدسة .. يصبح واضحاً تمام الوضوح عدم إمكانية اتفاق رواية التوراة في تقديمها للطوفان بزمنه ومدته مع مكتسبات العلوم الحديثة ، وعلى العكس من ذلك فإن رواية القرآن تتضح خالية من أي عنصر مثير للنقد الموضوعي . (ص ٢٤٨) .

* * *

وفيما يختص بالمسيح عليه السلام وقصة ميلاده يقول المؤلف :

« يجب أولاً أن نلاحظ أنه ليس هناك أي موضوع من موضوعات الأناجيل قد أثار انتقادات من وجهة النظر العلمية دون أن تجده في القرآن (أي تجد الموضوع لا النقد) والمسيح في القرآن ـ موضع إشارات عديدة منها على سبيل المثال ـ إعلان ميلاد مريم إلى أبيها ، وإعلان معجزة ميلاد المسيح لمريم ـ وطبيعة المسيح ـ فهو نبي يحتل المكانة الأولى بين الأنبياء .

إن سورة « آل عمران » وسورة « مريم » تخصصان فقرات طويلة لأسرة المسيح ، وهما ترويان مولد أمه مريم وصباها ، وإعلانها بأمومتها الخارقة . والمسيح يسمى دائماً في القرآن بـ« ابن مريم » والقرآن يعطي نسب المسيح من جهة أمه أساساً ، وذلك أمر منطقي تماماً . « إذ ليس للمسيح أب بيولوجي » وهنا .. ينفصل القرآن عن إنجيلي متى ولوقا اللذين يعطيان للمسيح كما رأينا نسبين من جهة الذكور وهي بالإضافة إلى ذلك مختلفة ...

أما القرآن فإنه يضع المسيح من خلال نسب أمه من سلسلة نوح وإبراهيم ، ولا يجد قارئ القرآن أخطاء في الأسماء كتلك التي يجدها في الأناجيل ونعني الأخطاء الخاصة بأسلاف المسيح .

ومرة أخرى تفرض الموضوعية أن نشير إلى ادعاء هؤلاء الذين يقولون ـ بلا أي أساس ـ إن محمداً (ص) مؤلف القرآن قد نقل كثيراً من التوراة ... ولو كان ذلك حقاً لتساءلنا من الذي دفعه ، أو ما الحجة التي أقنعته بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح ، وبإدخال تصحيح في القرآن يضع نصه بعيداً عن أي مرمى نقدي تثيره المعارف الحديثة ؟ على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرة من وجهة النظر هذه . (ص ٢٤٢)

* * *

وفي نهاية هذه الدراسة الممتعة الرائعة يقول المؤلف :

« إن العهد القديم يتكون من مجموعة من المؤلفات الأدبية أُنتجت على مدى تسعة قرون تقريباً .. وهي بشكل عام مجموعة متنافرة جداً من النصوص عدَّل البشر من عناصرها عبر السنين ، وقد أضيفت أجزاء لأجزاء أخرى كانت موجودة من قبل . بحيث إن التعرف اليوم على مصادر هذه النصوص عسير جداً في بعض الأحيان .. (ص ٢٨٤) .

ولقد كان هدف الأناجيل هو تعريف البشر عبر سرد أفعال وأقوال المسيح بالتعاليم التي أراد أن يتركها لهم عند اكتمال رسالته على الأرض ، والسيئ هو أن الأناجيل لم تكتب بأقلام شهود معاينين للأمور التي أخبروا بها .. إنها ببساطة تعبير المتحدثين باسم الطوائف اليهودية المسيحية المختلفة عما احتفظت به هذه الطوائف من معلومات عن حياة المسيح العامة . وذلك في شكل أقوال متوارثة ـ شفهية أو مكتوبة ـ اختفت اليوم بعد أن احتلت دوراً وسطاً بين التراث الشفهي ، والنصوص النهائية ، ولقد كانت

النتيجة الحتمية لتعدد المصادر هو التناقضات والمتعارضات التي أعطينا عليها أمثلة عديدة . (ص ٢٨٤) .

أما القرآن فإنه لا يخلو فقط من متناقضات الرواية ـ وهي السمة البارزة في مختلف صياغات الأناجيل ـ بل يظهر أيضاً لكل من يشرع في دراسته بموضوعية ، وعلى ضوء العلوم طابعه الخاص : وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة ... بل أكثر من ذلك يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنساناً في عصر محمد (ص) قد استطاع أن يؤلفها . (ص ٢٨٥) .

إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات في القرآن تظهر الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علمياً وبين مقولات القرآن التي تتوافق تماماً مع المعطيات الحديثة ...

ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر .. لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحي من الله .. وأن تعطى له مكانة خاصة جداً .. حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه ، وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو وكأنها تتحدى أي تفسير وضعي .

« وإنه لكتاب عزيز » ...

« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ... » .

صدق الله العظيم

رسالة إلى الأخت مارجريت

كانت مفاجأة أن تكتبي إلي في هذه القضايا التي أثيرت عرضاً في هذه الزيارة الخاطفة لمدينة ستراتفورد .. لم أكن أتصور أن يعلق بذهنك هذا الحوار الذي أثاره الأب اليسوعي « برنارد » عن موقف الإسلام بالذات من قضايا المرأة والجهاد وحرية الفكر .. وهكذا ترين أنني أتعجل عليك بالرد .

أولاً : لأن واجب علماء الدين هو التبليغ والإيضاح والشرح .

ثانياً : لأني كما فهمت من رسالتك لا تزالين حائرة في الاختيار بين هذا الدين وغيره من الديانات التي تحاولين فهمها بدراسة وعمق .

ولا أدري من أين أبدأ معك الحديث يا أخت مارجريت ..

فقد أثرت برسالتك أموراً يأخذ بعضها بخناق بعض . وإن التقت في النهاية جميعاً عند نقطة واحدة ينحصر فيها الخلاف والجدل والرأي ..

تقولين في رسالتك : إن الطلاق قسوة وظلم . وأريد أن أسأل قبل أن أناقشك هذا الرأي ما هو الحل إذا بلغ الشقاق بين الزوجين حداً استحال عنده الوفاق والصلح وأصبحت معه الحياة الزوجية جحيماً لا يطاق ؟

وما هو الحل إذا تنافرت طباع الزوجين كل التنافر . وألقى

في نفس كل منهما كراهة الآخر ... ؟

وما هو الحل إذا فسدت أخلاق الزوجين ولم يرعيا لعهد الزواج حرمة ولا عهداً وأصبح كل منهما يكيد للآخر سراً وجهراً ؟

وما هو الحل إذا فقد الرجل مقومات جنسه ؟ أو كان عقيماً لا ينجب أو حكم عليه بالسجن المؤبد ، أو أعسر ولم يستطع الانفاق وأصبحت الزوجة مهددة بالموت .

إن قيام العلاقة الزوجية في هذه الحالة جريمة ضد الرجل والمرأة على حد سواء وكما يقول فيلسوفكم المشهور (بنذام) معلقاً على هذه الأوضاع : لو لم يكن إلا الموت وحده هو المخلص من زواج هذا شأنه لتنوعت صنوف القتل ..

ومع كل ذلك يقول نبي الإسلام : « أبغض الحلال عند الله الطلاق » وأي رجل أو امرأة يحاول الإفساد بين رجل وزوجته حرام عليهما رائحة الجنة » .

ويقول محمد عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من خبب وأفسد امرأة على زوجها وأيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس حرام عليها رائحة الجنة » .

ويقول فقهاء الإسلام : إن الطلاق محظور إلا لحاجة ضرورية ..

هذا هو موقف الإسلام من هذه القضية . فهل وقفت أوربا وحضارتها وعقائدها نفس الموقف ؟

أحب يا أخت مارجريت أن تقرئي معي ما كتبته « هيلين ستانيري » وهي صحفية أمريكية عاشت عندكم في أوربا .. فماذا تقول الأخت هيلين .. ؟

« إن الفتاة في أوربا وأمريكا تتزوج الآن في دقائق وتطلق

بعد ساعات ولا يكلفها هذا أكثر من إمضاء وعشرين بنساً وعريس لليلة أو بضع ليال وبعدها الطلاق ثم الزواج ثم الطلاق مرة أخرى » .

لا أريد أن أتوسع معك كثيراً في هذه القضية .. أريد فقط أن تذهبي إلى مكاتب تسجيل عقود الزواج في لندن وتسألي أية فتاة من الواقفات هناك هذا السؤال :

كم مرة تتزوجين وكم مرة تطلقين ؟ وإذا شئت بياناً أكثر فاطلبي من مكتب هيئة الأمم المتحدة إحصائية عن نسبة الطلاق في شعوب العالم وستجدين في النهاية أن أعلى نسبة موجودة عندكم في أوربا وأمريكا .

ألم يوافق البرلمان الإيطالي أخيراً على قانون بإباحة الطلاق بعد معارضة شديدة من الفاتيكان الذي استسلم أخيراً للأمر الواقع واعترف بحق كل من الزوجين في الانفصال والفرقة ؟

ألم يطلق سير انتوني ايدن زوجته ويتزوج بأخرى من أسرة تشرشل رغم التقاليد الانجليزية الجامدة لرجل في مثل مركزه ، وسنه وتاريخه .. ؟

وتقولين في رسالتك : لماذا يبيح الإسلام التعدد للرجل ولا يبيحه للمرأة ؟ أما عن إباحة التعدد للمرأة فأمر لن أناقشه لأنك تدركين تماماً ما أعني ونحن هنا في بلاد الإسلام لا نفكر في هذا ... ولا يخطر ببال امرأة شريفة حرة هذا السؤال أبداً ، وسأقول لك كيف يبيح الإسلام التعدد للرجل ولماذا ؟ إن التعدد مباح بشرط القدرة والعدل وهو كلام يحتاج إلى تفصيل أكثر في غير هذه الرسالة ... أما لماذا يبيح الإسلام هذا التعدد .. فأرجو أن تذهبي

إلى (الهوم آفيس) في لندن وتطلبي إحصائية بعدد سكان بريطانيا وكم يزيد عدد النساء على الرجال في المملكة المتحدة ؟ واطلبي إن استطعت مثل هذه الإحصائية من كل دول أوربا أو حتى كل بلاد العالم . وستعرفين بنفسك كم مليوناً يزيد عدد النساء على الرجال في هذه الدنيا ، مئات الملايين يا أخت مارجريت .. فإذا سلمنا بوجهة نظرك وحرمنا التعدد بقانون كما تفعل بعض الحكومات فماذا يفعل مائة مليون امرأة أو مائتا مليون ؟ إذا أجبت عن سؤالي هذا فسوف اقتنع بوجهة نظرك ..

ثم ما هي حكاية الجهاد والسيف التي ترددينها مع الأب برنارد ؟

إن عدد المسلمين في العالم اليوم حوالى تسعمائة مليون مسلم ، ويمكنك أن تعرفي كيف انتشر الإسلام في هذه البلدان بعد قراءتك لكتاب (توماس ارنولد) وستفاجئين بالحقيقة التي طمسها مؤرخو الغرب لقد حكم المسلمون الهند عدة قرون فماذا كان مصير الإسلام والمسلمين في الهند ؟ وحكموا إسبانيا عدة قرون فماذا بقي منهم على الإسلام حتى هذا اليوم ؟

وكانت لهم ممالك وسلطنات في الفليبين وفي الحبشة وفي الصين وفي روسيا . ودقت جيوشهم أبواب باريس وفيينا . وسيطروا على نصف أوربا وبسطوا نفوذهم في كل أرجاء آسيا وإفريقيا . وكانت لهم كلمة مسموعة في كل الدنيا . فماذا أصبح ملوك الأمس ؟ وماذا جرى على المسلمين في سالف الزمان والعصر ... ؟ وأين ذهب المهند والحسام والسيف ؟

يقول « جوستاف لوبون » وهو مؤرخ فرنسي غير مسلم يا أخت مارجريت « لقد أضرَّت بالمسلمين سماحتهم . وأضرَّ بهم

كرمهم وشهامتهم . لقد كان سكان البلاد المفتوحة ـ من غير المسلمين يشتمون النبي العربي علناً في مجالس عامة . وهو أمر لو حدث في هذا العصر لأي زعيم عادي لقتل قائله ، أو لاقى حتفه في غيابة الجب» . ولم يحدث أن أضير واحد من هؤلاء (المهووسين) كما يقول لوبون ـ في نفسه أو جسده أو عقيدته ـ وترك ملوك المغول شعوب الهند على عقائدها الوثنية ولم يسمع بملك واحد أرغم وثنياً واحداً على تغيير دينه بل ذهب بعض هؤلاء الملوك في التسامح حداً جعل ملكاً منهم يفكر في دين يجمع بين الإسلام والعقائد الهندية المختلفة .

ولو صدقت خرافة السيف هذه ... لما بقي واحد من غير المسلمين على قيد الحياة في البلاد الإسلامية التي اعتنقت الإسلام في عصوره الأولى المتقدمة . بل حدث في مصر أن واليها المسلم وقف يعارض دخول المصريين في الإسلام طمعاً في الجزية وكان ذلك في عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز فكتب عمر إلى هذا الوالي قائلاً : إنما بعث الله محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً .

ولماذا نذهب بعيداً يا أخت مارجريت . يمكنك زيارة أي بلد مسلم وسترين بنفسك كيف يعيش غير المسلمين في بلاد الإسلام معيشة أكثر سماحة وحرية من بلاد تدين بعقيدة هؤلاء وشريعتهم . لو كان للمسلمين « سيف » كما تسمعين لما ضاعت الأندلس وفلسطين ولما ذبح المسلمون ذبح الشياه كما يحدث اليوم في الفليبين والحبشة وبلاد كثيرة في آسيا وإفريقيا وأوربا ...

وأخيراً ماذا تعنين بكلمة (المرأة) وحرية التصرف والفكر ... ؟

حين جاء الإسلام كانت المرأة في نظر كل الشرائع والأنظمة

شيئاً تافهاً لا يستحق العناية . كان البعض يعتبرها رجساً . والبعض يعتبرها خطيئة وإثماً ... وفي أوائل القرن السادس للميلاد وقبل مجيء محمد عليه الصلاة والسلام عقد مؤتمر في باريس للبحث عن حقيقة المرأة وطبيعتها ؟ هل هي إنسان أم شيطان ؟ هل لها روح كبقية الرجال أم هي مخلوق بلا روح ؟ هل تدخل الجنة وملكوت السموات أم تبقى مخلدة في الجحيم والنار ؟ وأشياء أخرى كثيرة مضحكة . فجاء الإسلام وأسقط كل هذه القيود ، ورفع عن المرأة هذا النير وجعل الجنة تحت أقدامها هي لا تحت أقدام الرجل . وأعطاها الحرية في تصرفها وفي المال . واعتز برأيها ومشورتها ...

وكان نبي الإسلام يفخر بأنه ابن امرأة كانت تأكل القديد . وسمى العام الذي ماتت فيه زوجه خديجة « عام الحزن » وأوصى أصحابه أن يأخذوا نصف دينهم من إحدى زوجاته المعروفة بالعلم ...

إن الحرية التي منحها الإسلام للمرأة هي الحرية الحقيقية التي تستطيع بها المرأة أماً أو أختاً أو زوجة أو بيتاً . تستطيع أن تبني . وتشارك . وتسهم في تطور المجتمع والأمة . لا تلك الحرية العابثة الماجنة التي تشاهدينها في « بيكاديللي » و ... « أكسفورد ستريت » أو « ماريل آرش » ... !

قبل عام مضى أي بعد لقائنا العابر في « ستراتفورد » شاهدت في محطة سكة حديد «بادنجتون» مئات من الفتيات والفتيان ينامون على الأرصفة ... متلاصقين – في شكل مهين مزر ..

ورأيت فتاة تتقيأ من شدة السكر وهي شاردة لا تدري ...

حتى الكنائس ودور العبادة لم تسلم من هذا العبث الفاضح المخزي .. فهل تسمين هذا كله حرية ؟ وهل يقبل بذلك عاقل فيه بقية من آدمية ؟

لقد تناقشت في هذا الموضوع مع المستر «تشارلي» وهو مدرس تتلمذت عليه في مدرسة بشارع «مانشستر» بالقرب من متحف مدام توسيد . وفي النهاية سألته هذا السؤال :

ماذا تفعل حين تعود ابنتك إلى البيت تحمل بين ذراعيها طفلاً لا تعرف هويته ولا هوية والده ... أتدرين ماذا فعل المستر تشارلي ؟

لقد غضب وهو الرجل الانجليزي البارد الأعصاب وقال : لا . لا .. لا يمكن أن يحدث ... !

شيء واحد أوافقك عليه تمام الموافقة ، بل وأؤيدك فيه كلية بلا تحفظ . فالمسلمون كما تقولين بعيدون كل البعد عن دينهم وعقيدتهم . وهذا يشكل أكبر عقبة بالنسبة لانتشار الإسلام في بلادكم ... ولنا أخ مسلم في همبورج يعاني من هذه المأساة بسبب معايرة والديه له بواقع المسلمين وحاضرهم ، وفي لندن مر الأخ «مارديوك» بنفس المشكلة .. وقد حدثني سفير جزائري عن عالم فرنسي اسلم عن طريق الدراسة والبحث ، ثم رأى أن يزور بلاد الإسلام ليرى كيف يعيش المسلمون بدينهم وعقيدتهم فقطع رحلته عائداً إلى فرنسا وانطوى حزيناً مع نفسه لما رأى وشاهد في رحلته ، وحين سأله صديق له عن سبب عودته ورجوعه قال متحسراً : الحمد لله الذي جعلني مسلماً قبل أن أرى المسلمين .. أنفسهم ... !

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر زار الزعيم الإسلامي

جمال الدين الأفغاني بلادكم . وحين رجع إلى مصر سألوه : هل يمكن أن ينتشر الإسلام في بلاد مثل أوربا ؟

فقال الحكيم الأفغاني : نعم . يمكن ذلك في حالة واحدة ... حين نقيم بالدليل والحجة أن المسلمين الذين ينتسبون إلى الإسلام قولاً ـ لا عملاً ـ حين نقيم بالدليل على أن هؤلاء ليسوا بمسلمين فعلاً ..

وتلك هي مأساة الإسلام يا أخت مارجريت ....

ع . ش .

* * *

يقول الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود :

في شهر أكتوبر ١٩٣٢ وصلت إلى باريس ، وذهبت إلى صلاة الجمعة في المسجد وما أن انتهت الصلاة حتى رأيت شخصاً تلوح على وجهه سمات الطيبة يتجه نحوي ثم يسألني :

هل أنت مصري .. نعم . هل تعرف محمود بك سالم ... ؟

لم يسعدني الحظ بذلك .

هيا إذن لأعرفك به .

وذهبت معه وقابلت السيد « محمود سالم » وأحسست عند لقائه بالإرتياح إليه والضيق به في آن واحد ، كانت نظراته كأنها انعكست انعكاساً تاماً في داخل نفسه ، واستقرت على أفكاره ، فهي ترى الأفكار وحدها دون نظر إلى المخاطبين لم يكن حفياً في تحيته ، لكنه قال وبدون مقدمات : موعدنا الليلة في المحطة الساعة الخامسة لنستقبل الأستاذ « خالد شلدريك » .

فأخذت أسائل نفسي من هو خالد شلدريك . ؟ ولماذا أذهب إلى مقابلته ؟ ولكن حب الاستطلاع والشعور بالغربة دفعاني إلى الذهاب في الموعد المحدد .

وجاء خالد شلدريك وكانت السيارات معدة . فركبنا ولكن إلى أين ؟ لست أدري . وصلنا إلى قصر فخم ونزل الركب . واستقبلتنا سيدة أنيقة في صالون غاية الفخامة والأبهة .. كانت أميرة سرواك .. أميرة انجليزية الأصل قد أسلمت وكتبت عن سبب إسلامها ، وفوجئت بعدد كبير من الأوربيين الذين اعتنقوا الإسلام . وقد جاءوا لاستقبال «خالد شلدريك» الذي اعتنق الإسلام وكرس حياته لنشره بين الناس ومن ذلك الحين بدأت أفكر في الأسباب التي دعت هؤلاء الناس إلى اعتناق الإسلام .

لقد ظهرت في الحرب العالمية الأخيرة تيارات قوية تعارض هذه الحرب ، وتزعم هذه الحملة مفكرون كبار في دنيا الغرب وأعلن كثيرون رفضهم لهذه الحضارة التي دمرت العالم مرتين في ربع قرن أعلنوا رفضهم لقيم هذه الحضارة ، وفلسفتها ومعتقداتها وطالبوا بالتغيير الشامل في أسسها ومتطلباتها . وحين سئل «برنارد شو» عن البديل لهذه الحضارة المنهارة قال على الفور :

إنه الإسلام ، دين المستقبل أو دين الجنتلمان أو دين التوازن الروحي والعقلي أو دين الحياة في عالم يسوده الدمار والموت .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود :

في سنة ١٩٤٨ كنت مع أحد العلماء الأمريكيين نطوف بأرجاء الأزهر ... معهدنا العتيق ... وبينما نحن على وشك الخروج علمت أن بعض أعضاء لجنة الفتوى موجودون في مقر انعقاد

هذه اللجنة بالجامع الأزهر . فحدثت هذا الأمريكي عن لجنة الفتوى ورسالتها فرغب في زيارتها والتعرف على أعضائها .. دخلنا القاعة فكان فيها المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم والمرحوم الشيخ محمد العناني وبعد التعارف والتحية خاطب العالم الأمريكي فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم قائلاً :

إن الغرب الآن في حالة روحية قلقة ومن الممكن أن يتجه إلى الإسلام ولكن من المحتمل أن يتجه إلى صوفية الهند فهل أعد الأزهر عدته لتوجيه الغرب نحو الإسلام ؟ وكان السؤال مفاجئاً أو مربكاً . ولكن فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم أجاب وفي أسلوب دبلوماسي لبق : إننا بصدد الدراسة والبحث ..

وجعلني سؤال هذا العالم أعود من جديد إلى التفكير في موضوع الغرب والإسلام وصرفتني الشواغل من جديد إلى أن وقع في يدي كتاب « إيقاظ الغرب للإسلام » تأليف اللورد هيدلي فقرأت فيه ... من عدة سنين خلت . كان أحد أفكاري الرئيسية هو كيف يمكن للإسلام أن « يتغرب » أي يصبح غربياً، وبعبارة أخرى ــ الكلام لا يزال للورد هيدلي ــ كيف يمكننا نحن الأوربيين أن نعد أنفسنا لنفقه معنى الإسلام الحقيقي . إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً مسلمون قلباً . ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعب الناشئ عن الدخول في الإسلام يخفي هذه الحقيقة التي لا بد يوماً أن تظهر ...

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود : إن الإسلام واضح جلي ، وأن تعاليمه سهلة ميسورة تنسجم مع العقل والمنطق فما هو السر في عدم انتشار الإسلام في سرعة هائلة و بجموع كبيرة في أوربا .. ؟

في نظر ـ الإمام الأكبر ـ أن ذلك يرجع إلى عاملين أساسيين ، عامل داخلي وهو واقع المسلمين وحاضرهم . وعامل خارجي وهو موقف الكنيسة من المسلمين وعقيدتهم .

لقد اتقنت الكنيسة « فن النظام » فلا ارتجال فيها ، كل شيء فيها معد ومرتب وعملها يقوم على ركيزتين أساسيتين : أولى هذه الركائز ، هي التبشير ، وثانيتهما هي الدفاع وصد الهجوم عن المسيحية بأساليب حديثة مبتكرة . أما فيما يتعلق بالتبشير فإنه من الأوليات عندها فالمبشر يجب أن يدرب على كل شيء ، ويتسلح بكل شيء ، إنه يدرس عادات القوم الذين يرسل إليهم ودينهم وتقاليدهم ويعرف مواطن الضعف فيهم والوسائل التي تغريهم وتجذبهم . وأما الركيزة الثانية فهي تقوم على دراسات مستمرة لتشويه الديانات المخالفة ، وإلصاق التهم بها . وتنفير الناس منها . ولأن المجتمع الأوربي مشغول بحياته المادية فليس عنده الوقت للدراسة والبحث في هذه الأمور التي يعتبرها من مخلفات الماضي ومحاكم التفتيش .

ولكن إلى متى ... ؟ إن الحقيقة لا يمكن إخفاءها طويلاً ..

والظلام مهما تكاثف فلا بد أن يجلوه النور في غمضة عين .

فالعالم اليوم غيره بالأمس ، الاتصال قائم ومستمر بين شعوب الأرض في كل لحظة ، الحواجز التي أقامها التعصب والكراهية بدأت تنهار الصور البشعة للإسلام والمسلمين في أعين الغرب بدأت تختفي وتتلاشى ، رجال الفكر والمنصفون بدأوا يعرفون الحقيقة .

* * *

كان الكونت « هنري دي كاستري » من كبار موظفي الاستعمار الفرنسي في الجزائر يسير ممتطياً جواده وخلفه ثلاثون من فرسان العرب الأقوياء فخوراً بمركزه يأمرهم فيلبون ويناديهم فيسمعون ويطيعون .. وفجأة وجدهم يقولون له وفي شيء من الخشونة وفي كثير من الاعتداد بالنفس :

« لقد حان وقت صلاة العصر » .

ودون أن يستأذنوه في الوقوف . ترجلوا واصطفوا للصلاة متجهين إلى القبلة ودوت في أرجاء الصحراء كلمة الإسلام الخالدة « الله أكبر ... » وشعر الكونت بشيء من المهانة في نفسه وبكثير من الإكبار والإعجاب لهؤلاء الذين لا يبالون به ، بل اتجهوا إلى الله وحده بكل كيانهم وبدأ يتساءل : ما الإسلام .. ؟ أهو ذلك الدين الذي تصوره الكنيسة في صورة بشعة تنفر منها النفس ؟ وبدأ يدرس الإسلام .. وتغيرت فكرته عنه ، ورأى من واجبه أن يعلن ما اهتدى إليه فكان كتاب « الإسلام خواطر وسوانح » وفي هذا الكتاب يفند « الكونت هنري دي كاستري » جميع الأكاذيب والمفتريات التي ألصقت بالإسلام على يد رجال الدين ظلماً وكذباً ..

يقول الكونت كاستري :

إن من أعجب العجائب أنهم علمونا أن محمداً الذي هو عدو الأصنام ومبيد الأوثان كان يدعو الناس إلى عبادته في صورة وثن من ذهب . وقالوا لنا : إن صورة « ماهوم » محمد كانت تصنع من أنفس الأحجار الكريمة والمعادن .. إن أولئك ما قصدوا خدمة التاريخ ولا الحقيقة بأقوالهم الكاذبة إنما أرادوا

فقط أن يسبوا ويشتموا وأن يحرفوا في النقل ما استطاعوا .

مرة ثانية إن الحقيقة لا يمكن إخفاؤها طويلاً ، فاللورد هيدلي الانجليزي العريق النسب يقول عن سبب إسلامه .. لقد صليت وفكرت أربعين سنة كي أصل إلى حل صحيح لشكوكي وقلقي ويجب عليّ أن أعترف أن زيارتي للشرق الأوسط ملأتني احتراماً للدين الإسلامي السهل الذي يجعل الإنسان يعبد الله طول الحياة لا أيام الآحاد فقط . إنه دين الأخلاق والشهامة ... والشجاعة والحياة السهلة الميسرة والاخاء والالفة والمحبة .

وكما يقول « اتبين دنييه » أن عنصرين من عناصر الشر يتألبان على الإسلام ويهاجمانه في عرينه وهما رجال السياسة الاستعماريون ورجال الدين المتعصبون . .

رجال السياسة الاستعماريون يحاربون الإسلام لأنه القوة الوحيدة التي أبطلت كيدهم وأفسدت خططهم والمتعصبون من رجال الدين يدركون الخطر الذي يتهدد وجودهم حين تترك حرية التفكير للإنسان الأوربي فيكتشف الحقيقة التي طمسوا معالمها بالتزوير والبهتان والزيف وحينئذ يتغير كل شيء ..

ولكن النبوءة التي أعلنها « برنارد شو » تأخذ طريقها الآن إلى كل قلب فالمساجد الآن ترتفع ماراتها في مدن كثيرة من بلاد الغرب .

وفي كل يوم يدخل المهتدون في دين الله فوجاً بعد فوج ..

* * *

منذ سنوات كنت جالساً في المركز الإسلامي بلندن وتعرفت على شاب مصري يدرس في إحدى الجامعات الإنجليزية وقد

روى لي هذا الشاب قصة عجيبة عن أستاذ إنجليزي يعمل في هذه الجامعة ، قال الشاب :

ذهبت إلى الأستاذ الذي يشرف على رسالة الدكتوراه في الكلية فاعتذر لضيق الوقت . وطلب مني أن أقابله في منزله بعد الساعة السادسة . وذهبت إلى منزل الأستاذ في الوقت المحدد .

جلست في صالون الاستقبال . سألني الأستاذ : هيه ... ماذا تشرب .. ؟ قلت له : أي شيء عدا الكحول والخمر . فقال لي الأستاذ : ومن أدراك أننا سنقدم إليك خمراً ؟ قال الطالب المصري : هذا هو المعتاد في بريطانيا وأوربا .. فقال الأستاذ : ولكننا لا نشرب ذلك ولا نقدمه لأحد في بيتنا ... فقال الطالب متعجباً : هذا شيء غريب حقاً ..

فقال الأستاذ : حين تعرف الحقيقة لن تتعجب . قم تعال معي .. وسار الشاب وراء الأستاذ حتى دخلا حجرة في أحد أركان المنزل .. وفغر الشاب المصري فاه من الدهشة . لقد كانت هذه الحجرة مسجداً . وكان الأستاذ الإنجليزي مؤمناً موحداً ..

المحتويات

رقم الإيداع : ٩٤١٠ / ١٩٩٠
الترقيم الدولى : ٢ ـ ٠٠١٩ ـ ٠٩ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣